

تراث الصحابة

في التغيير واصلاح القلوب

وصايا للدعاة ومائة موضوع في العقيدة والسنة واصلاح القلوب

الدكتور

يونس فهد علي

الطبعة الرابعة مزيدة ومنقحة

٢٠٢٠ م

١٤٤٢ هـ

العنوان: زاد الدعاة في التغيير وإصلاح القلوب
وصايا للدعاة ومائة موضوع في العقيدة والسنة وإصلاح القلوب

تأليف: الدكتور يونس فهد علي

عدد الصفحات: ٤٠٠

القياس: ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢١٩٠) لسنة ٢٠٢٠

يسمح بطباعة الكتاب أو جزء منه دون تغيير

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلِّ فلا هاديَّ له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُؤَلُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

أما بعد: فلقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب رحمة بالناس حتى يسود العدل بينهم قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) وعرفهم تعالى بنفسه وبأسمائه وصفاته ليعبده وحده ولا يشركوا به شيئاً ويتركوا عبادة مخلوقاته. وأمر رسله ومن اتبعهم بالدعوة إليه فقال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

هذا الكتاب يتضمن وصايا للدعاة الى الله ومائة موضوع في العقيدة والسنة واصلاح القلوب وأكثرها من قراءاتي في كتب الأولين من العلماء الذين لهم الفضل علينا بعد الله تعالى الذي هدانا وأعزنا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي كتب من سبقني من الدعاة الى الله تعالى، وهو معزز بالأدلة من القرآن والحديث الصحيح من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال العلماء والصالحين وبعض الآثار اضعها بين يدي الدعاة الى هذا الدين وكل مسلم يريد السير على صراط الله المستقيم الذي بينه تعالى في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

أرجو أن يكون عملي هذا خالصاً لوجه ربِّي الكريم وأستغفره سبحانه من التقصير فيه وقول ما لا يرضيه وأن يجزييني به بفضله ومثله وكرمه إن ربِّي سميع مجيب. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

بغداد — ١٤٤١ هـ

منهجي في الكتاب

هذا الكتاب الذي بين يديك عبارة عن مجموعة من الخطب والدروس التي منَّ الله تعالى بها عليّ فلا علم لنا إلا ما علّمنا ربّنا وهو العليم الحكيم، وأكثرها من قراءاتي في كتب الأولين الذين لهم الفضل علينا بعد الله تعالى الذي هدانا وأعزّنا برسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم، وفي كتب من سبقني من الدعاة وأعتذر لهم في حالة عدم توثيق بعض العبارات من أجل الاختصار، وقدّر الله تعالى أن أحتفظ بها ثمّ هداني سبحانه وتعالى أن أراجعها وأجمعها في هذا الكتاب لتتمّ الفائدة منها لمن يقرأها سواء كان خطيباً أو داعية أو مسلماً تائباً من ذنوبه يريد أن يسير على صراط الله المستقيم ويترك ما كان عليه من الذنوب والمعاصي. وقد ربّته بحيث يستفيد منه الخطيب لإلقائه في خطب الجمعة أو محاضراته الدعوية وفق المنهج التالي:

أولاً: صدّرت البحث بمقدّمة وكلمة إلى الدعاة، بيّنت فيها مواصفات الداعية الناجحة وسمات الخطبة الناجحة وبيان أهمية الإمامة ومسؤوليتها الكبيرة ومن هو أحقّ بها لتنبية الداعية والإمام على عظم المسؤولية التي يحملونها وهي دعوة الانبياء والرسل وإرشادهم على بعض مواطن القوّة في الدعوة للعمل بها ومواطن الخلل لتجنّبها لتكون دعوتهم مؤثّرة بالآخرين ويجنون ثمارها عاجلاً بهداية الناس وأجلاً بنصر الاسلام.

ثانياً: اشتملت الخطب على موضوعات في العقيدة والعبادات والأخلاق وإصلاح القلوب والسنن الثابتة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم والأسباب التي توصل لمحبة الله سبحانه وتعالى. ثالثاً: اختصرت الموضوعات قدر الإمكان، وللخطيب أن يضيف أو يحذف ما يراه مناسباً لحال المخاطبين.

رابعاً: صدّرت كلّ خطبة بآية يدور حولها موضوع الخطبة، وتركت مقدّمة الخطبة لاختيار الخطيب على أن يلتزم بأركان الخطبة.

خامساً: استشهدت بالحديث الصحيح أو الحسن، وبما ورد من كلام الصحابة والصالحين وسيرهم وبعض الآثار.

سادساً: رمزت بعلامة (***) للاستدلال على بدء الخطبة الثانية.

سابعاً: الدعاء في آخر كل خطبة مما ثبت من دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلّم.

كلمة إلى الدعاة

أودّ أن أنبّه إخواني الدعاة إلى بعض الأمور التي تخصّهم ليكون كلامهم مؤثرا في الآخرين، فلا بدّ أن يتفطنّ الداعية إلى الله لعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه وأنّ الله تعالى قد تفضّل عليه بالعلم وأذن له أن يقوم بأعظم وظيفة عرفها الانسان وهي وظيفة الأنبياء والرسل بالدعوة إلى الله قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [يوسف: ١٠٨]

فالقائم بالدعوة ينوب عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بتبليغ الرسالة، لأنّ الله تعالى قال عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) [الأحزاب: ٤٦]، وسائر مع ركب الجيل الأول من الصحابة الذين قادوا الأمة وجعلوها في مقدّمة الامم بعد أن كانت تتعثّر خلف ركب المسيرة الانسانية.

فبهذه الدعوة شرفت الامّة وأصبحت خير الامم قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران: ١١٠]

فهي مسؤولية كبيرة ومهمّة عظيمة ثمرتها هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور وإسعادهم في الدنيا ونجاتهم من النار وفوزهم برضا الله تعالى والجنة يوم القيامة. قال تعالى: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [ابراهيم: ١]، لتهدّهم به من ظلمات الضلالة والكفر، إلى نور الإيمان وضيائه، وتبصّر به أهل الجهل والعمى سبيل الرّشاد والهدى.

وأجر الدعوة إلى الله عظيم ومبارك فيه ولا يعلمه إلا الله، عن أبي هريرة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْجَزَاءِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ

لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»^(١)

ولا يستهين الداعي إلى الله بتبليغ ما يعلم وإن كان قليلا فرب آية أو حديث هدت عاصيا وأعادته إلى ربه عبدا مستسلما بعد أن كان آبقا، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢).

ومن مواصفات الداعية الناجح:

أولاً: إخلاص النية لله تعالى: على الداعية أن يخلص النية لله ويطلب الأجر منه، وألا يريد بعمله الدنيا، فالأنبياء والرسل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام قالوا لأقوامهم: (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الشعراء: ١٢٧]، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ربه: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [سبأ: ٤٧]

ونبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وحذر منه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُتَغَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣)، فعلى الداعية أن يخرج الدنيا من قلبه عند دعوته وما جاءه من غير مسألة ولا استشراف فلا بأس به لقول النبي: «مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ وَمَا لَا فَلا تَتَّبِعْهُ نَفْسَكَ»^(٤)

وخير الدعاة بعد النبي صلى الله عليه وسلم صحابته فقد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم لنشر الدعوة وإيصالها إلى أقصى بقاع الأرض، بذلوا أموالهم لله حتى ينشر هذا الدين، عن

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٦٢)، رقم ٦٩٨٠

(٢) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٧٠)، رقم ٣٤٦١

(٣) ابو داود، سنن ابي داود، (ج ٣ / ص ٣٦١)، رقم ٣٦٦٦، وقال الالباني: صحيح

(٤) النسائي، سنن النسائي، (ج ٥ / ص ١٠٤)، رقم ٢٦٠٦، وقال الالباني: صحيح

عمر بن الخطاب قال: «أمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصدقة فقال عمر وعندي مال كثير فقلت والله لأفضلنَّ أبا بكر قال فأخذت ذلك المال وتركت لأهلي نصفه فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا عمر إنَّ هذا مال كثير فما تركت لأهلك قال: قلت نصفه، قال وجاء أبو بكر بهال كثير فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا أبا بكر إنَّ هذا مال كثير فما تركت لأهلك قال الله ورسوله»^(١)

وهذا هو الفرق الشاسع بين دعاة الامس ودعاة اليوم فلا يمكن للدعوة أن تظهر بدعاة عَصَّوا على أموالهم بالنواجذ واستشرفوا الفائدة من دعوتهم، وقِيلَ لِبَعْضِهِمْ: لِمَاذَا إِذَا وَعَظَ بَعْضَ النَّاسِ خَوْفَ وَأَبْكَى، وَبَعْضُهُمْ يَتَكَلَّمُ وَيَبْكِي وَيَخُوفُ وَلَا يَبْكُونُ، فَقَالَ: لَيْسَتْ النَّائِحَةُ الثَّكَلِي كَالنَّائِحَةِ الْمُسْتَأْجِرَةِ. فالنائحة التي فقدت ولدها تنوح وتلطم من كل قلبها على غير التي تريد من نوحها الأجرة، ونحن فقدنا الإسلام وعزه ونوح عليه من أجل الأجرة.

وإليكم هذه القصة: مجموعة من الشباب الذين تعلّموا الدين على الكتاب والسنة فكروا في بناء مسجد في قريتهم فقاموا بتأسيسه ثم بنوا الجدران وتوقف العمل لأكثر من سنة لعدم وجود متبرع لسقف المسجد لأنَّ السقف يكلف مبلغا كبيرا وفي يوم جمعهم احدهم فقال لهم لا يمكن لنا أن نبقي متوقفين على هذه الحال وقال لهم نريد أن يرى الله منّا بذل جهدنا نحن قبل أن نطلب متبرعا من غيرنا. ليعطي كل واحد منّا حسب استطاعته فوافقوا فقال أنت يا فلان عليك كذا مبلغ وأنت يا فلان عليك كذا مبلغ حتى قال بعضهم أنا أعطي ولكن بالتقسيط لعدم استطاعته دفع كامل المبلغ واتفقوا أن يذهبوا لأمهاتهم ونسائهم ويطلبون من كل واحدة أن تبيع دجاجة من دجاجاتها وتأتي بثمنها، وكذلك ذهبوا إلى الاطفال الصغار وطلبوا منهم أن يعطي كل واحد منهم مصروفه

(١) احمد بن حنبل، فضائل الصحابة، (ج ٢ / ص ١٠٢)

اليومي من والديه فأخذ هؤلاء الاطفال يتوافدون على من جمع المال بمبالغ يسيرة لا قيمة لها في نظرنا ولكن الله تعالى لما رأى اجتماع هؤلاء القلة رجالا ونساء وأطفالا وبدلوا وسعهم في سبيله لبناء بيته ومع أول استئناف للعمل برفع بعض الانقاض الزائدة لتهيئة المكان للعمل جاء متبرع من غير موعد إلى المسجد وقال أنا أقوم ببناء المسجد وأكمّله كله، وأسأل الله أن يرحمه لأنه توفي بعد فترة من إكماله للمسجد. انظر أخي المسلم إلى فضل الله الذي رأى من عباده وسعهم فيسر لهم أمر بناء بيته، فابذل جهدك وأخلص النيّة وأحسن الظن بالله، واعلم أنك ما تقربت من الله شبرا إلا تقرب منك ذراعا.

ثانيا: العلم: الفرق بين دعاة أهل الباطل ودعاة أهل الحق هو العلم، فلا بد لكل داع إلى الله ودينه أن يتحصن بالعلم ويتسلح به، قال تعالى: (وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الحج: ٥٤] وأول العلم بالعلم بكتاب الله تلاوة وتفسيرا وأحكاما ثم حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفة الصحيح من غيره والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، والعمل بالدين كما فهمه صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وليس على فهمنا نحن، وكذلك من المهم أن تكون لغته سليمة من الأخطاء اللغوية وخالية من اللحن.

ثالثا: حب الناس للداعية: وهذا أمر مهم ومرتبببها قبله وهو العمل بعلمه فهو الذي يجبهه الى الناس، فكل داعية لا بد أن يكون محبوبا عند الناس لأن من لا يحبك لا يمكن أن يسمع منك، وهذا لا يتحقق إلا بعدة أمور نذكر منها:

١ — تقوى الله وحسن الخلق: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ»، قَالَ: وَمَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّارَ؟

قَالَ: «الْأَجْوَفَانِ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ»^(١) «يقول ابن القيم: جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين تقوى الله وحسن الخلق لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه فتقوى الله توجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته»^(٢)، فكلما كان الداعي إلى الله متصفا بالأخلاق الحسنة كان أحبَّ إلى الناس وأدعى أن يقبلوا كلامه.

٢ — الزهد بما في أيدي الناس: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمَلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيهَا فِي أَيَدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ»^(٣)

فلا يمكن لشخص أن يُحِبَّ وهو ينافس الناس على ما في أيديهم كلما رأى شيئاً جميلاً أو جديداً عند مسلم أو غير مسلم طلبه منه ليأخذه بأيّ طريق، حتى جارك أو قريبك إن كثرت طلباتك منه لا بدّ أن يبغضك ويحاول الابتعاد عنك.

٣ — إفشاء السلام: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٤).

فللسلام تأثيرٌ عجيبٌ في النفوس وجذب القلوب فكلما أكثرت السلام أحبّوك وإذا تركت السلام أبغضوك. واعتاد الناس السلام على من يعرفون ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالسلام على من عرفتم ومن لم تعرف، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(١) البخاري، الأدب المفرد، (ص: ١١٠)، رقم ٢٩٤، وقال الألباني: حسن

(٢) ابن القيم، الفوائد، (ص: ٧٥)

(٣) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ٣٩٢)، رقم ٤١٠٢، وقال الألباني: صحيح

(٤) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٥٣)، رقم ٢٠٣

أَنْ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ: « تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ » (١)

رابعاً: موافقة فعل الداعية لقوله: يجب أن تكون أفعال الداعية مطابقة لقوله وإلا كان وبالاً على الدعوة، وكابحاً يوقفها عن المسير وعرض نفسه لمقت الله في الدنيا قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) [الصف ٢-٣]

أمّا حاله في الآخرة فقد ذكرها سيّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حديثين اولهما: ليلة أسري به: عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ قُلْتُ مَا هَؤُلَاءِ قَالَ هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ » (٢)

وثانيهما: في الحديث الصحيح عن أسامة بن زيد قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ — يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ —: « يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ كُنْتُ أَمْرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » (٣).

ليتذکر کل داعية هذين الحديثين عند دعوته حتى يحاول العمل بما يقول ليكون مؤثراً. فما من حكم شرعيّ تدعو له، وتعمل به إلا وترى شجرته مثمرة في ارض الواقع نجاحاً منظوراً للدعوة، وما من مخالفة لحكم شرعي الا وكانت خراباً واضحاً في ارض الواقع.

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٢)، رقم ٢

(٢) مسند أحمد، (ج ٣ / ص ١٨٠)، رقم ١٢٨٥٦، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح

(٣) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٢١)، رقم ٣٢٦٧

خامسا: اتباع خلق الرسول صلى الله عليه وسلم: لا بد أن يتمثل الداعية بخلق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر والحلم والعمو والعطاء والسماحة والرفق والجهر بالحق، وسيرته صلى الله عليه وسلم مملوءة بمواقف لأناس أسلموا لتأثرهم بخلق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فكم من أعرابي أسلم لرفق النبي صلى الله عليه وسلم وكم من أعرابي أسلم بعطاء النبي صلى الله عليه وسلم، وكم من زيارة لمريض أدت إلى هدايته كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع الغلام اليهودي، عن أنس رضي الله عنه قال كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمَرَضَ فَاتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ « أَسْلِمَ » فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطْعَمَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ » (١)

وكم من عفو أدى إلى هداية مسلم وتوبته من ذنوبه فبسبب العفو هدي الكفار إلى الإسلام وتغيرت قلوبهم من بغض الإسلام وأهله إلى حبه والدفاع عنه، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: « بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْلًا قَبْلَ نَجْدِ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلَنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتَرِكَ حَتَّى كَانَ الْعَدُوُّ ثُمَّ قَالَ لَهُ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ قَالَ مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٌ فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْعَدُوِّ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ فَقَالَ أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ فَاذْهَبْ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسِلْ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَيَّ الْأَرْضُ وَجْهًا أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ

فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللَّهُ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ وَاللَّهُ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ وَإِنَّ خَيْلِكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَهَذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْرُهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ صَبَوْتَ قَالَ لَا وَلَكِنْ أَسَلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١). وعند البيهقي: «وَانصَرَفَ إِلَى بَلَدِهِ وَمَنَعَ الْحَمَلَ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى جُهِدَتْ قُرَيْشٌ فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثَمَامَةَ يُحَلِّيَ إِلَيْهِمْ حَمَلَ الطَّعَامِ ففَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢)

وهذا من خلقه صلى الله عليه وسلم ورحمته بأعدائه، فليعلم كل داعٍ إلى الله أن الله تعالى يريد منك أمرا والنفس تريد أمرا آخر فالنفس تريد الانتقام ممن يسيء إليها والله تعالى يحب العفو والتسامح مع من أساء إليك، فإذا قدمت ما يحبه الله تعالى على ما تحبه نفسك جاءتك قلوب العباد وهي راغمة.

سادسا: الصدق والكرم والشجاعة: وهي من اخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهي صفات محمودة عند بني آدم ولهذا جميعهم يتماذحون بالشجاعة والكرم، حتى إن ذلك عامة ما يمدح به الشعراء في شعرهم، وكذلك يتذامون بالبخل والجبن، والقضايا التي يتفق عليها بنو آدم لا تكون إلا حقا، كاتفاقهم على مدح الصدق والعدل، وذم الكذب والظلم، وكان خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى المنازل فهو أصدق الناس وأشجعهم وأكرمهم كما في حديث جبير بن مطعم «أَنَّ بَيْنَا هُوَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ النَّاسُ مُقْبِلًا مِنْ حُنَيْنٍ عَلَقَتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمْرَةَ فَخَطَفَتْ رِدَاءَهُ فَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

(١) صحيح البخاري، (ج ٥ / ص ١٧٠)، رقم ٤٣٧٢

(٢) البيهقي، سنن البيهقي، (ج ٩ / ص ٦٦)، رقم ١٨٤٨٩

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَعْطُونِي رِدَائِي فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاءِ نَعْمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لَا مَجْدُونِي بِخِيَالًا وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا»^(١)

فمن أمر غيره بحسن أو أحب موافقته على ذلك، أو نهى غيره عن شيء، فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصوده، من حصول المحبوب واندفاع المكروه، فإن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو، لا يمكن غير ذلك، ولهذا أمر الله تعالى بتأليف القلوب، حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيبا في الصدقات. بالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل السابقين، فقال تعالى: (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى) [الحديد: ١٠] لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك، في صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم، لا سيما كلما قويت الفتنة والمحنة، فالحاجة إلى ذلك تكون أشد، فالحاجة إلى السباحة والصبر عامة لجميع بني آدم لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلا به^(٢). فالعطاء والكرم له أثر كبير في جذب قلوب المدعوين، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنَّمَا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَآتَى قَوْمَهُ فَقَالَ أَيْ قَوْمٍ أَسْلِمُوا فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطَى عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسَلِّمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا فَمَا يُسَلِّمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(٣).

وكان صلى الله عليه وسلم يعطي لمن يستحق ويعطي لمن لا يستحق تأليفا لقلبه وحتى لا يتهم بالبخل وهو الكريم، عَنْ سَلْمَانَ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسَمًا فَقُلْتُ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَغَيْرِ هَؤُلَاءِ كَانَ أَحَقَّ

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ٢٢)، رقم ٢٨٢١

(٢) ينظر، ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (ص ٣٧ - ٤٠)

(٣) صحيح مسلم، (ج ٧ / ص ٧٤)، رقم ٦١٦١

بِهِ مِنْهُمْ. قَالَ « إِيْتَمُّ خَيْرُونِي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُخْلُونِي فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ »^(١)، فالبخل يبعد الناس عن الداعية والسماح لدعوته.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم أهل بيته في القتال ويؤخرهم بالعطاء ولا يؤثرهم بشيء دون المسلمين، فقدّم علياً وحمزة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في أول الصفوف في معركة بدر، ولم يعطي فاطمة شيئاً وهي أحب الناس إليه.

حَدَّثَنَا عَلِيُّ أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْكُو إِلَيْهِ مَا تَلَقَّى فِي يَدَيْهَا مِنَ الرَّحَى وَبَلَّغَهَا أَنَّهُ جَاءَهُ رَقِيقٌ فَلَمْ تُصَادِفْهُ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ قَالَ فَجَاءَنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبْنَا نَقُومُ فَقَالَ « عَلَى مَكَانِكُمْ » فَجَاءَ فَفَعَدَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى بَطْنِي فَقَالَ « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمْ أَوْ أُوتِيتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فَسَبَّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَآمَّحَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَكَبَّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ »^(٢).

وكذلك صحابته وأهل بيته « قَالَ غَسَّانُ بْنُ مُضَرٍّ: ثَنَا أَبُو هَلَالٍ، ثَنَا حُمَيْدُ بْنُ هِلَالٍ، أَنَّ عَقِيلًا سَأَلَ عَلِيًّا فَقَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَفَقِيرٌ. فَقَالَ: اصْبِرْ حَتَّى يُخْرِجَ عَطَائِي، فَالْحَ عَلَيْهِ. فَقَالَ لِرَجُلٍ: خُذْ بِيَدِهِ، فَاَنْطَلِقْ بِهِ إِلَى الْحَوَانِيتِ، فُقُلْ: دُقْ الْاِقْفَالَ وَخُذْ مَا فِي الْحَوَانِيتِ. فَقَالَ: تُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَنِي سَارِقًا! قَالَ: وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَنِي سَارِقًا وَأَعْطَيْكَ أَمْوَالَ النَّاسِ »^(٣).

سابعا: الشجاعة في قول الحق: لا يمكن لكل دعوة سواء كانت تدعو إلى الحق أو إلى الباطل أن تنجح إذا لم يتميز دعواتها بالشجاعة، ومما يؤلم كثيرا ويعتصر القلوب عندما تجلس في مجالس يتكلم فيها كل أهل الباطل بباطلهم وترى أهل الحق صامتين يستمعون فقط ولا يتكلمون بالحق الذي يحملونه خوفا أو مداراة او مدهانة لغيرهم والله تعالى يقول:

(١) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ١٠٣)، رقم ٢٤٧٥

(٢) صحيح البخاري، (ج ٧ / ص ٦٥)، رقم ٥٣٦١

(٣) الذهبي، تاريخ الاسلام، (ج ٤ / ص ٨٥)

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) [آل عمران: ١٧٥]، عن ابن عباس: «إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه، يقول: الشيطان يخوف المؤمنين بأوليائه». وينسون قول ربنا لنبيه صلى الله عليه وسلم معاتباً له في مسألة خشيته من قول الناس: (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) [الاحزاب: ٣٧]، وينسون قدوات الامّة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم في شجاعتهم بقول الحقّ أمام الأعداء والملوك، وقصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه شاهد على ذلك: « قَالَ لَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِإِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْنَا بَلَى قَالَ قَالَ أَبُو ذَرٍّ كُنْتُ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ فَبَلَّغْنَا أَنَّ رَجُلًا قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقُلْتُ لِأَخِي أَنْطَلِقْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ كَلِّمُهُ وَأْتِنِي بِخَيْرِهِ فَأَنْطَلَقَ فَلَقِيَهُ ثُمَّ رَجَعَ فَقُلْتُ مَا عِنْدَكَ فَقَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَأْمُرُ بِالْحَيْثِرِ وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِّ فَقُلْتُ لَهُ لَمْ تَشْفِنِي مِنَ الْحَيْثِرِ فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصَا ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَى مَكَّةَ فَجَعَلْتُ لَا أَعْرِفُهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ وَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ قَالَ فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَأَنْطَلِقْ إِلَى الْمَنْزِلِ قَالَ فَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلَا أُخْبِرُهُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ عَدَوْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ لِأَسْأَلَ عَنْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ قَالَ فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدَ مَا قُلْتُ لَا قَالَ أَنْطَلِقْ مَعِي قَالَ فَقَالَ مَا أَمْرُكَ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلَدَةَ قَالَ قُلْتُ لَهُ إِنْ كُتِمْتَ عَلَيَّ أَخْبَرْتُكَ قَالَ فَإِنِّي أَفْعَلُ قَالَ قُلْتُ لَهُ بَلَّغْنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِنَ الْحَيْثِرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ فَقَالَ لَهُ أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشِدْتَ هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي ادْخُلْ حَيْثُ ادْخُلْ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ فَمُتْ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أَصْلِحُ نَعْلِي وَامْضِي أَنْتَ فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلْتُ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ اعْرِضْ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ فَعَرَضَهُ فَأَسَلَمْتُ مَكَانِي فَقَالَ لِي يَا أَبَا ذَرٍّ اكْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبَلْ فَقُلْتُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرِئَ فِيهِ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَقَالُوا فَوُمُوا إِلَى هَذَا

الصَّابِئِ فَقَامُوا فَضْرِبْتُ لِأُمُوتَ فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ وَيْلَكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ وَمَتَجَرُّكُمْ وَمَمْرُكُمْ عَلَى غِفَارٍ فَأَقْلَعُوا عَنِّي فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالْأَمْسِ فَقَالُوا قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ فَصْنِعَ بِي مِثْلَ مَا صْنِعَ بِالْأَمْسِ وَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالْأَمْسِ قَالَ فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١)

فصحابة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا لا يهابون قول الحق أمام الملوك والقيصرة والأكاسرة وكان منهم الذين حملوا رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى الفرس وقيصر الروم وملوك الدنيا فما تهيّبوا وما سكتوا، وقصة ربعي بن عامر مع رستم لا تخفى علينا عندما دخل على رستم المزهو بزينة الدنيا والتفاخر بها، دخل عليه مزهواً بعز الاسلام وزينة الايمان والنظر إلى موعود الله تعالى فوطأ على فرشهم وزينتهم بفرسه وربط فرسه بوسائدهم وركز رمحاً بالبسط فخرقها. فقال له رستم: "ما جاء بكم قال الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله قال وما موعود الله قال الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي"^(٢).

والحكمة المطلوبة في حال السكوت والكلام وتقديم الراجح منها قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) [البقرة: ٢٦٩]

ثامنا: الرفق بالمدعوين والاشفاق عليهم والدعاء لهم: لقد أمر الله تعالى بالرفق بعباده

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٨٢)، رقم ٣٥٢٢

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج ٣ / ص ٣٤)

رحمة بهم، ومن رفته بهم ورحمته لهم سبحانه وتعالى دعا أشد العصاة فيهم بألطف خطاب فقال عز وجل: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر: ٥٣]

وكان خلق المبعوث رحمة للعالمين الرحمة بالناس، عن أبي هريرة قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاةٍ وَقُمْنَا مَعَهُ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرَحَّمْ مَعَنَا أَحَدًا. فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ: «لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا» يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ (١).

وأوصى صلى الله عليه وسلم بالرفق في أكثر من حديث فقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» (٢)، وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمَكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَانْكَلَ أُمِّيَاهُ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَازِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ يُصَمْتُونَنِي لِكِنِّي سَكَتٌ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» (٣)

وأمر نبينا صلى الله عليه وسلم بالرفق بغير المسلمين وإن أساءوا ببعض الالفاظ، عن عائشة رضي الله عنها: قَالَتْ دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا السَّامُ عَلَيْكُمْ قَالَتْ عَائِشَةُ فَفَهَمْتُهَا فَقُلْتُ وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ قَالَتْ فَقَالَ

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٠)، رقم ٦٠١٠

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٢٢)، رقم ٦٧٦٦

(٣) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٧٠)، رقم ٥٣٧

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَهَلًا يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»^(١). وقال لها « يَا عَائِشَةُ أَرْفُقِي فَإِنَّ الرَّفْقَ لَمْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نَزَعَ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ»^(٢). وقال « مَنْ يُحْرِمِ الرَّفْقَ يُحْرِمِ الْخَيْرَ»^(٣)

وجاء في حسن خلقه وحلمه ورحمته ورفقه وجوده صلى الله عليه وسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعِينُهُ فِي شَيْءٍ، فَأَعْطَاهُ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا، وَلَا أَجْمَلْتُ قَالَ: فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ، وَقَامُوا إِلَيْهِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ كُفُّوا. قَالَ عِكْرِمَةُ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى الْأَعْرَابِيِّ، فَدَعَاهُ إِلَى الْبَيْتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا، فَأَعْطَيْنَاكَ، فَقُلْتَ: مَا قُلْتَهُ، فزاده رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: نَعَمْ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعَشِيرَةِ خَيْرًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّكَ كُنْتَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا، فَأَعْطَيْنَاكَ، وَقُلْتَ مَا قُلْتَ، وَفِي أَنْفُسِ أَصْحَابِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ، حَتَّى تَذْهَبَ مِنْ صُدُورِهِمْ مَا فِيهَا عَلَيْكَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عِكْرِمَةُ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَوْ الْعَشِيُّ، جَاءَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا كَانَ جَاءَ فَسَأَلْنَا، فَأَعْطَيْنَاهُ، وَقَالَ مَا قَالَ، وَإِنَّا دَعَوْنَاهُ إِلَى الْبَيْتِ فَأَعْطَيْنَاهُ فزعم أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ، أَكْذَلِكْ؟ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: نَعَمْ، فَجَزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعَشِيرَةِ خَيْرًا. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ فَشَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ، فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نُفُورًا، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي، فَأَنَا أَرْفُقُ بِهَا وَأَعْلَمُ،

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٢)، رقم ٦٠٢٤

(٢) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٤٠٣)، رقم ٤٨١٠، وقال الالباني: صحيح

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٢٢)، رقم ٦٧٦٤

فَتَوَجَّهَ لَهَا صَاحِبُ النَّاقَةِ بَيْنَ يَدَيْهَا وَأَخَذَهَا مِنْ قِيَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا هَوْنًا هَوْنًا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاخَتْ وَشَدَّ عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ، فَكَلَّمْتُمُوهُ، دَخَلَ النَّارَ»^(١).

أما الدعاء فهو أمر غفل عنه الكثير من الدعاة وله أثر عجيب ومشاهد في هداية الناس وهو من هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الذي دعا للكثير من الذين دعاهم إلى الإسلام أفرادا وجماعات، فدعا لعمر بن الخطاب كما في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْأَسْلَامِ بِعُمَرَ»^(٢)، ودعا لقبيلة دوس وقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأَتِ بِهِمْ»^(٣). وعلى الداعية أن ينظر إلى الناس بعين الشفقة والرحمة فإنه كمن يطفئ الحريق في قريته أو بلدته يحاول إنقاذ أكبر عدد منهم من النار بغض النظر عن من يكون قريبا أو بعيدا أو عدوا أو صديقا. ولقد كان أحد أقربائنا عاصيا معاندا فاتفق بعض الاخوة من أقربائه على الدعاء له في كل صلاة بالهداية فما مضى الا عدة أيام حتى جاء مستسلما تائبا إلى الله من كل ما يدور في خلدته من عقائد فاسدة وبدع وخرافات وعناد وقال: كنت في بئر أظلم (يعني مظلم)! وكم من ضال هُدي بسبب الدعاء.

تاسعا: معاملات الداعية: يجب أن تكون مضبوطة بالشريعة وعليه أن يكون صادقا بمواعيده وعهوده ملتزما بها ليكون قدوة للناس. وليعلم كل الدعاة أن الناس لا سيما في زماننا لا ترضى عن الداعية الا أن يتنازل عن بعض حقه ويعطيهم فوق حَقِّهم في معاملاتهم وهذا خلق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معاملاتهم، فعندما اشترى بغير جابر

(١) الأصبهاني، أخلاق النبي وآدابه، (ج ١ / ص ٤٧٢)، رقم ١٧٧

(٢) المستدرك على الصحيحين، (ج ٣ / ص ٨٩)، رقم ٤٤٨٤، وقال الذهبي: صحيح

(٣) صحيح البخاري، (ج ٥ / ص ١٧٤)، رقم ٤٣٩٢

بأربعة دنائير قَالَ: « يَا بِلَالُ اقْضِهِ وَزِدْهُ فَأَعْطَاهُ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرَ وَزَادَهُ قِيرَاطًا ^(١)، وأعطى زيدا بن سعة اليهودي دينة قبل الأجل وزاده عشرين صاعا من تمر، ووهب الحسن بن عليّ عليهما السلام لرجل دينة، فأين هذا الخلق من خلق مسلم يماطل في أداء الدين، وما أقبحه إن كان ممن يدعون الناس لدين الله، فليقتد الداعية بخلق النبي صلى الله عليه وسلم نصره لدين الله حتى لا يتهم الدين بسبب تقصير أهله.

عاشرا: ابتعاد الداعية عن مواطن الشبهات: لأن الشيطان يحاول أن يشوه سمعة الداعية بأقل شيء ليبعد الناس عنه فعليه أن يكون محتززا من عدوه حتى لا يقع في مصائده كما أن عليه أن يجنب نفسه الوقوع في مواضع التهم بحيث يغتابه الناس أو يظنون به سوء، ورحم الله من جب الغيبة عن نفسه، عن صفية بنت حبي قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَاَنْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي وَكَانَ مَسْكُنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْإِنصَارِ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «عَلَى رِسْلِكُمَا أَنهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْبٍ» فَقَالَا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُقْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا أَوْ قَالَ شَيْئًا» ^(٢)

حادي عشر: الصبر على الدعوة: الصبر فيه ثبات الدعوة وفلاحها وربح الداعي في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (وَالْعَصْرُ. إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [العصر ١-٣]

فكل من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر لا بد أن يتعرض للأذى وقد يكون من أقرب الناس إليه، فأوصاه الله تعالى بالصبر فقال تعالى على لسان لقمان: (يَا بُنَيَّ اِقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [لقمان: ١٧]،

(١) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ١٠٠)، رقم ٢٣٠٩

(٢) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٢٤)، رقم ٣٢٨١

فعليه بالصبر وليحتسب صبره لله (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) [المدثر: ٧] ولتكن له أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم الذين أودوا في سبيل الله فصبروا، قال تعالى مخاطبا المسلمين: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) [ال عمران: ١٤٢]

وأذكر في يوم من الايام عندما كنا شبابا ندعو على قدر معرفتنا بدين الله فتعرضنا للأذى من الناس، فشكوت لرجل معدود في قومه ولكنه لا يعرف من دين الله شيئا أذى أهل بلده لنا فقال لي: ألم تقولوا إنكم تتبعون رسول الله؟ فقلت: بلى، قال: إن رسول الله ضربوه بالحجارة فصبر فاصبروا حتى لو ضربوكم بالحجارة. هذا الكلام من هذا الرجل الذي لم يسجد لله سجدة لا زلت أذكره كلما ادلهمت الخطوب، وكأن الله تعالى أنطقه به لينبّهني إلى أمر قد غفلت عنه فله الحمد والمنة.

ثاني عشر: عدم اليأس والقنوط: قد تتعرض الدعوة للابتلاء والمطاردة من أهل الباطل والقتل والتعذيب فلا ييأس الدعاة من النصر وهزيمة المبطلين، قال تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة: ٢١٤]، وهذا حال الدعاة على مرّ الدهور، قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [ال عمران: ١٤٦-١٤٨]

وليعلم كل داعية أنّ هذا الدين وهذه الدعوة لا تتوقف بموت الاشخاص أو قتلهم حتى وإن كان سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نبّه ربنا عزّ وجلّ الصحابة رضي الله عنهم إلى ذلك فقال تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ

مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصَرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) [ال عمران ١٤٤]، ولقد توفي أبو بكر واستشهد عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم من قبل أهل الباطل فما توقفت الدعوة ولا استكانت ووصلت بعدهم إلى أقصى البلدان لأن الله تعالى قد تعهد بظهور هذا الدين على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون والمنافقون، قال تعالى: (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [التوبة ٣١-٣٣]، فعلى الداعية ان يكون على ثقة بموعد الله بنصر الدين وعليه أن يضع لبنة في هذا البناء فكثير من الصحابة كياسر وسمية وغيرهم استشهدوا قبل أن يروا انتصار هذا الدين ولكنهم أصبحوا قدوة لمن جاء بعدهم في الصبر واليقين وعدم اليأس.

ثالث عشر: العمل الجماعي خير من العمل الفردي: قال تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران: ١٠٤)، وقال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [المائدة: ٢]

لقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، ليسهل عمل الخير على أهله. ونهى عن التعاون على الاثم والعدوان حتى يصعب عمل الشر على من يفعله، والعجيب أن أهل الباطل كلهم يتعاونون على باطلهم، فما من باطل على وجه الارض الا وتجد أهله يعين بعضهم بعضا وأهل الحق لا يتناصرون ولا حول ولا قوة الا بالله.

وجاءت السنة بالحث على الجماعة والترغيب بها في جميع الاوامر الشرعية والابتعاد عن الفرقة والتحزب عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ

فَلْيَلْزِمُوا الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»^(١)

فالعامل الجماعي في التعاون والتناصح وتجاوز الاخطاء وكلما كثرت الجماعة كانت أشد على الشيطان من الافراد، فالإسلام اليوم كالعجلة التي توقفت بطايرتها فهي بحاجة إلى من يدفعها حتى تعاود المسير، فنحن بحاجة إلى دفع الصغير والكبير الرجل والمرأة كل حسب استطاعته على شرط أن يكون الدفع باتجاه واحد وليس باتجاهات مختلفة، فالجماعة رحمة والفرقة عذاب.

رابع عشر: اتفاق الكلمة والابتعاد عن الاختلاف

لقد أمر الله تعالى بالجماعة والاتلاف وذم الفرقة والاختلاف في كثير من الآيات وذم المختلفين والباغين والمتفرقين، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) [آل عمران: ١٠٣] وَقَالَ تَعَالَى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) {آل عمران: ١٠٥} وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) [الأنعام: ١٥٩]

وَبَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ وَقَالَ: «يَسْرًا وَلَا تُعَسِّرًا، وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرًا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخْتَلِفَا»^(٢) {يسرا} خذا بما فيه من التيسير {ولا تعسرا} من التعسير وهو التشديد {بشرا}: من التبشير وهو إدخال السرور {ولا تنفرا}: من التنفير أي لا تذكر شيئا يهربون منه. {تطاوعا}: تحاببا وليطع كل منكما الآخر.

قال ابن عباس: «أمر الله تعالى المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه أهلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله»^(٣)

(١) الترمذي، سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٤٦٥)، رقم ٢١٦٥، وقال الالباني: صحيح

(٢) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ٦٥)، رقم ٣٠٣٨

(٣) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (ج ٧ / ص ٩٣)

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: فأما الامّة المنتصرة فهم أهل الجماعة المقيمين على الألفة الذابين للفرقة استنانا بالنبي صلى الله عليه وسلم، والآخذين بما حثّ عليه من الائتلاف، وما حذّر من الفرقة والاختلاف.

خامس عشر: الابتعاد عن الغلو في الدين: الغلو نقيض التقصير ومعناه الخروج عن الحدّ، وذلك لأنّ الحقّ بين طرفي الافراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير^(١) فالغلو من صفات أهل الباطل ويكون في الاشخاص والافكار والآراء والاماكن والقوميات، فإذا وقع الغلو في الدين وقع الهلاك كما حذّر من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ »^(٢)

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » قَالَهَا ثَلَاثًا^(٣). {المتنطعون: المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم}^(٤)

قال بعض السلف: "ما أمر الله سبحانه بأمر الا وللشيطان فيه نزغتان: أمّا إلى تفريط وتقصير، وأمّا إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيها ظفر". وقد اقتطع أكثر الناس الا أقلّ القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي. والقليل منهم جدّا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: "خير الناس النمط الاوسط الذي يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي"^(٥)

أخيرا لا بدّ أن يعلم كلّ الدعاة إلى الله ودينه الذي ارتضاه لنا وللناس أنّ دعوة

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، (ج١٢ / ص ٤١١)

(٢) سنن ابن ماجه، (ج٢ / ص ١٠٠٨)، رقم ٣٠٢٩، وقال الالباني: صحيح

(٣) صحيح مسلم، (ج٨ / ص ٥٨)، رقم ٦٩٥٥

(٤) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (ج١٦ / ص ٢٢٠)

(٥) ابن القيم، اغائة للهفان، (ج١ / ص ١١٦)، الصلاة وحكم تاركها، (ج١ / ص ١٥٩)

الاسلام مكتوب لها النصر على كل الباطل وأهله مهما كانت قوته وهذا وعد من الله تعالى ومن أوفى بعهده من الله إنه لا يخلف الميعاد، (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) [الصافات ١٧١-١٧٣]

والحق أننا لم نكن جنودا كما يريدنا الله تعالى وكما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو كنا جنودا على مراد الله لكان نصرنا مؤكدا، فالخلل فينا، فما تخلفت الأمة وتسلبت عليها أعداؤها الا بالتقصير في أداء أوامر الله. فالداعي إلى الله بائع لأفضل بضاعة في هذه الدنيا، ونظافة البائع وهيأته ولباقته وحسن عرض البضاعة هو الذي يجلب المشترين قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال: ٤٥-٤٦]، قال ابن القيم: "خمسة أشياء ما اجتمعت في فئة قط الا نصرت وإن قلت وكثر عدوها، أحدها الثبات. الثاني كثرة ذكره سبحانه وتعالى. الثالث طاعته وطاعة رسوله. الرابع اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها. الخامس ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه وهو الصبر فهذه خمسة أشياء تبتنى عليها قبة النصر ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضا وصار لها أثر عظيم في النصر ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الامم وفتحوا الدنيا ودانت لهم العباد والبلاد ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الامر إلى ما آل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والله المستعان وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل" (١)

(١) ابن القيم، الفروسية، ٥٠٦

سمات الخطبة الناجحة

للخطبة الناجحة سمات لا بد أن تتصف بها لتؤدي مهمتها التي وضعت من أجلها:

أولاً — أركان الخطبة: للخطبة أركان كما قال العلماء رحمهم الله وهي:

قال الشافعي رحمه الله: "وأقل ما يقع عليه اسم خطبة من الخطبتين: أن يحمد الله تعالى ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ويقرأ شيئاً من القرآن في الأول، ويحمد الله عند ذكره، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويوصي بتقوى الله، ويدعو في الآخرة"^(١). وقال النووي رحمه الله: "قال أصحابنا: فروض الخطبة خمسة، ثلاثة متفق عليها، واثنان مختلف فيهما. فالمتفق عليها أحدهما: حمد الله تعالى، ويتعين لفظ الحمد. ثانيها: الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتعين لفظ الصلاة. ثالثها: الوصية بتقوى الله تعالى. والمختلف فيه: قراءة القرآن والدعاء للمؤمنين، ورجح جمهور الشافعية وجوبه"^(٢).

ويستحب أن يبدأ بخطبة الحاجة لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "عَلَّمَنَا خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ لَهُ، فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يقرأ ثلاث آيات: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران: ١٠٢]، (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) [النساء: ١]، (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) [الأحزاب: ٧١] ثم تذكّر حاجتك"^(٣).

(١) الشافعي، الأم، (ج ١ / ص ٣٤٤، ص ٥٧٩)

(٢) النووي، المجموع، (ج ٤ / ص ٤٣٤)

(٣) المسند، (ج ١ / ص ٣٩٢)، رقم ٣٧٢٠ وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح، وفي سنن أبي

ثانيا - اتّباع هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فالخطيب الناجح هو من يتبع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلّ حركاته وسكناته حتى لا يقع في محذور يكون فتنة للسامعين. ولا بدّ من إتقان أحكام التلاوة بالنسبة للخطيب طالما أنّ الخطبة تتضمن كثيرا من الآيات القرآنيّة فمن المهمّ جدا بالنسبة للخطيب أن يكون متقنا ولغته سليمة حتى لا يغيّر المعاني ويصغر في نظر المستمعين من الذين يعرفون اللغة.

يقول ابن القيم واصفا خطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ومن تأمل خطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخطب أصحابه وجدها كفيلا ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الربّ جلّ جلاله وأصول الايمان الكليّة والدعوة إلى الله وذكر آلائه تعالى التي تحبّبه إلى خلقه وأيامه التي تحوّفهم من بأسه والامر بذكره وشكره الذي يحبّهم إليه فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسماؤه ما يحبّبه إلى خلقه ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحبّهم إليه فينصرف السامعون وقد أحبّوه وأحبّهم"^(١).

ثالثا - اختيار الموضوع: يجب أن يبدأ الخطيب باختيار الموضوع وإعداد الخطبة من بداية الاسبوع ويحدّد خطوطه العريضة ويقوم بالنظر فيه كلّ يوم حتى يظهره بأحسن صورة ليرضي به ربّه أولا وليكون مؤثرا في المخاطبين ثانيا.

رابعا- الالتزام بوحدة الموضوع: وهذا أمر مهمّ حتى لا يشتت ذهن المستمع عن المقصود الاصيل للفكرة التي يريد الخطيب إيصالها له، فبعض الخطباء يخرج عن الموضوع الاصيل ويدخل في موضوع آخر قد لا يعود منه للأوّل فتنتهي الخطبة والمستمع لم يفهم شيئا.

خامسا - مراعاة أحوال المخاطبين: فهدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو مراعاة حال المخاطبين يقول ابن القيم عن خطبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وكان يُخَطَّبُ في كلّ وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصالحهم، ولم يكن يُخَطَّبُ خُطْبَةً الا افتتحها بحمد الله، ويتشهد فيها

داود «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ»، سنن أبي داود، (ج ٢ / ص ٢٠٣)، رقم ٢١٢٠

(١) ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، (ج ١ / ص ٤٠٩)

بكلمتي الشهادة، ويذكر فيها نفسه باسمه العلم". وقال: "وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته، فإذا رأى منهم ذافاقه وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها"^(١)

فالحاضرون فيهم العالم وفيهم الجاهل وفيهم ذو عقلية علمانية ومنهم ذو عقلية عشائرية، فإن مراعاة الخطيب لدرجات فهم الناس يجعله يحدثهم على قدر عقولهم كما قال سيدنا علي رضي الله عنه: "حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَجْبُونَ أَنْ يَكْذَبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ"^(٢). وقال عبد الله بن مسعود: "مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ"^(٣).

وقال ابن الجوزي: "من المخاطر العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله قلوبهم أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده"^(٤).

قال القاسمي: "قال بعض الفضلاء: ابلغ الخطب ما وافق الزمان والمكان والحال، ففي زمن صيام رمضان مثلاً يبين الخطيب للناس حكمه وأحكامه والمقصود منه، وينهاهم عن البدع التي تحدث فيه مبيناً ضررها. وفي عيد الفطر يبين أحكام صدقة الفطر ولا يحسن به أن يستبدلها ببيان أحكام الأضحية أو غير ذلك ويتركها بتاتاً. وفي مكان تفرق أهله يخطب فيهم بالاتحاد، أو تكاسلوا عن طلب العلم حثهم عليه، أو أهملوا تربية أبنائهم حثهم أيضاً عليها.. إلى غير ذلك مما يوافق أحوالهم ويلائم مشاربهم ويناسب طباعهم، يخطب في كل مكان بحسبه، مراعيًا أحوال العالم، بصيرًا بمقتدراتهم الحاصلة في خلال الأسبوع، فينهاهم عنها، وينبههم عليها، متى رقي منبر الخطابة، عسى أن يهتدوا طريقاً قويمًا"^(٥)

سادسا— الایجاز وعدم الاسهاب: وذلك بإيصال فكرة الموضوع بأقل الكلمات كما

(١) زاد المعاد، (ج ١ / ص ١٨٩) (ج ١ / ص ٤١٣)

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ٣٧)، رقم ١٢٧

(٣) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٩)، رقم ١٤

(٤) ابن الجوزي، صيد الخاطر، ٢٥٧

(٥) إصلاح المساجد من البدع والعوائد (ص: ٦٧)

كان فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعن جابر بن سمرة السوائي قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطيل المؤعظة يوم الجمعة إنما هن كلمات يسيرات" (١).

وكان الصحابة رضي الله عنهم يوافقون المصطفى صلى الله عليه وسلم في خطبهم كما في حديث خطبة عمار: عن واصل بن حيان قال قال أبو وائل: خطبنا عماراً فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت فلو كنت تنفست. فقال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة وإن من البيان سحراً» (٢)، [مئنة: علامة]

سابعاً— الاستشهاد بالأدلة من القرآن: لكي يعضد الخطيب كلامه في أي موضوع يريد التحدث به عليه الاستشهاد بالقرآن فخير الكلام كلام الله قال تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) [الزمر: ٢٣] وهذا هو هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان يذكر بالآيات على المنبر، عن جابر بن سمرة، قال: "كانت للنبي صلى الله عليه وسلم خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن، ويذكر الناس" (٣)، وعن عمرة بنت عبد الرحمن عن اخت لعمرة قالت: "أخذت (ق والقرآن المجيد) من في رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة" (٤).

ثامناً— الاستشهاد بالحديث الصحيح أو الحسن: لأن فيها غنية عن الأحاديث الضعيفة لأن المشروع الايذكر المسلم في خطبه ومواعظه ودروسه الا بما صح عن النبي

(١) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٤٣٢)، رقم ١١٠٩، قال الالباني: حسن

(٢) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ١٢)، رقم ٢٠٤٦

(٣) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ٩)، رقم ٢٠٣٢

(٤) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٣)، رقم ٢٠٤٩

صلى الله عليه وسلم، والابتعاد عن القصص الخرافية والرؤى والمنامات لأنها لا تبنى عليها الاحكام الشرعية. وليحذر أن يقع فيما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم منه بقوله: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبِ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

تاسعا— الابتعاد عن مسائل الخلاف: من فقه الخطيب تأليف قلوب الناس على دين الله وعدم عرض مسائل الخلاف التي تثير الفتنة على المنبر وترك ذلك لمجالس العلماء، فالخطبة الناجحة هي التي تعرض الدين ناصعا كما انزل، من غير مدهانة لأحد سواء كان أميرا أو وزيرا أو مبتدعا أو كافرا، فالخطيب عندما يعرض الدين كما أنزل بالدليل من الكتاب والسنة بفهم سلف الامة لا يستطيع أحد أن يعترض عليه أمّا إذا عرض فهمه ورأيه وآراء الرجال وأهواءهم كان عرضة للاعتراض والانتقاد، يقول القاسمي واصفا خطب الصدر الأول: "كان الخطيب إذا قام لأمر ما سحر الألباب وملك بمرصعات المواعظ ما لا يملك بمرهفات السيوف والرماح، يؤلف بين من تفرق، ويسكن الفتن ويزيل المخاصمات ويقطع المنازعات، يقيمهم إن شاء ويقعدهم إن أراد بقوة اقتداره وشدة تأثيره"^(٢).

عاشرا— الابتعاد عن هوى النفس: وذلك بالبعد عن التعرّض لأخطاء الدعاة والعلماء على المنابر لأن ذلك يسقطهم من عيون العامة وإذا استهين بالعلماء فقد الناس الثقة بهم، وكذلك التعرّض لجماعة من المسلمين أو هيئة أو مؤسسة بسبب اختلاف مع منهج الخطيب أو العصبية والقبلية أو الدعوة لجماعة معينة ليكون الناس على منهجها ماعدا الدعوة لاتباع منهج النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وأهل بيته رضي الله عنهم أجمعين. وليس من هدي النبي صلى الله عليه وسلم تسمية المقصرين والمخطئين على المنبر ولكن كان عليه الصلاة والسلام يذكرهم بصيغة العموم والاشارة مداراة

(١) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٨٠)، رقم ١٢٩١

(٢) إصلاح المساجد من البدع والعوائد (ص: ٦٨)

لنفوس أصحابه فيقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ اصْنَعُهُ فَوَاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشِيَّةً»^(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ»^(٢). ومداراة الناس من اخلاق المؤمنين وهي لين الكلام وترك الاغلاظ في القول والرفق بالجاهل في التعليم والفاسق في النهي عن فعله باللطف حتى يرد عما هو مرتكبه. يقول ابن القيم: "وَكَذَلِكَ الْمُدَارَاةُ صِفَةٌ مَدْحٌ وَالْمُدَاهَنَةُ صِفَةٌ ذَمٌّ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمُدَارِيَّ يَتَلَطَّفُ بِصَاحِبِهِ حَتَّى يَسْتَخْرِجَ مِنْهُ الْحَقَّ أَوْ يَرُدَّهُ عَنِ الْبَاطِلِ وَالْمُدَاهِنُ يَتَلَطَّفُ بِهِ لِيَقْرَهُ عَلَى بَاطِلِهِ وَيَتْرَكُهُ عَلَى هَوَاهُ فَالْمُدَارَاةُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْمُدَاهَنَةُ لِأَهْلِ النِّفَاقِ"^(٣)

وقد افرد البخاري في صحيحه بابا سماه {بَابُ الْمُدَارَاةِ مَعَ النَّاسِ} واستشهد بحديث النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « ائذُنُوا لَهُ فَبُئِسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ أَوْ بُئِسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ فَلَمَّا دَخَلَ الْآنَ لَهُ الْكَلَامَ فَقُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ مَا قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ فَقَالَ أَيُّ عَائِشَةٍ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ تَرَكَهُ أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»^(٤) وقال: «وَيُذَكَّرُ عَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وَجْهِهِ أَقْوَامٍ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ»

والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصالح الدنيا أو الدين أو هما معا وهي مباحة وربما استحبت والمداهنة ترك الدين لصالح الدنيا والنبي صلى الله عليه وسلم إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته ومع ذلك فلم يمدحه بقول فلم يناقض قوله فيه فعلة فإن قوله فيه قول حق وفعله معه حسن عشرة فيزول مع هذا التقرير الإشكالي بحمد الله تعالى^(٥)

(١) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ٩٧)، رقم ٧٣٠١

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٥٠)، رقم ٧٥٠

(٣) الروح، ص ٢٣١

(٤) صحيح البخاري (ج ٨ / ص ٣١) رقم، ٦١٣١

(٥) ابن حجر، فتح الباري، (١٠ / ٤٥٤)

الإمامة

الإمامة: مصدر، أمّ الناس: صار لهم إماما يتبعونه في صلاته.
معنى الإمام: كلّ من اقتدي به وقُدِّم في الامور، والنبّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمام الأئمّة. والإمام في الصلاة: من يتقدم المصلين ويتابعونه في حركات الصلاة.

والامام قدوة في الخير قبل أن يكون إماما في الصلاة فحسب قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) [الفرقان: ٧٤]، أي قدوة يقتدى بنا في الخير، وقال عمر لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنها عندما رءاه يلبس ثوبا مصبوغا وهو محرم "إنكم أيها الرهط أئمة يقتدي بكم الناس"^(١) ويقصد بذلك المهاجرين. ورأى فضيل بن عياض قوما من أصحاب الحديث يمزحون ويضحكون فناداهم: "مهلا يا ورثة الانبياء مهلا ثلاثا إنكم أئمة يقتدى بكم"^(٢)

الإمامة أمانة:

الإمامة أمانة، يجب أن تؤدّى على أحسن الوجوه، ولا تكون بأحسن صورة الا أن يكون القدوة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فخير الهدى هديه فهو إمام الأئمة.

فلقد كان أرحم الناس بالناس، فكان يخفف صلاته ويتمّها ولا يشقّ على أصحابه، ويأمر بالتخفيف، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْإِنصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَكَادُ أَذْرِكُ الصَّلَاةَ مِمَّا يَطْوُلُ بِنَا فَلَانَ فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ فَقَالَ « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مُتَّفَرِّقُونَ فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ فَإِنَّ فِيهِمُ الْمُرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَّةِ »^(٣).

وتخفيفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن مخلا بالصلاة كما يفعله الكثير اليوم بل تخفيف في كمال وتمام، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ مَا صَلَّيْتُ وَرَاءَ إِمَامٍ قَطُّ أَخَفَّ صَلَاةً وَلَا أْتَمَّ مِنْ

(١) مالك، الموطأ، (ج ٣ / ص ٤٧٠)، رقم ١١٦٤

(٢) ابو نعيم، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، (ج ٨ / ص ١٠٠)

(٣) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ٣٠)، رقم ٩٠

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ مَعَهُ بُكَاءُ الصَّبِيِّ فَيُخَفَّفُ مَخَافَةً أَنْ تُفْتَنَ أُمَّهُ^(١). وكانت قراءته صلى الله عليه وسلم مجودة محسنة مرتلة مبيّنة، يمدّ رؤوس الآيات ويقف عليها، وكان يقرأ بقصار السور وأواسطها، وطوالها، وكان إذا أحسّ بأنّ أحد أصحابه قادم وهو راكع انتظره حتى يركع، من رحمته بهم وشفقته عليهم. وعلى الامام مراعاة أحوال المصلين خلفه، وأن يرغّبهم في الصلاة دون الاخلال فيها. وكثير من الأئمة يخلّ بأركان الصلاة وسننها ويتحمل الاثم ولا ينتبه لذلك، فمنهم من يقرأ الفاتحة بنفس واحد دون توقّف، ومنهم لا تستطيع أن تكمل الفاتحة معه حتى في الركعة الثالثة والرابعة، ومنهم من لا يعطيك الفرصة لتقول (ربّنا ولك الحمد)، ومنهم من لا يقول أكثر من ثلاث تسيّحات بحيث أنّ المصلّي خلفه لو تأخّر في متابعتة في السجود لاسيما كبار السنّ الذي ينزل ببطء يكون الامام قد رفع رأسه من أوّل سجدة حتى يصل المأموم إلى السجود.

عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ قَالَ: "صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ فَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ (فَلَا أَفْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) وَكَانَ لَا يَجْنِي رَجُلٌ مِنَّا ظَهْرَهُ حَتَّى يَسْتَتِمَّ سَاجِدًا"^(٢) وعلى الامام مراعاة ذلك حتى يتمّ المأموم ركوعه وسجوده. أحقّ الناس بالامامة:

لقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحقّ بالامامة كما في حديث أبي مسعود الانصاريّ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا وَلَا يُؤْمِنُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ». قَالَ الْأَشْجَعُ فِي رِوَايَتِهِ مَكَانَ سِلْمًا سِنًا^(٣).

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٤٣)، رقم ٧٠٨

(٢) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٤٦)، رقم ١٠٩٤

(٣) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٣٣)، رقم ١٥٦٤

ومحصل هذا الحديث أنه يقدم الاقراء، ثم الاعلم بالسنة، ثم الاقدم هجرة، ثم الاكبر سناً. **أولاً— الاقراء:** وهو صاحب القرآن الاكثر حفظاً والاجود قراءة من غيره، فهو مقدم للإمامة على غيره ممن لا يحفظ مثل حفظه، ولو كان غيره أعلم منه، لحديث عمرو بن سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم: « فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ وَلْيُؤَمِّكُمْ أَكْثَرَكُمْ قُرْآنًا »^(١). وحديث أبي سعيد الخدري قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً فَلْيُؤَمِّهِمْ أَحَدُهُمْ وَأَحْتُمَّهُم بِالْإِمَامَةِ أَقْرَبُهُمْ »^(٢).

قال ابن حجر: "ولا يخفى أن محل تقديم الاقراء إنما هو من حيث يكون عارفا بما يتعين معرفته من أحوال الصلاة، فأما إذا كان جاهلاً بذلك فلا يُقدّم اتفاقاً"^(٣). وأحوال الصلاة، بحيث يعلم شروطها وأركانها وواجباتها، وسننها، ومبطلاتها، ونحو ذلك. **ثانياً— الاعلم بالسنة:** وإن استويا في القراءة، فالاعلم بالسنة والمراد بذلك: سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان الاحكام الشرعية، مثل أحكام الصلاة، والامور المطلوبة في الصلاة، بحيث يكون على علم بها، ولو حصل له شيء من السهو أو نحوه فإنه يعرف أحكام الصلاة^(٤).

ثالثاً— الاقدم هجرة: المقصود به الصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم هاجروا من بلاد الشرك، إلى بلاد الاسلام وهي المدينة النبوية.

قال ابن الملك: "والمعتبر اليوم الهجرة المعنوية وهي الهجرة من المعاصي ويكون الاورع أولى ... وقال: وقد انتسخ وجوب الهجرة فوضعوا مكانها الهجرة عن الخطايا وفي حديث المهاجر من هجر الخطايا والذنوب"^(٥)

رابعاً— الاكبر سناً: وهذا لا يكون الا بعد أن يتساوى الناس في القراءة والعلم

(١) صحيح البخاري، (ج ٥ / ص ١٥٠)، رقم ٤٣٠٢

(٢) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٣٣)، رقم ١٥٦١

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (ج ٢ / ص ١٧١)

(٤) العباد، عبد المحسن، شرح سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٣٠)

(٥) القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (ج ٣ / ص ٨٦٣)

بالسنة والهجرة، فيأتي بعد ذلك الاكبر سنًا.

والقدوة في الامامة هو سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كان رحيمًا رؤوفًا
برًا هينًا لينا مع أصحابه عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم. وكان من حسن صحبته
لأصحابه أن كل واحد منهم يظن أنه أحب الناس إليه، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ
اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ قَالَ فَاتَيْتُهُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ
اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ عَائِشَةُ قُلْتُ مِنَ الرِّجَالِ قَالَ أَبُوهَا^(١). وفي لفظ قال عمرو:
"وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنِّي".

ولكن هل الائمة اليوم يقتدون بقدوتهم؟ هل هناك إمام يحب جماعة مسجده ومحبونه
كما كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته؟ هذه العلاقة الحميمة فقدت إلا من
رحمه الله. أستمع الإمام إلى نصائح من صَلَّى خلفه أم يتجاهلها وإن كانت حقًا أو يعتقد
أنه غني عن النصيحة؟

تهاون الناس في أمر الامامة

الإمامة هي وظيفة الأنبياء والرسول، وكان يقوم بها نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
ثم خلفه من بعده عليها خلفاؤه الراشدون، ثم العلماء والصالحون، إلا أن الناس اليوم
يتسابقون على الإمامة ومنهم من لا يحفظ شيئًا من كتاب الله، ولا يعرف شيئًا من أحكام
التلاوة، ولا يجيد حتى قراءة الفاتحة، ولا يعون الذنب العظيم الذي يقعون فيه عند
تفريطهم بأركان وسنن الصلاة وواجباتها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الامامُ ضامنٌ والمؤدِّنُ المؤمنُ اللهم أرشدِ الائمةَ واغفر للمؤدِّينَ»^(٢).

قال المناوي: "الامامُ ضامنٌ" أي متكفل بصحة صلاة المقتدين لارتباط صلاتهم
بصلاته لأنه يتحمّل الفاتحة عن المأموم إذا أدركه في الركوع. "اللهم أرشدِ الائمةَ" ليأتوا

(١) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٧٠٦)، رقم ٣٨٨٥، وقال: حديث حسن صحيح

(٢) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٢٠٣)، رقم ٥١٧، وقال الالباني: صحيح

بالصلاة على أتمّ الاحوال" (١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «يُصَلُّونَ لَكُمْ فَاِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ» (٢)

وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتهيّبون من الامامة، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: كُنْتُ أُرَاهُ يُقَدِّمُ فِتْيَانًا مِنْ فِتْيَانِ قَوْمِهِ فَيُصَلُّونَ بِهِ، فَقُلْتُ: أَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكَ مِنَ الْفَضْلِ وَالسَّابِقَةِ تَقَدُّمٌ هَؤُلَاءِ الصَّبِيَّانِ، فَيُصَلُّونَ بِكَ أَفَلَا تَتَقَدَّمُ وَتُصَلِّيَ لِقَوْمِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ الْإِمَامَ ضَامِنٌ، فَإِنْ أْتَمَّ كَانَ لَهُ وَهُمْ، وَإِنْ نَقَصَ كَانَ عَلَيْهِ وَلَا عَلَيْهِمْ، فَلَا أُرِيدُ أَنْ أَتَحَمَّلَ ذَلِكَ» (٣).

وإذا حصل للإمام حدث أثناء الصلاة فالواجب عليه أن ينصرف من صلاته ويحرم عليه أن يكملها، ويستخلف من يصلي بالناس. فلما طعن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في الصلاة، استخلف عبد الرحمن بن عوف ليصلي بالناس. وأصاب علياً بن أبي طالب رضي الله عنه رعاً وهو في صلاته، فأخذ بيد رجل فقدمه ثم انصرف.

وإذا حصل للإمام شغل عارض من سفر أو مرض أو غيره عليه أن يوكل على المصلين من بعده من هو أهل للإمامة. وتهاون الائمة في هذا الأمر فيوكلون الصلاة إلى غير الكفوء لكبر سنّه أو لشهادته الدنيويّة أو لشرفه ونسبه مع علمه بوجود من هو أفضل منه حفظاً وقراءةً وهذا غشّ لهم كما جاء في الحديث، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: أَتَيْنَا مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ نَعُوذُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْنَا عُبَيْدُ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ هَمًّا، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» (٤).

وقد أفرد البخاريّ باباً في صحيحه أسماه {باب أهل العلم والفضل أحقّ بالامامة}.

(١) المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، (ج ٨ / ص ٢١٤)

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٤٠)، رقم ٦٩٤

(٣) المستدرک على الصحيحين، (ج ١ / ص ٣٣٧)، رقم ٧٨٥، صحيح على شرط مسلم

(٤) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ٦٤)، رقم ٧١٥١

وذكر حديث استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر للصلاة بالناس في مرضه، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ مَرَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَدَّ مَرَضُهُ فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»^(١).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوْلُونَ الْعُصْبَةَ - مَوْضِعُ بَقْبَاءَ - قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُؤْمَهُمْ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَكَانَ أَكْثَرَهُمْ قُرْآنًا»^(٢) وفيهم عمر بن الخطاب وابو سلمة ابن عبد الاسد.

تسوية الصفوف:

ومن واجبات الامام تسوية الصفوف ولا يبدأ الصلاة حتى يتأكد أنها استوت ثم يكبر تكبيرة الاحرام كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث أكد على تسوية الصفوف، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ، مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ». وَقَالَ: «أَقِيمُوا الصَّفَّ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ إِقَامَةَ الصَّفِّ مِنْ حُسْنِ الصَّلَاةِ»^(٣).

ومن تسوية الصفوف سدّ الخلل والفرج وإيصال الصفوف ووقوف العقلاء وحفظه القرآن خلف الامام وعدم الصلاة خلف الصفوف عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: «اسْتَوُوا، وَلَا تَحْتَلِفُوا، فَتَحْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِينِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: «فَأَنْتُمْ الْيَوْمَ أَشَدُّ اخْتِلَافًا»^(٤)

ومن تسوية الصفوف المحاذاة بين المناكب والأقدام والدين بين المصلين قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ وَحَادُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ وَسُدُّوا الْخَلَلَ وَلِينُوا

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٣٦)، رقم ٦٧٨

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٤٠)، رقم ٦٩٢

(٣) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٣١)، رقم ١٠٠٥

(٤) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٣٠)، رقم ١٠٠٠

بأيدي إخوانكم وَلَا تَدْرُوا فُرْجَاتِ لِلشَّيْطَانِ وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ»، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: "ومعنى ولينوا بأيدي إخوانكم: اذا جاء رجل الى الصف فذهب يدخل فيه فينبغي ان يلين له كل رجل منكبيه حتى يدخل في الصف" (١).

وقد أفرد البخاري بابا سماه باب إزاق المنكب بالمنكب والقدم بالقدم في الصف ثم قال: وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ: "رَأَيْتُ الرَّجُلَ مَنَّا يُلْزِقُ كَعْبَهُ بِكَعْبِ صَاحِبِهِ" (٢).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ، فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي، وَكَانَ أَحَدُنَا يُلْزِقُ مَنكِبَهُ بِمَنكِبِ صَاحِبِهِ، وَقَدَمَهُ بِقَدَمِهِ» (٣).

الكعب: هو العظم الناتئ عند مفصل الساق مع القدم.

المنكب: هو مجتمع رأس العضد مع الكتف.

الكثير من الأئمة لا يهتم بهذا الجانب مداراة للمصلين الذين يتضايق بعضهم عندما يأمره الإمام بالتحرك حتى يستوي الصف.

وترك هذا الأمر المهم يؤدي إلى الاخلال بالصلاة واختلاف القلوب والتدابير والتناحر بين المصلين، وكأن اختلاف القلوب عقوبة لعدم إقامة الصف. عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَتَسُونَنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لِيُخَالَفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ» (٤).

قال النووي: "والأظهر والله أعلم أن معناه يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب كما يقال تغير وجه فلان علي أي ظهر لي من وجهه كراهة لي وتغير قلبه علي لأن مخالفتهم في الصفوف مخالفة في ظواهرهم واختلاف الظواهر سبب لاختلاف البواطن" (٥)

(١) سنن ابي داود، (ج ١ / ص ٢٥١)، رقم ٦٦٦، وقال الالباني: صحيح

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٤٦)، باب الزاق المنكب بالمنكب والقدم بالقدم في الصف.

(٣) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٤٦)، رقم ٧٢٥

(٤) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٣١)، رقم ١٠٠٦

(٥) النووي، المنهاج شرح النووي على صحيح مسلم بن الحجاج، (ج ٤ / ص ١٥٧)

الاختلاف في الدين مهلكة

أصل الاختلاف موجود في الفطرة الإنسانية فهم فريقان مختلفان أهل حق وأهل باطل، سئل مالك عن قول الله تعالى: (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) [هود: ١١٨-١١٩]، قال: خلقهم ليكونوا فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير. عن الحسن قال: (ولذلك خلقهم)، قال: "أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرُّهم" (١).

الاختلاف في كتاب الله:

لقد ذم الله سبحانه الاختلاف في كتابه ونهى عن التفرق في الدين والتنازع فيه (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) [الشورى: ١٣] وقال: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ) وقال (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) قال ابن عباس: "تبييض وجوه أهل السنة والائتلاف وتسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف".

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإختلاف وبين انه سبب الهلاك عن ابن مسعود رضي الله عنه قال سَمِعْتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ خِلَافَهَا فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكِرَاهِيَةَ وَقَالَ «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ وَلَا تَخْتَلِفُوا فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا» (٢)

والاختلاف مناف لما بعث الله به رسوله، وكان التنازع والاختلاف أشد شيء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا رأى من الصحابة اختلافاً يسيراً في فهم النصوص يغضب ويظهر ذلك في وجهه واخبر أن ضلال الأمم من قبلنا إنما كان باختلافهم على

(١) الطبري، جامع البيان، (ج ١٥ / ص ٥٣٦)

(٢) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٧٥)، رقم ٣٤٧٦

أَنْبِيَاءِهِمْ^(١) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ نَفَرًا كَانُوا جُلُوسًا بِبَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ كَذَا وَكَذَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ كَذَا وَكَذَا فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِيَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَانِ فَقَالَ «بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ إِنَّمَا صَلَّتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا هَاهُنَا فِي شَيْءٍ أَنْظِرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فاعْمَلُوا بِهِ وَالَّذِي نُهَيْتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»^(٢)

انواع الاختلاف

يقول ابن القيم: "ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه والا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف"^(٣). والاختلاف نوعان:

أحدهما: أن يكون المختلفون كلهم مذمومين وهم الذين اختلفوا بالتأويل وهم الذين نهانا الله سبحانه عن التشبه بهم في قوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران: ١٠٥] وهم الذين تسود وجوههم يوم القيامة وهم الذين قال الله تعالى فيهم (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) [البقرة: ١٧٦]، فجعل المختلفين كلهم في شقاق بعيد. وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي وهو الذي يوجب الفرقة والاختلاف وفساد ذات البين ويوقع التحزب والتباين.

(١) ينظر، ابن القيم، أعلام الموقعين عن رب العالمين، (ج ١ / ص ٢٥٨)

(٢) مسند أحمد، (ج ٢ / ص ١٨١)، رقم ٦٨٤٥، شعيب الأرنؤوط : صحيح وهذا إسناد حسن

(٣) ابن القيم، الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعتلة، (ج ٢ / ص ٥١٩)

والنوع الثاني: اختلاف ينقسم أهله إلى محمود ومذموم فمن أصاب الحق فهو محمود ومن أخطأه مع اجتهاده في الوصول إليه فاسم الذم موضوع عنه وهو محمود في اجتهاده معفو عن خطئه، وإن أخطأه مع تفريطه وعدوانه فهو مذموم.

ومن هذا النوع المنقسم قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) [الشورى: ١٠]

والاختلاف المذموم: كثيرا ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق فلا يقر له خصمه به بل يجحده إياه بغيا ومنافسة فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه وهذا شأن جميع المختلفين بخلاف أهل الحق فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به فيأخذون حق جميع الطوائف ويردون باطلهم فهؤلاء الذين قال الله فيهم: (فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [البقرة: ٢١٣]، فأخبر سبحانه أنه هدى عباده لما اختلف فيه المختلفون. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح عند قيام الليل: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ أَنْتَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١)

فمن هداه الله سبحانه إلى الاخذ بالحق حيث كان ومع من كان ولو كان مع من يبغضه ويعاديه ورد الباطل مع من كان ولو كان مع من يحبه ويواليه فهو ممن هدى لما اختلف فيه من الحق، فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلا وأقومهم قبلا. وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلفا فهم اختلاف رحمة وهدى يقر بعضهم بعضا عليه ويواليه ويناصره. وهذا النوع

(١) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٢٧٩)، رقم ٧٦٧، وقال الالباني: حسن

من الاختلاف لا يوجب معاداة ولا افتراقا في الكلمة ولا تبديدا للشمل فإن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة ولا قطع بينه وبينه عصمة، بل كان كلّ منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والموالاتة من غير أن يضمّر بعضهم لبعض ضغنا ولا ينطوي له على معتبه ولا ذم بل يدل المستفتي عليه مع مخالفته له ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه. فهذا الاختلاف أصحابه بين الاجرين والاجر وكلّ منهم مطيع لله بحسب نيّته واجتهاده وتحريه الحق. وهنا نوع آخر من الاختلاف وهو وفاق في الحقيقة وهو اختلاف في الاختيار والاولى بعد الاتفاق على جواز الجميع كالاختلاف في أنواع الأذان، والإقامة، وصفات التشهد والاستفتاح، وأنواع النسك الذي يجرم به قاصد الحجّ والعمرة، وأنواع صلاة الخوف والأفضل من القنوت أو تركه، ومن الجهر بالبسملة أو إخفائها ونحو ذلك فهذا وإن كانت صورته صورة اختلاف فهو اتفاق في الحقيقة^(١).

بعض صور الاختلاف بين المصلّين في المساجد

كثير من الناس وبعضهم من المصلّين في المساجد يستهويهم الشيطان ويحرّضهم على إثارة الاختلافات بين المسلمين فتجد بعضهم ينكر على بعض في أمور يسوغ فيها الخلاف حتى يوغر صدور بعضهم على بعض ويحصل التدابير والتقاطع بينهم، هذا يحصل بعد أن يلتزموا بالصلاة ويأس الشيطان من أتباعهم له، عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»^(٢). {التَّحْرِيشُ: الْإِفْسَادُ وَتَغْيِيرُ قُلُوبِهِمْ وَتَقَاطُعُهُمْ}

وكثيرا ما يحصل ذلك بسبب بعض المسائل التي فيها سعة، وذلك بسبب جهل الكثير

(١) ينظر، الصواعق المرسلّة في الرد على الجهمية والمعتلة، (ج ٢ / ص ٥١٥، ٥١٩)

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٣٨)، رقم ٧٢٨١

من المصلّين وَاخص منهم المقلّدين بالمسائل الشرعيّة، وسكوت الامام على الاخطاء التي تحدث مداراة لهم.

وعلى الامام توضيح المسائل المتعلقة بالصلاة وأقوال العلماء فيها لا سيما تلك التي تثير المشاكل والتدابير والتناحر ومنها:

اولاً— وضع اليدين عند القيام:

أجمع العلماء على وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة لورود الاحاديث الصحيحة ومنها: عن وائل بن حُجرٍ أنّه رأى النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَفَعَ يَدَيْهِ حِينَ دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ كَبَّرَ - وَصَفَ هَمَامٌ حِيَالَ أُذُنَيْهِ - ثُمَّ التَّخَفَ بِثَوْبِهِ ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ أَخْرَجَ يَدَيْهِ مِنَ الثَّوْبِ ثُمَّ رَفَعَهُمَا ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ فَلَمَّا قَالَ «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمَدَهُ». رَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمَّا سَجَدَ سَجَدَ بَيْنَ كَفَيْهِ^(١).

وعَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ "كَانَ النَّاسُ يُؤْمَرُونَ أَنْ يَضَعَ الرَّجُلُ الْيَدَ الْيُمْنَى عَلَى ذِرَاعِهِ الْيُسْرَى فِي الصَّلَاةِ"^(٢).

وَعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ هَلْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، "قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤْمِنًا، فَيَأْخُذُ شِمَالَهُ بِيَمِينِهِ"^(٣).

قال الترمذي: "حَدِيثُ هَلْبٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ يَرُونَ أَنْ يَضَعَ الرَّجُلُ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ فِي الصَّلَاةِ، وَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنْ يَضَعَهَا فَوْقَ السَّرَّةِ وَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنْ يَضَعَهَا تَحْتَ السَّرَّةِ وَكُلُّ ذَلِكَ وَاسِعٌ عِنْدَهُمْ"^(٤).

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٣)، رقم ٩٢٣

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٤٨)، رقم ٧٤٠

(٣) سنن الترمذي، (ج ٢ / ص ٣٢)، رقم ٢٥٢ وقال: الالباني حسن صحيح

(٤) سنن الترمذي، (ج ٢ / ص ٣٢)، رقم ٢٥٢

قال ابن عثيمين: "وذهب آخرون من أهل العلم: إلى أنه يضعها على الصدر، وهذا هو أقرب الأقوال، والوارد في ذلك فيه مقال، لكن حديث سهل بن سعد الذي في البخاري ظاهره يؤيد أن الوَضْع يكون على الصدر، وأمثلة الأحاديث الواردة على ما فيها من مقال حديث وائل بن حُجر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كان يضعها على صدره»^(١).

ثانياً— مسألة الجهر والإسرار بالبسملة: كثير من المصلين ينكر على بعض الأئمة إذا جهر بالبسملة والبعض الآخر ينكر عليهم إذا أسروا بها، وهي من المسائل التي فيها سعة والكل لا يخرج فيها عن سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما حققه العلماء.

يقول ابن القيم: "وكان يقول بعد ذلك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم يقرأ الفاتحة، وكان يجهر بسم الله الرحمن الرحيم تارة، ويخفيها أكثر مما يجهر بها"^(٢).
وخير الهدى هديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآله وهو الجهر والاسرار.

ثالثاً— دعاء القنوت: اختلف العلماء في دعاء القنوت فمنهم من أستحبّه ومنهم من أنكره وقال إنه بدعة.

يقول ابن القيم: "والانصاف الذي يرضيه العالم المنصف، أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهر وأسرّ، وقت وتترك، وكان إسراؤه أكثر من جهره، وتركه القنوت أكثر من فعله، فإنه إنما قنت عند النوازل للدعاء لقوم، وللدعاء على آخرين، ثم تركه لما قدم من دعا لهم، وتخلّصوا من الاسر، وأسلم من دعا عليهم وجاءوا تائبين، فكان قنوته لعارض، فلما زال ترك القنوت، ولم يختص بالفجر، بل "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْنُتُ فِي الصُّبْحِ، وَالْمُغْرِبِ"^(٣).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَنَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهْرًا مُتَتَابِعًا فِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ

(١) العثيمين، الشرح الممتع على زاد المستقنع، (ج ٣ / ص ٣٧)

(٢) زاد المعاد، (ج ١ / ص ١٩٩)

(٣) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٣٧)، رقم ١٥٨٧

وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ وَصَلَاةِ الصُّبْحِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ إِذَا قَالَ «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». مِنَ الرَّكْعَةِ
الْآخِرَةِ يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى رِغْلِ وَذَكَوَانَ وَعُصَيَّةَ وَيُؤْمِنُ مَنْ خَلْفَهُ»^(١).

ويقول أيضا: "فأهل الحديث متوسطون بين هؤلاء (أي بين من يقول أنه بدعة وبين من استحبه عند النوازل وغيرها)، وهم أسعد بالحديث من الطائفتين، فإنهم يفتنون حيث قنت رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، ويتكونه حيث تركه، فيفتنون به في فعله وتركه، ويقولون: فعله سنة وتركه سنة، ومع هذا فلا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفا للسنة، كما لا ينكرون على من أنكره عند النوازل، ولا يرون تركه بدعة، ولا تاركة مخالفا للسنة، بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن، وركن الاعتدال محل الدعاء والثناء، وقد جمعها النبي صَلَّى الله عليه وسلم فيه"^(٢).

يقول ابن عثيمين: "القول الراجح في هذه المسألة أنه لا قنوت في صلاة الفجر، لأن ذلك لم يثبت عن النبي صَلَّى الله عليه وسلم، فإن النبي صَلَّى الله عليه وسلم لم يقنت في الفرائض إلا بسبب نوازل نزلت بالأمة الإسلامية، ثم ترك القنوت عليه الصلاة والسلام فلم يقنت حتى توفاه الله عز وجل. لكن من اتهم بإمام يقنت في صلاة الفجر فلا ينفرد عنه، بل يتابعه ويقف، ويؤمن على دعائه، هكذا نص عليه الامام أحمد، وإنما نص - رحمه الله - على هذا، لأن الخلاف شر، والخروج عن الجماعة شر". وانظر إلى كلام ابن مسعود - رضي الله عنه - لما كره إتمام عثمان بمنى كان يصلي خلفه أربعاً، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن ما هذا؟ يعني كيف يصلي أربعاً وأنت تنكر على عثمان؟ فقال - رضي الله عنه - : "الخلاف شر"، وهذه قاعدة مهمة^(٣).

(١) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٥٤١)، رقم ١٤٤٥، وقال الالباني: حسن

(٢) زاد المعاد، (ج ١ / ص ٢٦٤)

(٣) العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل العثيمين، (ج ١٤ / ص ١٧٨)

رابعاً— مسألة الاشارة بالسبابة:

الدليل الصحيح على مسألة الاشارة بالسبابة حديث عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَعَدَ يَدْعُو، وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، وَيَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُسْرَى، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةِ، وَوَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَى إِصْبَعِهِ الْوُسْطَى، وَيُلْقِمُ كَفَّهُ الْيُسْرَى رُكْبَتَهُ"^(١).

وَمِنْ حَدِيثِ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ: "قُلْتُ: لَأَنْظُرَنَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَيْفَ يُصَلِّي؟ قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ قَامَ فَكَبَّرَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى حَادَتَا أُذُنَيْهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى ظَهْرِ كَفِّهِ الْيُسْرَى، وَالرُّسْغِ وَالسَّاعِدِ، ثُمَّ قَالَ: لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ، رَفَعَ يَدَيْهِ مِثْلَهَا وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ مِثْلَهَا، ثُمَّ سَجَدَ، فَجَعَلَ كَفَّيْهِ بِحِذَاءِ أُذُنَيْهِ، ثُمَّ قَعَدَ فَافْتَرَشَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى، فَوَضَعَ كَفَّهُ الْيُسْرَى عَلَى فَخِذِهِ وَرُكْبَتَيْهِ الْيُسْرَى، وَجَعَلَ حَدَّ مِرْفَقِهِ الْيَمَنِ عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ قَبَضَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ فَحَلَقَ حَلَقَةً، ثُمَّ رَفَعَ إِصْبَعَهُ، فَرَأَيْتُهُ يُحَرِّكُهَا يَدْعُو بِهَا"، ثُمَّ جِئْتُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي زَمَانٍ فِيهِ بَرْدٌ فَرَأَيْتُ النَّاسَ عَلَيْهِمُ الشِّيَابُ تُحَرِّكُ أَيْدِيَهُمْ مِنْ تَحْتِ الشِّيَابِ مِنَ الْبَرْدِ"^(٢).

{تعليق شعيب الارنؤوط: حديث صحيح دون قوله: "فرايته يحركها يدعو بها" فهو

شاذ انفرده زائدة}

- وحديث عبد الله بن الزبير، أنه ذكر، "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُشِيرُ بِإِصْبَعِهِ إِذَا دَعَا، وَلَا يُحَرِّكُهَا"^(٣). {حكم الالباني: شاذ بقوله ولا يحركها}

وبسبب الخلاف في هذين الحديثين وفهمهما اختلف العلماء في مسألة تحريك السبابة

ونذكر خلاصة اقوالهم في هذه المسألة:

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٩٠)، رقم ١٣٣٦

(٢) مسند أحمد، (ج ٤ / ص ٣١٨)، رقم ١٨٨٩٠

(٣) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٣٧٤)، رقم ٩٩١

— فذهب بعض الحنفية إلى أنه يرفعها عند "لا إله الا الله".

قال ابن عابدين: "وفي المحيط أنها سنة يرفعها عند النفي ويضعها عند الاثبات وهو قول أبي حنيفة ومحمد وكثرت به الاثار والاخبار فالعمل به أولى" اهـ^(١).

— وذهب المالكية إلى أنه يرفعها مع تحريكها من ابتداء التشهد إلى آخره، قال في حاشية الدسوقي: "قوله {في جميع التشهد} أي من أوله وهو التحيات لله لآخره وهو عبده ورسوله وظاهره أنه لا يجرّكها بعد التشهد في حالة الدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم"^(٢).

— وذهب الشافعية إلى أنه يرفعها عند قوله: «الا لله» إلى القيام من التشهد الاول أو السلام بعد التشهد الثاني.

قال النووي: "وأما الاشارة بالمسبحة فمستحبة عندنا للأحاديث الصحيحة قال أصحابنا يشير عند قوله الا الله من الشهادة ويشير بمسبحة اليمنى لا غير فلو كانت مقطوعة أو عليلة لم يشر بغيرها لا من الاصل باليمنى ولا اليسرى والسنة الا يجاوز بصره إشارته وفيه حديث صحيح في سنن أبي داود ويشير بها"^(٣)

وقال في المجموع: "قال أصحابنا وعلى الاقوال والوجه كلها يسن أن يشير بمسبحة يمناه فيرفعها إذا بلغ الهمزة من قوله لا إله الا الله ونص الشافعي على استحباب الاشارة للأحاديث السابقة قال أصحابنا ولا يشير بها الا مرة واحدة وحكى الرافعي وجها أنه يشير بها في جميع التشهد وهو ضعيف"^(٤).

- وذهب الحنابلة إلى أنه يرفعها عند ذكر الله تعالى، قال ابن قدامة المقدسي: "جلس للتشهد

(١) ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، (ج ١ / ص ٥٠٨)

(٢) الدسوقي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، (ج ١ / ص ٢٥١)

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، (ج ٥ / ص ٨١)

(٤) النووي، المجموع شرح المذهب، (ج ٣ / ص ٤٥٤)

مفترشا ويضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ويده اليمنى على فخذه اليمنى ويقبض منها الخنصر والبصر ويحلق الابهام مع الوسطى ويشير بالسبابة في تشهده مرارا^(١).
قال ابن مفلح: "وظاهره أنه يشير بها في كل تشهده، وهو رواية، والاشهر أن موضع الاشارة بها عند ذكر الله لتنبه على الوجدانية، زاد ابن تميم: وذكر رسوله، وقدم في "التلخيص" أنه يرفعها في تشهده مرتين أو ثلاثا، وذكر جماعة أنه يشير بها، ولم يقولوا مرارا، وظاهره ولو مرة، وهو ظاهر كلام أحمد، والخبار، وعلى كل حال لا يحركها في الاصح لفعله - عليه السلام -، قال في "الغنية": "ويديم نظره إليها في كل تشهده لخبر ابن الزبير رواه أحمد"^(٢).

— ولا تختلف فتاوى العلماء المعاصرين مع من سبقهم ولكن فصلوا في أقوالهم.

قال ابن باز: "أما التحريك فيكون عند الدعاء كما جاء في الحديث: {كان يحركها إذا دعا} يعني عند الدعاء يحركها قليلا مثل قوله: {اللهم صل على محمد، أعوذ بالله من عذاب جهنم، اللهم أعني على ذكرك} ونحو ذلك من الدعوات قبل السلام يشير بإصبعه عند كل دعاء حركة قليلة كما جاءت به السنة"^(٣).

قال ابن عثيمين: "ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطب الناس في حجة الوداع وقال: «الاهل بلغت؟» قالوا: نعم، فرفع إصبعه إلى السماء وجعل ينكتها إلى الناس يقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد ثلاثا»، وهذا يدل على أن الله تعالى فوق كل شيء، وهو أمر واضح معلوم بالفطرة والعقل والسمع والاجماع، وعلى هذا فكلما دعوت الله عز وجل فإنك تحرك السبابة تشير بها إلى السماء، وفي غير ذلك تجعلها ساكنة، فلنتبع الان مواضع الدعاء في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى

(١) ابن قدامة، عمدة الفقه، (ج ١ / ص ٢٥)

(٢) ابن مفلح، المبدع في شرح المقنع، (ج ١ / ص ٤١٠)

(٣) ابن باز، مجموع فتاوى ابن باز، (ج ٢٩ / ص ٢٩٣)

عباد الله الصالحين، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، هذه ثمانية مواضع يحرك الانسان إصبعه فيها نحو السماء، وإن دعا بغير ذلك أيضا رفعها، لأن القاعدة أن يرفعها عند كل دعاء^(١).

وعلى العموم فالامر فيه سعة ولا يدعو إلى اختلاف القلوب والتشاحن بين المصلين فمن اطمأنت نفسه لقول عالم مجتهد فليعمل به ولا ينكر على من خالفه لقول عالم مجتهد آخر.

خامسا- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الإستطاعة:

الانسان خلق مفظورا في دنياه على التمييز بين النافع والضار وإيثار الأنفع على النافع والقبول بأخف الشرين بدفع اعظمهما وجاءت الشريعة موافقة للفطرة والعقل السليم، ففي المأثور عن السلف: "ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر وإنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين"

يقول شيخ الاسلام: "ان الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وأنها ترجح خير الخيرين وشر الشرين وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما"^(٢).

القاعدة العامة: فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاممت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد. فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورا به، بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر،

(١) العثيمين، مجموع رسائل وفتاوى ابن عثيمين، (ج ١٢ / ص ٢٢٤)

(٢) مجموع الفتاوى، (ج ٢٠ / ص ٤٨)

وقل أن تعوز النصوص من يكون خيرا بها وبدلائلها على الأحكام.
وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعا، أو يتركوهما جميعا لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر، بل ينظر فإن كان المعروف أكثر أمر به، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله وزوال فعل الحسنات. وإن كان المنكر أغلب نهى عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمرا بمنكر وسعيا في معصية الله ورسوله. وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما، فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهى حيث كان المعروف والمنكر متلازمين، وذلك في الأمور المعينة الواقعة.

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقا، وينهى عن المنكر مطلقا. وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويحمد محمودها ويذم مذمومها، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات أكثر منه أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول أنكر منه، أو فوات معروف أرجح منه، وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية، وإذا تركها كان عاصيا، فترك الأمر الواجب معصية، وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية، وهذا باب واسع، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

يقول ابن القيم: "إن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لأئمة إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه

(١) ينظر، ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (ص: ١٢)

وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وان كان الله يبغضه ويمقت أهله وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا أفلا نقاتلهم فقال: «لا ما أقاموا الصلاة» وقال: «من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعه» ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر فطلب إزالته فتولد منه ما هو اكبر منه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت وردة على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه كما وجد سواء.

انكار المنكر أربع درجات:

فإنكار المنكر أربع درجات، الأولى أن يزول ويخلفه ضده، الثانية أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة أن يخلفه ما هو مثله، الرابعة أن يخلفه ما هو شر منه، فالدرجتان الأولىان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

وقال: انه سمع شيخ الإسلام يقول مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي فأنكرت عليه وقلت له إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم^(١).

(١) ينظر، ابن القيم، اعلام الموقعين عن رب العالمين، (ج ٣ / ص ٤)

١. الاخلاص والمتابعة

قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف: ١١٠]

دين الاسلام بمجمله مبني على أصلين عظيمين لا تقبل الاعمال الا بهما وهما الاخلاص والمتابعة، قال تعالى (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: ١١٢]، فإسلام الوجه هو الاخلاص لله، والاحسان هو المتابعة للرسول وإصابة السنة.

قال الفضيل بن عياض: في قوله تعالى (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [الملك: ٢] العمل الحسن هو إخلاصه وأصوبه قالوا يا ابا علي ما إخلاصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة وهذا هو المذكور في قوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف: ١١٠]^(١)

قال الغزالي رحمه الله: «ومعنى الاخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه»^(٢).

والناس منقسمون بحسب هذين الاصلين إلى أربعة أقسام كما بينها ابن القيم^(٣):
أحدها: أهل الاخلاص للمعبود والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم وهم أهل إياك نعبد حقيقة قال الله تعالى: (وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) [البينة: ٥]

فأعمالهم كلها لله وأقوالهم لله وعطاؤهم لله ومنعهم لله وحبهم لله وبغضهم لله

(١) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، (ج ١ / ص ٨٢)

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، (ج ٤ / ص ٣١٦)

(٣) ابن القيم، مدارج السالكين، (ج ١ / ص ٨٣)

فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا. عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ «لَا شَيْءَ لَهُ»، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ «لَا شَيْءَ لَهُ»، ثُمَّ قَالَ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ»^(١)

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ولما يحبه ويرضاه وما عدا ذلك فهو مردود على عامله يردّ عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورا. وفي الصحيح من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢). وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله الا بعدا فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالاراء والاهواء. عَنْ أَنَسٍ أَنَّ نَفْرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَكُلُ اللَّحْمَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ. فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا لَكِنِّي أَصَلُّ وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأَفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنِّي فَلَيْسَ مِنِّي».

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة: فليس عمله موافقا لشرع وليس هو خالصا للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرئيين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله عز وجل ولهم أوفر نصيب من قوله تعالى: (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [آل عمران: ١٨٨]، يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ويحبون أن يحمداو باتباع السنة والاخلاص.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الامر: كجهال العباد يتدعون عبادات من عندهم ويعتقدونها قربة وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على

(١) سنن النسائي، (ج ٦ / ص ٢٥)، رقم ٣١٤٠، قال الالباني: حسن صحيح

(٢) صحيح مسلم، (ج ٥ / ص ١٣٢)، رقم ٤٥٨٩

من فعل ذلك. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مُرُّهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيَتِمِّمْ صَوْمَهُ »^(١)

أمره - صلى الله عليه وسلم - بالوفاء بما كان منها طاعة وهو الصوم، وأن يترك ما ليس بطاعة لانه جاء به من عنده وهو القيام في الشمس، وترك الكلام.

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الامر لكنّها لغير الله: كطاعة المرأين كما في الحديث الذي يرويه أبو هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ. قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(٢)

فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها لكنّها لم تقبل لأنها فقدت شرط الاخلاص (وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) فكلّ أحد لم يؤمر الا بعبادة الله بما أمر والاخلاص له في العبادة وهم أهل إياك نعبد وإياك نستعين^(٣)

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٤٣)، رقم ٦٧٠٤

(٢) صحيح مسلم، (ج ٦ / ص ٤٧)، رقم ٥٠٣٢

(٣) ينظر، مدارج السالكين، (ج ١ / ص ٨٣)

*** قال تعالى: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَمَلُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١)

هذا الحديث عظيم الموقع، كثير الفائدة، وأجمع المسلمون على عظم موقع هذا الحديث، وكثرة فوائده، وصحة روايته، قال النووي: إن الأعمال تحسب إذا كانت بنية، ولا تحسب إذا كانت بلا نية^(٢). فالمرائي الذي لا يتغي وجه الله بعمله بل يعمل فخرا ورياء وسمعة فتبطل عبادته، لأن الأعمال بالنيات. وقال بعض الشيوخ: قوله: «إنما الأعمال بالنيات» يرجع إلى معنيين: أحدهما: تجريد العمل من الشرك بالله بخالص التوحيد، والآخر: تجريده بخالص السنة. وكان السلف يستحبون أن يكون للرجل خبيثة من عمل صالح، لا يعلم بها الا الله، قال الزبير: "مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَبِيثَةٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ"^(٣)، كأن يتصدق بصدقة فيخفيها حتى لا تعلم شماله ما انفتت يمينه، او اغاثة ملهوف بماله او جاهه، او اعانة مريض بنفقة علاجه، واعلم ان الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار توسلوا الى الله بخبايا اعمالهم.

الاخلاص عزيز وأهل الاخلاص والمتابعة قليل فكن من هؤلاء القلة لتفوز برضا الله والجنة اللهم ارزقنا الاخلاص لك والمتابعة لنيك صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) صحيح البخاري، (ج٧ / ص ٣)، رقم ٥٠٧٠

(٢) شرح النووي على مسلم، (ج١٣ / ص ٥٤)

(٣) احمد بن حنبل، الزهد، (ص: ١١٩)، رقم ٧٧٨

٢. التوكّل على الله

قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [الأنفال: ٢]

مصلحة الانسان تقوم على جلب ما ينفعه ودفع ما يضرّه، والتوكّل على الله من أعظم الاسباب في حصول الخير، ودفع الشرّ في الدنيا والآخرة.

قال ابن رجب: "وحقيقة التوكّل: هو صدق اعتماد القلب على الله عزّ وجلّ في استجلاب المصالح، ودفع المضارّ من أمور الدنيا والآخرة كلّها، وكلة الامور كلّها إليه، وتحقيق الايمان بأنّه لا يعطي ولا يمنع ولا يضرّ ولا ينفع سواه"^(١).

التوكّل يجمع أصليين: علم القلب وعمله، أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بها وكّله إليه، وأنّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأنّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك. ورضاه بتصرّفه له فوق رضاه بتصرّفه هو لنفسه.

وصحّة الاسلام والايان متوقّفة على صحّة التوكّل فجمع تعالى بين التوكّل والاسلام في قوله تعالى: (إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ) [يونس: ٨٤]

وبين التوكّل والايان قال تعالى: (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا) [الملك: ٢٩]

وقال تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) [المائدة: ٢٣] فشرط الصدق في الايان التوكّل على الله وحده.

قال ابن القيم: "وانّ قوّة التوكّل وضعفه بحسب قوّة الايان وضعفه، وكلّما قوي إيمان العبد كان توكّله أقوى، وإذا ضعف الايان ضعف التوكّل"^(٢).

واقترن التوكّل بالهداية فالهداية والتوكّل متلازمان، كما قال رسل الله عليهم الصلاة والسلام لأمتهم: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا

(١) ابن رجب، تفسير ابن رجب، (ج ٢ / ص ٤٨٤)

(٢) ينظر، ابن القيم، طريق الهجرتين وباب السعادتين ص: ٢٥٧

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [إبراهيم: ١٢]

وجمع بين التوكل والعبادة، قال تعالى: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) [هود: ١٢٣]، فلكل إنسان غاية يطلبها، ووسيلة توصله إلى تلك الغاية، وأشرف غاية للإنسان وأجلها في هذه الحياة هي أن يعبد ربه وينيب إليه، ومن أعظم الوسائل التي تعينه على عبوديته لله أن يتوكل العبد على الله ويستعين به.

وجمع بين التوكل والتقوى، قوله تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) [الطلاق: ٢ - ٣]

وما ذلك الا لتأكيد عبودية التوكل على كل إنسان، وليعلم أن التوكل أصل لجميع مقامات الايمان والاحسان، ولجميع أعمال الاسلام.

ولا تتم حقيقة التوكل الا بعدة أمور^(١): فأول ذلك: معرفة الرب وصفاته من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الامور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الدرجة الثانية: التوكل لا ينافي الاخذ بالأسباب، فالتوكل عمل القلب والاسباب عمل البدن ومن أنكر الاسباب لم يستقم منه التوكل. ومن تمام التوكل عدم الركون إلى الاسباب، وقطع علاقة القلب بها، فالبدن يتعلّق بالأسباب والقلب يتعلّق بالله. قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُرْسِلْ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»^(٢)

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه، وعدم السكون إلى الاسباب والسكون إلى مسببها، كحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته

(١) ينظر، مدارج السالكين، (ج ٢ / ص ١١٨)

(٢) صحيح ابن حبان، (ج ٢ / ص ٥١٠)، رقم ٧٣١، قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره

بثدي أمه لا يعرف غيره كذلك المتوكل لا يأوي الا إلى ربه سبحانه.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل. فعلى قدر حسن ظنك برّبك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب لتدبير الرب لك. كتسليم العبد الذليل نفسه لسيّده، وانقياده له، وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيّده. وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح عند قيامه للتهجد في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ - أَوْ: لَا إِلَهَ غَيْرُكَ" (١)

الدرجة السابعة: التفويض وهو روح التوكل ولبه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبا واختيارا، لا كرها واضطرارا. عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْاَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْبَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ، فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ» (٢).

الدرجة الثامنة: الرضا وهي ثمرة التوكل. ومن فسّر التوكل بها فإنما فسره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله. وهذا معنى قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به. فباستكمال هذه الدرجات الثمانية يستكمل العبد مقام التوكل، وتثبت قدمه

(١) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٤٨)، رقم ١١٢٠

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ٥٨)، رقم ٢٤٧

فيه، ولو كاده من في الأرض جميعا لوجد الله معينا له وكافيا له، قال تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِيَابَ الْمَدِينَةِ وَالسُّبْحِ إِذْ تُمْرَبُّونَ عَلَيْهَا فَأَعْبَأَ فِي قُلُوبِهِمْ أَسْمَاءَ الَّتِي كَانَتْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَتْلُونَ فِيهَا فَذَكَرَ اللَّهُ لَهُمْ هَاتِيكَم بِذُنُوبِكُمْ وَاللَّهُ يُضِلُّ الَّذِينَ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ) [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]

***عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَالسُّورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ: « إِذَا هَمَّ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ» (١)

قال ابن القيم: " وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستخارة:

«اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم»

فهذا توكل وتفويض. ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب». فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحوال والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته، عاجلاً أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته، عاجلاً أو آجلاً، فهذا هو حاجته التي سألها، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: « وأقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»، فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التي من جملتها التوكل والتفويض، قبل وقوع المقدور، والرضا بعده. وهو ثمرة التوكل، والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له، فتفويضه معلول فاسد» (٢)

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٨١)، رقم ٦٣٨٢

(٢) مدارج السالكين، (ج ٢ / ص ١٢٣)

٣. معرفة العدو وكيدہ

قال تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ

السَّعِيرِ) [فاطر: ٦]

لقد حذر الله تعالى أبانا آدم وأمنا حواء من الشيطان وقال عز وجل: (يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) [طه: ١١٧]

وبيّن لبيبي آدم عداوته لهم وعاقبة أتباعه وقال تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [فاطر: ٦]، وأمر تعالى بالاستعاذة منه واللجوء الى الله ليكونوا في حماية ربهم فقال تعالى لنبيه وأتباع نبيه (وَإِذَا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نُرْعُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [فصلت: ٣٦]

قال ابن القيم^(١): "فشيطان كل انسان هو الأمر له بالمعصية، المزيّن له فعلها، الحاض له عليها، فلا بدّ من النظر إليه وملاحظته، واتخاذة عدواً، والاحتراز منه، والتحفظ واليقظة، والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر، فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها"

العقبة الاولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الايمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئاً، وبدعة المعتقد وبدعة العمل متلازمتان، قلّ أن تنفك إحداهما عن الاخرى. فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين، كما تنسل الشعرة من العجين،

(١) ينظر مدارج السالكين، (ج ١ / ص ٢٣٧)، منقول بتصريف

فمفاسد البدع لا يقف عليها الا ارباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) [النور: ٤٠]

وهذه العقبة لا يقطعها الا بنور السنة والاعتصام بمتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، وما مضى عليه السلف الاخير، من الصحابة والتابعين لهم يا حسان.

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زينها له، وحسنها في عينه، وسوف به عن التوبة، وهونها عليه بقوله: لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة. فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر، فأكثر منها عليه، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما ارتكبت من الصغائر، فإنها تكفر باجتناّب الكبائر وبالحسنات، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصرّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه، فالإصرار على الذنب أقبح منه، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَاْدٍ فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ حَتَّى أَنْصَجُوا خُبْرَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ»^(١)

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، {والمقصود المباحات} من أمور الدنيا كالتجارات والصناعات والزراعات والسياحات فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات. فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الاعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه مافيه من الفضل والربح ليشغله بها عما هو أفضل منها وأعظم كسبا وربحا، كالذي يشغله بصلاة الليل فيفوت عليه صلاة الفجر او يشغله

(١) المسند، (ج ٥ / ص ٣٣١) رقم ٢٢٨٦٠، إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين

بصدقة العلقن عن صدقة السر فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الاحب إليه، وبالمرضي عن الأرضي له.

ولا ينجو منها إلا بفقته في معرفة الأعمال ومراتبها عند الله، ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السائرين على جادة التوفيق، الذين أنزلوا الاعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه. ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الافراد في العالم، والاكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

***العقبة السابعة: عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الاذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياءه، وأكرم الخلق عليه، وفيها عبودية خواص العارفين، وهي عبودية المراغمة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [التوبة: ١٢٠] وقال تعالى في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) [الفتح: ٢٩]، فسبحان من جعل صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يغيضون الشيطان وأتباعه في حياتهم وبعد مماتهم، فمغايضة الشيطان وحزبه غاية محبوبة للرب مطلوبة له فيها كمال العبودية لله ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عن سجدي السهو «كَانَتْ تَرْغِيًّا لِلشَّيْطَانِ»^(١) [أي إغاظته له وإذلالا]

فحق على كل مسلم أن يعاديه بطاعة الله سبحانه وتعالى ويستعيذ بالله منه حتى يحميه من كيده فهو ليس له سلطان على من آمن وتوكل على الله قال تعالى: (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [النحل: ٩٩]

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٨٤)، رقم ١٣٠٠

٤. التفكير في آيات الله المتلوة والمشهودة

قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران ١٩٠-١٩١]

لقد أنزل الله تعالى الآيات وأمر بتدبرها والتفكير بها حتى يصل الانسان الى الايمان الكامل بالله واسمائه وصفاته ووحدانيته في الربوبية والالوهية والتصديق بالبعث والنشور والحساب والصراط والجنة والنار ثم العمل بشرعه الذي أنزله رحمة للعالمين، قال تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت: ٥٣]، والآيات نوعان:

أولاً: الآيات المتلوة: قال تعالى: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [العنكبوت: ٥١] وهي آيات القرآن وما تحمله من الاعجاز في لفظها ومعناها ونظمها وما فيها من أخبار الامم السابقة والاخبار عن الامور المستقبلية وإخبار أهل الكتاب بما في كتبهم وما فيها من أحكام شرعية متوافقة مع فطرة الانسان قال تعالى: (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ) [البقرة: ٩٩] يعنى: دَلَالَاتٍ وَاضِحَاتٍ، يَهْدِينَ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ إِلَى الْحَقِّ.

ثانياً: الآيات المشهودة: وهي الآيات الكونية التي تدعو الانسان الى التفكير في هذا الكون وبديع صنعه ونظامه مثل الشمس والقمر والارض والسماء وما فيها من دلالات على الخالق الحكيم وتفرده بالربوبية والالوهية وغناه عن الخلق وفقهرهم اليه في السراء والضراء قال تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ

لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) [ق: ٦: ٨]، ثم استدل بهذه الآيات على البعث والنشور فقال تعالى في آخرها: (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) [ق: ١١]

ومن الآيات ديار وآثار الامم السابقة التي طغت وتجبرت فأهلكها الله تعالى بذنوبها قال تعالى: (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [الصفات: ١٣٧-١٣٨] ومن الآيات المشهودة آيات المعجزات التي أعطاها الله تعالى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتكون دلائل على صدقهم وأنهم مرسلون من عند الله. مثل عصا موسى وناقة صالح وانشقاق القمر للنبي صلى الله عليه وسلم وغيرها من المعجزات.

ولا ينتفع بالآيات الا أصحاب العقول الذين يسمعون ويتفكرون ويعقلون فلذلك قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [يونس: ٦٧] قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [النحل: ١٠-١٢] قال تعالى: (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى) [طه: ٥٤] الذين قال الله تعالى فيهم: (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) [الفرقان-٧٣]، ولذلك فإن خزنة جهنم تسأل أهل النار عن الرسل وتبلغهم لهم بالآيات قال تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرْمًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) [الزمر: ٧١] ويعترفون بذنبهم وتقصيرهم عن السماع والتعقل قال تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ . فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) [الملك: ١٠-١١]، قال تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ

أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) [الأنعام: ١٣٠]
 أما الذين لا يؤمنون بالآيات فهم كثير وكل ردها حسب ما أملاه عليه هواه وشيطانه:
 أولا: الكافرون بها والمكذبون عنادا أو حسدا أو تكبرا بالرغم من أنها آيات بينات قال
 تعالى: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ
 ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [النمل: ١٣-١٤]

ثانيا: المستهزون بالآيات من السفهاء الذين لا يتفكرون قال تعالى: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ
 الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) [الروم: ١٠] (ذَلِكَ
 جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا) [الكهف: ١٠٦]

ثالثا: المعرضون والصادون عن الآيات فلا يلتفتون اليها وكأن الأمر لا يعينهم قال
 تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ
 صُدُودًا) [النساء: ٦١] فهم كالأنعام التي تسمع ولا تفقه قال تعالى: (صُمُّ بَكُمْ عُمِّي
 فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) [البقرة: ١٨] وقال تعالى: (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا
 عَنْهَا مُعْرِضِينَ) [الأنعام: ٤] وقال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ
 عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) [يوسف: ١٠٥]

هؤلاء الكافرون والمستهزون والمعرضون عن الآيات على اختلافهم لا يبتدون إلى
 الحق وهم في ظلمات الجهل لا يخرجون منها قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ
 فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الأنعام: ٣٩] صُمُّ
 لا يسمعون الهدى وَبُكْمٌ لا يتكلمون به فِي الظُّلُمَاتِ فقلوبهم مظلمة ترى الحق في صورة
 الباطل والباطل في صورة الحق وأعمالهم مظلمة وأقوالهم مظلمة وأحوالهم كلها مظلمة
 وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة فالظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم في الدنيا وفي القبور
 وعلى الصراط وفي جهنم فالظلمات في الإعراض عن آيات الله والهدى والنور في الوحي
 الكتاب والسنة قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ

مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

[المائدة: ١٥-١٦]

*** قال تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) [الجنائفة: ٦]

من لا يؤمن بآيات الله المتلوة والمشهودة يعاقب بعقوبتين فيها خسارة الدنيا والآخرة العقوبة الدنيوية: عدم الهداية لدينه فلا يوفقون لمعرفة الحق والعمل به، وعقوبة الآخرة العذاب الاليم قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النحل: ١٠٤]

أما المصدقون بالآيات فقال تعالى فيهم: (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [الأنعام: ٥٤] اكرمهم الله تعالى بالسلام والمغفرة والرحمة، وأمر نبيه ان يقول لهم (سلام عليكم) اكراما وتطييبا لقلوبهم وبشرهم برحمة الله الواسعة، ومعنى النص: وعدكم بالرحمة وعدا مؤكدا وأوجبها على نفسه الكريمة تفضلا وامتنانا واحسانا، ومن رحمته (أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا) أي ذنبا (بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ) أي تاب واخلص توبته لله (فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أي: فشأنه أنه غفور رحيم يغفر لأهل الايمان ويرحمهم، (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [آل عمران: ٥٣]

٥. معرفة عواقب الذنوب

قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) [الشورى: ٣٠]

سؤال يتكرر من كثير من الناس لماذا يصاب المسلمون بكل هذه المصائب ولا يعاقب

الكفار بالرغم من كفرهم بمثل هذه العقوبات؟

مما ينبغي أن يُعلم أن ما من شرٍّ في الدنيا والآخرة الا بسبب الذنوب والمعاصي والبعد عن الله، فأخرج آدم من الجنة بسبب الذنب وطرد إبليس وأبدل بالرحمة لعنة، وأغرقت الأرض في زمن نوح، وسلّطت الريح العقيم على قوم عاد، وأرسلت على قوم ثمود الصيحة، ورفّع قوم لوط إلى السماء وجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من سجيل منضود، وبالذنوب أهلك قوم شعيب بعذاب يوم الظلة وأغرق فرعون وقومه في البحر وحسّف بقارون وداره وماله وأهله، وسلط على بني إسرائيل أنواع العذاب والعقوبات مرّة بالقتل والسبي وخراب البلاد ومرّة بجور الملوك ومرّة بمسخهم قرده وخنازير^(١)، قال تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [العنكبوت: ٤٠]

وحذر الله تعالى المسلمين من نزول عقوبات الأمم السابقة بهم. فقال تعالى: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) [الانعام: ٦٥]

قال المفسرون: {عذاباً من فوقكم: بالصواعق وغيرها، أو من تحت أرجلكم كالزلازل والחסف ويذيق بعضكم بأس بعض: أي يقتل بعضكم بعضاً}. ورغم التحذير أرتكبت الذنوب ونزلت العقوبات وألقيت الاف الاطنان من القنابل على المسلمين، وحدثت الزلازل في ديار المسلمين، وحدث القتل بينهم بسبب التفرّق شيعاً وأحزاباً.

(١) ينظر ابن القيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي {الداء والدواء}، (ص ٢٧)

ونعود إلى السؤال لماذا نعاقب ولا يعاقب الكفار؟

أولاً: الكفر بالله ذنب بين الله وبين العباد، وتوعد الله تعالى الكفار بالعذاب والخلود في جهنم فقال تعالى: (لَا يَغْرَنَكْ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) [ال عمران: ١٩٦-١٩٧]، فمن عدل الله سبحانه وتعالى أن يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته في الدنيا أو في الآخرة ولا يظلم ربك أحداً، عن قتادة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»^(١).

وهذا ينطبق على المسلم الذي يبتغي بعمله الدنيا قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [هود: ١٥-١٦]

ثانياً: من أساء الله الحسنى الغفور الرحيم العفو الكريم فلا يجمع على عباده المؤمنين عقوبتين فما يصيب المؤمن من المصائب والهموم والغموم والاحزان والآلام هي مكفرات للذنوب في الآخرة، عن أبي سعيد وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصْبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى أَلْهَمَ إِلَهُهُمُ الْإِكْفَرُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»^(٢). {النصب: التعب، الوصب: الألم}.

عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ »^(٣)

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٣٥)، رقم ٧٢٦٧

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٦)، رقم ٦٧٣٣

(٣) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ١٧٩)، ٢٣٩٦، وقال الألباني: حسن صحيح

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "ألا أحدثكم بحديث ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال فسألناه فتلا هذه الآية وما أصابكم من مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ" قال: «ما عاقب الله تعالى به في الدنيا فالله أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة»^(١)، من رضي بالله ربا لزمه ان يرضى بتدبيره واختياره له وبمر قضائه وان يقنع بما قسم له من الرزق، وان يداوم على طاعته، ويحافظ على فرائضه، ويجتنب محارمه، ويكون صابرا عند بلائه، موطنا نفسه على ما يصيبه من الشدائد، بعيدا كل البعد عن نار الجزع التي تتأجج في قلب كل امرئ يجهل براءه ومولاه. وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم «وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَبِيدُ وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ»^(٢)

**** عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَمَرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ صَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»**^(٣)

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللَّهُمَّ أَفْسِمَ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تَبَلَّغْنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تَهَوَّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، واجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، واجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وانصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا»^(٤)

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (ج ٧ / ص ٢٠٨)

(٢) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، (ص: ١٣٦)، رقم ٥٠٩، وقال الألباني: صحيح

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٢٢٧)، رقم ٧٦٩٢

(٤) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٥٢٨)، رقم ٣٥٠٢، قال الترمذي: حديث حسن

٦. الدخول في الاسلام كله

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [البقرة: ٢٠٨]

الاسلام امانة في أعناقنا وبه سعادتنا وعزنا، وأعداؤنا بوحى من الشيطان يريدون عزله عن حياتنا ومسوخ هويتنا الإسلامية لتكون تبعاً لهم في كل شيء وهم يعملون على ذلك ليلاً ونهاراً، ولا يمكن أن نواجه مكرهم الا بالحفاظ على هذه الأمانة التي شرفنا الله تعالى بحملها، والأمين على الشيء لا بد أن يحافظ عليه من الضياع أو التغيير أو التبديل وإلا كان خائناً لله ورسوله، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [الأنفال: ٢٧]، والخيانة ضد الأمانة وقد اتّمتن الله العباد على ما أمرهم به ونهاهم عنه، كل مسلم مؤتمن على ما فرض الله عليه، ان شاء اداها وان شاء خانها، وقال القتيبي: "الخيانة ان يؤتمن على شيء فلا يؤدي اليه، ثم سمي العاصي من المسلمين خائناً لأنه قد اؤتمن على دينه فخان" "عن ابن عباس رضي الله عنهما ان خيانة الله سبحانه بترك فرائضة والرسول صلى الله عليه وسلم بترك سنته وارتكاب معصيته"^(١) انزل الله تعالى هذه الرسالة رحمة بالناس ليحملها الأمانة من أمة الاسلام امانة في اعناقهم حتى قيام الساعة ويعملون بها كلها لا جزءاً منها، يجلون الحلال ويحرمون الحرام ويقيمون شرع الله في جميع شؤون الحياة، ومن صفات الأمانة على دين الله:

أولاً: قبول الاسلام كله: فقد أمر الله تعالى المؤمنين بقبول الاسلام كله وقال عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً)، قال مجاهد وقتادة: نزلت في المسلمين يأمرهم بالدخول في شرائع الاسلام كلها. والاختيار مرفوض قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ

(١) الألوسي، روح المعاني، (ج ٥ / ص ١٨٣)

وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) [الأحزاب: ٣٦]

يقول شيخ الاسلام: "فلا بد أن نؤمن بالكتاب كله، ونتبع ما أنزل إلينا من ربنا جميعه، ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وتلين قلوبنا لاتباع بعض السنة، وتنفر عن قبول بعضها بحسب العادات والاهواء، فإن هذا خروج عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين"^(١).

ثانيا: العمل به على قدر الاستطاعة: على المسلمين أفرادا وجماعة بذل الجهد واستفراغ الوسع للعمل بالإسلام، فكلّ حكم شرعيّ يستطيعه المسلم لا يعذر بتركه قال تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة: ٢٨٦]، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هم المؤمنون خاصة، وسع عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم فيه الا ما يستطيعون كما قال الله تعالى: (وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [الحج: ٧٨] وَقَالَ تَعَالَى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة: ١٥٨]، فقبول الاسلام لا تسامح فيه أما العمل فحسب الاستطاعة والوسع واليسر ورفع الحرج، وهذا من رحمة الله تعالى بالمسلمين.

ثالثا: رفض التوفيق بين الاسلام والكفر: التوفيق بين أحكام الاسلام وأحكام الكفر من صفات المنافقين وهو سبب محو هوية الامة قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا) [النساء: ٦٠]، فمن الطبيعي أن يتحاكم الانسان إلى ما آمن به وإذا صد عن حكم الله والرسول كان منافقا يظهر الايمان ويبطن الكفر. قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) [النساء: ٦١]، فالترقيع وأنصاف الحلول والدعوة إلى الالتقاء بين

(١) ابن تيمية، رفع الملام عن الاثمة الاعلام، (ج ١ / ص ٨٢)

الجاهلية والاسلام حبل من حبائل الشيطان زينه لكثير من المسلمين وجرّ عليهم الويلات والمصائب، قال تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْضَنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) [النساء: ٦٢]

رابعا: التبرؤ من سنن الجاهلية ورفضها حتى لا تكون بديلا عن سنن الاسلام: نهى الله تعالى عن تحكيم سنن الجاهلية وعاداتها السيئة، وعن أخلاق المشركين واليهود والنصارى، وسننهم وألفاظهم وأحكامهم ونحو ذلك من أمورهم غير الموافقة للإسلام قال تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [المائدة: ٥٠] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْكُلُّ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضْعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرَضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلْتُهُ هَذِيلٌ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبَّا أَضْعُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»^(١)

فكل ما خالف الاسلام فهو من أمر الجاهلية كالرّبا والثارات وحمية الجاهلية والتفاخر بالآباء والانساب وتغيير الميراث وظلم النساء وتحكيم غير شرع الله واستبداله بقوانين الكفار أو سنن العشيرة أو سنن الاباء والاجداد، كل ذلك إن حلّ في عرف الناس وتقاليدهم يؤدي إلى إزاحة الاسلام شيئا فشيئا عن مفاصل الحياة حتى تحلّ الجاهلية من جديد وتصبح هي المسيرة لأموال الناس.

خامسا: عدم معارضة الاسلام بالآراء والافكار والاهواء: قال تعالى: (وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) [المائدة: ٤٩]، قال ابن كثير رحمه الله: "ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شرّ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية

(١) صحيح مسلم، (ج ٤ / ص ٣٩)، رقم ٣٠٠٩

يحكمون به من الجهالات والضلالات كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان، الذي وضع لهم {الياسق}، وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الاسلامية، وفيها كثير من الاحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه" (١)

*** قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [التوبة: ٣٣]

لقد أبطل الله تعالى في كتابه الكريم عقائد الجاهلية وعباداتها وذم حمية الجاهلية وتبرج الجاهلية وظن الجاهلية وحكم الجاهلية وأمر بمخالفة اليهود والنصارى والمشركين والمجوس، فمن رضي بما أبطله الله وذمه فقد اكرامه عند الله تعالى فلا كرامة له عند الناس (وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) [الحج: ١٨] وأصبحت حاله كحال من تشبه به، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » (٢).

من تمسك بهذا الدين وهو الحق من عند الله تعالى فهو الظاهر العالى، ومن ابتغى العزة في غيره، فقد ابتغى الذل، لأنه لا ظهور ولا عزة ولا كرامة الا بالدين الحق، كما قال عمر رضي الله عنه: "إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ" (٣). فلا يمكن أن تتغير حال المسلمين وكثير منهم يختار من الاسلام ما يوافق هواه ويرفض ما تعارض مع مصالحه.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (ج ٣ / ص ١٣١)

(٢) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٧٨)، رقم ٤٠٣٣، وقال الألباني: حسن صحيح

(٣) المستدرک على الصحيحين، (ج ١ / ص ١٣٠)، رقم ٢٠٧، صحيح على شرط الشيخين

٧. الاسلام دين الرحمة

قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: ١٠٧]

الحمد لله الرحمن الرحيم ذي الفضل العظيم البر الرحيم الذي كتب على نفسه الرحمة وقال تعالى: (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) [الأنعام: ٥٤] واستوى على عرشه بصفة الرحمة وكتب بنفسه فوق عرشه {إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي} (١)

الرحمن جل جلاله أسبغ على عباده نعمته وتفضل عليهم برحمته فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، رأى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأة أخذت صبياً في السبي، فَأَلْصَقَتْهُ بِيَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَكَدَهَا فِي النَّارِ» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا» (٢)

ومن كمال قدرته وإحسانه ورحمته بخلقه أرسل رسله وختمهم بسيدنا محمد ﷺ الذي أرسله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين حيث قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الانبياء: ١٠٧]، وكان صلى الله عليه وسلم يقول «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ» (٣)

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحيماً بمن آذاه، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَادَمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (٤) ويوصي بالرحمة ويقول، «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ» (٥)

وقد شملت رحمته صلى الله عليه وسلم الأعداء حتى في قتالهم ومجاهدتهم فنهى عن المثلة، والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة "عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ وَجِدْتُ امْرَأَةً مَّقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(١) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١٢٥)، رقم ٧٤٢٢

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٨)، رقم ٥٩٩٩

(٣) المستدرک على الصحيحين، (ج ١ / ص ٩١)، رقم ١٠٠، قال الذهبي: صحيح على شرطهما

(٤) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٧٦)، رقم ٣٤٧٧

(٥) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٤٤٠)، رقم ٤٩٤٣ قال الالباني: صحيح

وَسَلَّمَ فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ" (١)
 وكان يوصي اصحابه ويقول: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا» (٢)

ومن صفات المؤمنين الرحمة قال تعالى: (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ) [البلد: ١٧]، المتواصون بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم، ونصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى فأكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم رحمة، كما قال تعالى في أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح: ٢٩]

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاحُمُوا » قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدِكُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ» (٣).

ومن رحمة العامة رحمة المسلم وغير المسلم والعاصي والمبتلى والحيوان والرحمة بالضعيف والصغير والكبير قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفَ حَقَّ كَبِيرِنَا » (٤)

وأعلى درجات الرحمة تكون بين المؤمن وأخيه المؤمن فعَنِ النَّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُوٌّ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » (٥)

وأكثر الناس اتباعاً للنبي صلى الله عليه وسلم في رحمته بالناس بعد صحابته رضي الله عنهم هم أهل السنة والجماعة الذين أنعم الله عليهم بمعرفة دين الرحمة والعمل به قال الموصلي: "إن أهل السنة يعرفون الحق ويرحمون الخلق فلهم نصيب وافر من

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ٦١)، رقم ٣٠١٥

(٢) سنن أبي داود، (ج ٢ / ص ٣٤٢) رقم ٢٦١٥، وقال الالباني: صحيح

(٣) المستدرك على الصحيحين، (ج ٤ / ص ١٨٥)، رقم ٧٣١٠ صحيح على شرط الشيخين

(٤) المسند، (ج ٢ / ص ١٨٥)، رقم ٦٧٣٣، تعليق شعيب الأرنؤوط: صحيح

(٥) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٢٠)، رقم ٦٧٥١

العلم والرحمة، وربهم تعالى وسع كل شيء رحمة وعلما، وأهل البدع يكذبون بالحق ويكفرون الخلق، فلا علم عندهم ولا رحمة وإذا قامت عليهم حجة أهل السنة عدلوا إلى حبسهم وعقولهم إذا أمكنهم، ورثة فرعون فإنه لما قامت عليه حجة موسى ولم يمكنه عنها جواب قال: (لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِيَّاهُ غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ) [الشعراء: ٢٩] (١)

النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والمتبعون لهم يدعون الناس إلى الإسلام ويدخلونهم فيه وأهل البدع على اختلاف عقائدهم يدعون الناس إلى بدعتهم ويخرجون الناس من الإسلام بمخالفتها.

*** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ الصَّادِقَ، الْمُصَدِّقَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبَ هَذِهِ الْحُجْرَةِ يَقُولُ: «لَا تُنَزِعِ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ» (٢)

شقيت الأمة عندما فقد أفرادها الرحمة بخلق الله لأن الرحمة في الخلق علامة الايمان ومن لا رحمة عنده لا إيمان له ومن لا إيمان له شقي في الدنيا والآخرة.

قال المناوي: "فكن رحيماً لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بهالك، والكبير والصغير بشفتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم بعطفك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم بخلقه، فمن كثرت منه الشفقة على خلقه والرحمة على عباده رحمة الله برحمته" (٣).

فكل ما تفعله من خير دق أو جل فصادر عن صفة الرحمة، واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ» (٤).

اللهم رحمتك نرجو أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين إلا أنت.

(١) مختصر الصواعق المرسله، ص ٦٠٤

(٢) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٤٤١)، رقم ٤٩٤٤، قال الالباني: حسن

(٣) السفيري، المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية، (ج ٢ / ص ٥٠)

(٤) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١١٥)، رقم ٧٣٧٦

٨. الاسلام دين العدل

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء: ٥٨]

لقد أمر الله تعالى بأمرين فيهما صلاح أمة الاسلام حكّاما ومحكومين وفيهما استقامة أمور الدنيا للكفّار العاملين بهما وهما الامانة والعدل، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا)، أي نعم الشيء الذي يعظكم به وهو أداء الامانات والعدل إن الله كان سميعا لأقوالكم بصيرا بأعمالكم.

والحكم في الاسلام مبني على أساسين: الامانة والعدل وهذه الآية أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [الأنفال: ٢٧] وقال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) [المؤمنون: ٨]

فالأمانة عظيمة القدر في الدين، وضياعها من علامات زوال الدنيا وقيام الساعة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(١). وكلّ أوامر الشرع أمانة في رقبته المسلم، والمسلم لا بدّ أن يكون أمينا على أموال الكفار كما هو أمين على أموال المسلمين.

أما العدل ففيه قوام الملك، ودوام الدول ورأس كل مملكة سواء كانت نبوية أو إصلاحية، والله تعالى أمر بالعدل، وعلم سبحانه وتعالى أن كل الناس ليست تصلح على العدل بل تطلب الاحسان وهو فوق العدل، فقد أمر به تعالى بقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٠٤)، رقم ٦٤٩٦

تَذَكَّرُونَ) [النحل: ٩٠]، قال ابن مسعود: ”هذه الآية أجمع آية في القرآن لخير أو لشر“. فلو وسع الخلق العدل ما قرن به الاحسان، فمن لا يصلح حتى يزداد على العدل كيف يصلح إذا لم يبلغ به العدل، والعدل ميزان الله في الارض، الذي به يؤخذ للضعيف من القوي وللمحق من المبطل.

فالعدل خيمة يستظل بها كل الناس يتساوى فيها عند الله عز وجل المؤمن والكافر والقريب والبعيد والعدو والصديق والغني والفقير، والآيات آمرة بذلك قال عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) [النساء: ١٣٥]، عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ فَرِيشًا أَهْمَهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمُخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِي عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-. فَكَلَّمَهُ أَسَامَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١)، وفيه دليل على منزلة العدل في دين الاسلام. وكذلك بغض قوم أو حُبهم لا يجعل المسلم يجيد عن العدل قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [المائدة: ٨]، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ قَالَ: «أَفَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْرَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كَانُوا، وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ، فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ

(١) صحيح مسلم، (ج ٥ / ص ١١٤)، رقم ٤٥٠٥

إِلَيَّ، قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسِقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا، فَأَخْرَجُوا عَنَّا»^(١).

** قال تعالى: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

[المائدة: ٤٢]

جاء في الحديث الصحيح: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَّوْا»^(٢) [وَلَّوْا: أي كانت لهم ولاية]

قال ابن القيم: "ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علماً بمقاصدها ووضعها مواضعها وحسن فهمه فيها لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة"^(٣)

فالعدل أساس الملك كما قال الحكماء، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، والله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة. «فعاقة الظلم وخيمة وعاقبة العدل، كريمة فأمر الناس تستقيم في الدنيا مع العدل أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، فالدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والاسلام.

(١) المسند، (ج ٣ / ص ٣٦٧)، رقم ١٤٩٦٦، شعيب الأرنؤوط اسناده قوي على شرط مسلم.

(٢) صحيح مسلم، (ج ٦ / ص ٧)، رقم ٤٨٢٥

(٣) بدائع الفوائد، (ج ٣ / ص ١١٧)

٩. الإسلام دين الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [التوبة: ٧١]

نصيحة العباد وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو المراد من إرسال الرسل وإنزال الكتب وكذلك اتباع الرسل، وهو فرض على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى: (وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [آل عمران: ١٠٤]، قال بعض المفسرين: كونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. وقال آخرون هو فرض على الكفاية فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته.

وهو قطب رحى الدين وعليه يدور بقاء الشريعة وهيمنتها وصلاح أهلها وسبب نزول الرحمة من الله تعالى وإذا تعطل دب الفساد في كل مفاصل حياة الأمة وأصبحت عرضة للزوال والطرده من رحمة الله ونزول اللعنة عليها، قال تعالى: (لِعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [المائدة: ٧٨-٧٩].

وهو مسؤولية جماعية على الأمة إن قامت به نجت وإن تركته غرقت سفينتها بمن فيها، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَالِقِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهْمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ

أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا»^(١)

وقد حذّر الصحابة رضي الله عنهم من ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأخبروا أنّ تركه سبب نزول العقاب بالأمة جميعها ومانع من استجابة دعائها.

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ آيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ»^(٢). وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ»^(٣).

ومن صفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١— الاخلاص: أي يتبني بعمله وجه الله تعالى لتكون كلمة الله هي العليا بين الناس.
٢— العلم والفقه: فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ولا بد من العلم بحال المأمور وحال المنهي كما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، العلم إمام العمل والعمل تابعه.

٣— أن يكون رفيقا ولطيفا فيمن يأمره وينهاه: لأن النفوس تألف من يرفق بها وتنفر من يغلظ عليها ولو كان نبيا، قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُضِّلْنَا مِنْ حَوْلِكَ) [ال عمران ١٥٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفِيقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(٤).

(١) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ١٣٩)، رقم ٢٤٩٣

(٢) المسند، (ج ١ / ص ٧)، رقم ٣٠، وقال شعيب الأرنؤوط اسناده صحيح على شرط الشيخين

(٣) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٤٦٨)، رقم ٢١٦٩، وقال: حديث حسن

(٤) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١٦)، رقم ٦٩٢٧

٤— ولا بدّ أيضاً أن يكون حليماً صبوراً على الأذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح كما قال تعالى على لسان لقمان: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [لقمان: ١٧]

***عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَٰلِكَ أَوْضَعُ الْإِيمَانَ»^(١)

قال الصنعاني: "وشرطه: أنه لا يؤدي إلى الفتنة، فإن علم أنه يؤدي إليها لم يجب، ولا يندب، بل ربما كان حراماً، بل يلزمه أنه لا يحضر المنكر، ويعتزل في بيته لئلا يراه، ولا يخرج إلا للضرورة"^(٢). ومعنى قوله: {فبقلبه}: فليكرهه بقلبه، وليس ذلك بإزالة وتغيير، بل هي كراهة له إذ ليس في وسعه التغيير إلا في هذا القدر، قَالَ -صلى الله عليه وسلم «إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكْرِهَهَا» وَقَالَ مَرَّةً «أَنْكَرَهَا». «كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا»^(٣)

وأن عدم إنكار القلب دليل على ذهاب الإيمان منه وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر"

تغيير المنكر واجب على كل قادر حسب استطاعته وهو افضل الجهاد قال سيدنا علي رضي الله عنه "افضل الجهاد الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وشنان الفاسقين _ أي بغضهم _ فمن امر بالمعروف شد ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر ارغم انف المنافق ومن شنأ الفاسقين وغضب لله غضب الله له"^(٤)

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٥٠)، رقم ١٨٦

(٢) التحبير لإيضاح معاني التيسير، (ج ١ / ص ٣٢٦)

(٣) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٢١٨)، رقم ٤٣٤٧، وقال الألباني: حسن

(٤) الفاسي، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، (ج ١ / ص ٣٩٠)

١٠. الابتلاء بالمصائب

قال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) [البقرة: ١٥٥-١٥٧]

اقتضت حكمة الله تعالى أن يبتلي خلقه بما يشاء ليظهر بذلك كرائم النفوس الخيرة والشريرة، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ابتلى الله النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، ابتلى أوليائه ومن أحب من عباده في الدنيا بضرّوب من البلاء في نفسه وأهله وماله، من غير هوان به عليهم، ولكن اختباراً منه لهم، ليلبّغهم منزلته التي أعدّها لهم تبارك وتعالى عنده، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةَ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(١)

سئل الشافعي رحمه الله أيهما أفضل للرجل، أن يُمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يُمكن حتى يبتلى، والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلما صبروا مكّنهم^(٢).

والمصائب درجات وأهون المصائب مصيبة المال لأنّه يعوّض بعد فقدانه، ثمّ مصيبة البدن كأن يصاب بمرض أو سجن وغيره، لكنّ أعظم مصيبة هي مصيبة الدين نسأل الله تعالى أن يثبّتنا على دينه الحقّ، ومصائب الدين أمّا مهلكة مثل الكفر والشرك والشك وما أشبه ذلك وأمّا منقصة للدين كالمعاصي، ولذلك كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم « وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا » أي لا تصبنا بما ينقص ديننا من اعتقاد السوء وأكل الحرام والفترة في العبادة وغيرها.

وليعلم كل مسلم ان المال فداء النفس والنفس والمال فداء الدين والدين لا يفتدى به، ومن اعظم المصائب في الدين موت النبي صلى الله عليه وسلم لأن المصيبة به اعظم من

(١) صحيح ابن حبان، (ج ٧/ ص ١٨٤)، رقم ٢٩١٠، قال الالباني: حسن صحيح

(٢) زاد المعاد، (ج ٣/ ص ١٣)

كل مصيبة يصاب بها المسلم، لأنه بموته صلى الله عليه وسلم انقطع الوحي من السماء الى يوم القيامة وانقطعت النبوات، وكان موته اول ظهور الشر والفساد بارتداد العرب عن الدين فهو اول انقطاع عرى الدين ونقصانه.

- بيتي المؤمنون بأموالهم وأنفسهم وأذى الكافرين قال تعالى: (لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَتْوَا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [آل عمران: ١٨٦]

أخبرهم تعالى بالابتلاء بالأموال والانفس وأذية الظالمين لتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه عند وقوعه فقال الله تعالى تطيبوا لقلوبهم: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالصَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة: ٢١٤]

- قد بيتي المؤمن بفقد أحبته كفقده أمه وأبيه وزوجته وولده وصديقه، عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ نَمْرَةً فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَع، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»^(١).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنْ اللَّهُ لَا يَرْضَى لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ إِذَا ذَهَبَ بِصَفِيهِ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَصَبَرَ وَأَحْتَسَبَ، وَقَالَ: مَا أَمْرُ بِهِ بِثَوَابٍ دُونَ الْجَنَّةِ»^(٢) [صَفِيَّ الرَّجُلِ: الَّذِي يَصَافِيهِ الْوُدَّ وَيُخْلِصُهُ لَهُ]

** عن أم سلمة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، تقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} اللَّهُمَّ أَجْرِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلَفَ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا آجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»

(١) سنن الترمذي، (ج ٣ / ص ٣٣٢)، رقم ١٠٢١، وقال الالباني: حسن

(٢) سنن النسائي، (ج ٤ / ص ٢٣)، رقم ١٨٧١، وقال الالباني: حسن

قَالَتْ: فَلَمَّا تُوفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)

وقد جعل الله تعالى كلمات الاسترجاع وهي قول المصاب (انا لله وانا اليه راجعون) ملجأ وملاذ لذوي المصائب وعظمة للممتحنين من الشيطان، لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالأفكار الرديئة فيهبج ما سكن ويظهر ما كمن فاذا لجأ الى هذه الكلمات الجماعات لمعاني الخير والبركة فان قوله (انا لله) توحيد وإقرار بالعبودية والملك وقوله (وانا اليه راجعون) إقرار بأن الله يهلكنا ثم يبعثنا فهو ايمان بالبعث بعد الموت وهو ايمان أيضا بأن له الحكم في الأولى وله المرجع في الأخرى فهو من اليقين ان الأمر كله لله فلا ملجأ منه الا اليه^(٢)

ولا ينبغي للعبد أن يتمنى البلاء بل هو مأمور أن يسأل الله العافية والاحتراز من المكاره وأسبابها فإن نزل البلاء تلقاه بالرضا والتسليم لقضاء الله وقدره، قال صلى الله عليه وسلم «اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية»^(٣) فالعفو: محو الذنوب، والعافية: أن يسلم من الاسقام والبلايا.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدع هؤلاء الكلمات إذا أصبح وإذا أمسى: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة. اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي. اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي. اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك من أن اغتال من تحتي»^(٤)

(١) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ٣٧)، رقم ٢١٦٦

(٢) المنبجي، تسليية اهل المصائب، ص ١١

(٣) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٥٥٧)، رقم ٣٥٥٨، وقال الالباني: حسن صحيح

(٤) الادب المفرد، ص ٢٤٣، رقم ٦٩٨ وقال الالباني: صحيح

١١. الابتلاء بالنعم

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) [لقمان: ٢٠]

الابتلاء: هو الاختبار والامتحان.

والابتلاءات أنواع لا يعلمها الا الله قال الله عز وجل (وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) [الأنبياء: ٣٥]، نختبره بالخير والشر في أيام الدنيا ونجزيه يوم القيامة، بالثواب أو العقاب. والله تعالى يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب ومن حكمته أيضا الا يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) [آل عمران: ١٧٩]، ومن انواع النعم:

أولاً — نعمة الدين: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) [يونس: ٥٨]، قال أبو سعيد الخدري فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله. وأفضل النعم إرسال الرسل رحمة بالناس، والامر بطاعتهم، والانقياد لهم، والايان بهم، واتباع الاوامر والنواهي التي جاءوا بها ووعد الله تعالى للعباد على الايمان بهم الاجر العظيم والثواب الجزيل، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ»^(١) قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الانسان: ٢] [نَبْتَلِيهِ: نَخْتَبِرُهُ بِالتَّكْلِيفِ]، وفائدة الابتلاء، (حَتَّى يَمِيزَ الْحَقِيبَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) [آل عمران: ١٧٩]، يختبرهم وهو أعلم بهم ولا يطلعهم على الغيب.

(١) الألباني، السلسلة الصحيحة، رقم ٢١٧٤

فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسول قسمين: مؤمنين وكافرين وصنف ثالث هم المنافقون، فالعباد مطيعون وعاصون ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر سبحانه وتعالى عدله وفضله، وحكمته لخلقه.

ثانياً— نعم الدنيا: والنعم هي صحة الجسم والمال والأولاد والأمن والجاه والسلطان، وذلك كله ليرى الله تعالى شكر عبده على نعمه كما قال سليمان عليه السلام (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي) أي (لِيَبْلُوَنِي) لينظر (أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) أي ليختبرني أشكر نعمته أم أكفرها (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) أي لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه، حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها. والشكر قيد النعمة الموجودة، وبه تنال النعمة المفقودة. (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) أي عن الشكر (كَرِيمٌ) في التفضل.

ويسأل العبد عن نعمة العلم والمال عن أبي بَرزَةَ الاسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْتَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ»^(١).

وجاء في السير أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يطعم مساكين المسلمين فلقيه أبو جهل فقال: "يا أبا بكر أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم. قال: فما باله لم يطعمهم؟ قال: ابتلى قوما بالفقر، وقوما بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الاغنياء بالإعطاء"^(٢).

ومن النعم نعمة الصحة والفراغ، وهاتان النعمتان لا يفطن لهما الكثير من الناس فيضيعونهما في المنكرات والملهيات عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(٣) أي إثمهم

(١) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ١٩٠)، رقم ٢٤١٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٥ / ص ٣٧)

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٨٨)، رقم ٦٤١٢

مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون لم يستثمر هاتين النعمتين في طاعة الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انظُرُوا إِلَيَّ مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَيَّ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزِدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ»^(١)

فان العبد اذا نظر في دنياه الى من هو دونه تنبه الى نعمة الله عليه فسوف يحمد الله على ما فضله به ومن نظر في دينه الى من هو فوqe تنبه الى تقصيره وشمر للاقتداء به، اما من نظر الى من هو فوqe في الدنيا فسوف يستصغر نعمته فلا يشكرها، قال بعض السلف: صاحبت الأغنياء فكنت لا أزال في حزن فصحبت الفقراء فاسترحت.

***قال تعالى: (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا

تَشْكُرُونَ) [المالك: ٢٣]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْإِنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ لَهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي»^(٢). {اليوم أنساك: اليوم أتركك في العذاب}.

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ يَكْتَبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَانْكِرْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ التَّثْبِيتَ فِي الْأُمُورِ وَعَزِيمَةَ الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا وَخُلُقًا مُسْتَقِيمًا وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعَلَّمْتُ وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعَلَّمْتُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعَلَّمْتُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»^(٣)

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٢١٣)، رقم ٧٦١٩

(٢) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٦١٩)، رقم ٢٤٢٨، وقال الالباني: صحيح

(٣) المستدرک علی الصحیحین، (ج ١ / ص ٦٨٨)، رقم ١٨٧٢ صحيح على شرط مسلم

١٢. التغيير يبدأ من النفس

قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الانفال ٥٣]

تبدل النعم وسلبها من العباد وتعذيب أهلها لا يكون الا إذا كفرت ومنع شكرها قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) [ابراهيم: ٧]، وكذلك تغيير الحال السيء لا يتم الا بتغيير العباد أنفسهم من الاسوأ إلى الاحسن قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد: ١١] فالتغيير يبدأ من النفس ثم ينتشر إلى من هم تحت ولايتك ثم إلى من حولك فيحدث الصلاح في الارض. أما إذا فسد الناس أفسدوا ولا يظهر صلاح في الارض لأن الله تعالى يقول: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٨١].

وقبل العمل اعرف نفسك، فمعرفة النفس تساعد على معرفة عيوبها وإصلاحها. والنفوس ثلاثة أنواع كما ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم:

أولاً: النفس الامارة بالسوء: قال تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)، وهي النفس التي دائماً تأمر صاحبها بسيء الاقوال والافعال.

ثانياً: النفس اللوامة: قال تعالى: (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) [القيامة: ٢]، وهي التي تلومه على الخير والشر فتجده يندم على ما فعل من المعصية، وتلومه على ما فعل من الطاعة.

ثالثاً: النفس المطمئنة: قال تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي) [الفجر: ٢٧-٣٠]. المطمئنة بالإيمان وذكر الله، الراضية بقضاء الله، الموقنة بما وعد الله، الراضية بثواب الله، القانعة بعطاء الله، الشاكرة لنعمائه، وهي التي تدخل الجنة برحمة الله راضية مرضية.

فإذا عرفت من أي النفوس نفسك فابدأ بأول خطوة من خطوات التغيير وهي:

— إخلاص النيّة لله والتوكل عليه وطلب العون منه والعزم على المسير ومحاسبة النفس بالبحث عن الخصال الحسنة وتنميتها والتفتيش عن الخصال السيّئة والتخلّص منها.

— البدء بالعلم الضروريّ الذي لا بدّ منه مثل معرفة أركان الايمان وأركان الاسلام والحلال والحرام بأدلتها الشرعية ولا يعمل عملا الا بدليل شرعيّ من القرآن او سنّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والعمل بهما.

— ثمّ يبدأ بنقل هذا العلم وتعليمه إلى أهل بيته (يا أيّها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) [التحريم: ٦]، قال ابن عباس وغيره: ”ادّبوهم وعلموهم“ ومن ذلك تعليمهم تعظيم الله تعالى في قلوبهم وأنّه وليّ نعمتهم وحقّ عليهم شكر نعمته بعبادتهم له، ورأس العبادات الصلاة فلا بدّ أن تكون العائلة كلّها تصلي ولا يقبل من أحد عذرٌ في ترك الصلاة. وعلى الأمّ ترغيب بناتها بالحجاب الشرعيّ، والعجيب أن تكون الأمّ محجبة والبنت سافرة وهذا من أسباب ضياع الدين.

— التزامه مع أهل بيته بالأذكار الشرعيّة في الصباح والمساء وعند النوم والاستيقاظ حتى يحصّن نفسه من إبليس وشُرور شياطين الانس والجنّ، وعمل ملصقات للأذكار في غرف النوم والجلوس ليسهل تذكرها وحفظها، وقراءة صفحة واحدة من القرآن على الأقلّ وتدبّر معناها ويفضّل وجود تفسير للقرآن في البيت، والعمل على إلغاء الألفاظ غير الشرعيّة في العائلة كالحلف والسبّ والاستهزاء والتنازب بالألقاب.

— إصلاح بيته وتنظيفه من المنكرات التي فيه مثل التماثيل وصور ذوات الأرواح ولا بأس بالمناظر الطبيعيّة، ومسح القنوات الفضائيّة الهابطة والابقاء على القنوات التي تعلّم القرآن والسنة والتاريخ الاسلاميّ والقنوات الصحيّة والعلميّة التي تدفع المسلم للتفكّر في خلق الله مع قناة هادفة للأطفال حتى يزداد علما في كلّ يوم واستغلال وقته أحسن استغلال في الطاعات ولا يضيعه في المنكرات والملهيات.

— التعامل مع الجيران والأرحام والناس جميعا بالأخلاق الاسلامية والمعاملات

الشرعية ليكون ذلك دافعا لغيره للاقتداء به والعمل، ثم دعوة الناس لدين الله حسب استطاعته.

— التفكير بنصرة الإسلام: من المؤسف ان يعيش الانسان في هذه الدنيا بدون هدف فلا يجد للحياة طعما فالانسان بدون هدف كسفينة تائهة وسط البحر لا تعرف اين تتجه واستسلم ركابها لاقدارهم، أهل الدنيا واهل الباطل وأهل الفساد لهم أهداف ويفكرون ويخططون لتنفيذها، وكثير من أهل الحق بلا هدف ينتظرون النصر بدون الأخذ بالاسباب، عبّاد فقط، والعبّاد يهلكون كما يهلك الناس عند نزول العقوبات ولا ينجوا الا من يصلح قال تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ) [هود: ١١٧]، على المسلمين عموما والدعاة الى الله خصوصا التفكير بنصرة الإسلام وتحديد الأهداف والاخذ بالاسباب الشرعية للوصول اليها، وليعلم الجميع ان الاعمال العظيمة تبدأ بفكرة.

*** عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « كَلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

فكلّ الناس مسؤولون عن رعاياهم فكلّ من له ولاية على أحد سئل عمّا ولاه الله تعالى الامراء، والوزراء، والعلماء، والآباء، والأمّهات، والخدم. عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرَ عَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحْطِهَا بِنَصِيحَةٍ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ »^(٢).

اللهم صلّ على محمد وآل محمد اللهم اجعلنا هداة مهتدين صالحين مصلحين.

(١) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ١٢٠)، رقم ٢٤٠٩

(٢) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ٦٤)، رقم ٧١٥٠

١٣. التوبة

قال تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [النور ٣١]

من أسماء الله الحسنى التي سُمِّيَ بها نفسه سبحانه وتعالى (التَّوَابُ)، والتَّوَابُ في اللغة من صيغ المبالغة لكثرة قبوله توبة العباد حالاً بعد حال. وقد ورد في القرآن في إحدى عشرة آية، وفي تسعة مواضع مقترنا بالرحمة كقوله (التَّوَابُ الرَّحِيمُ) وسر الاقتران بين هذين الاسمين الكريمين واضح، ذلك أن من آثار وثمار رحمة الله تعالى توفيقه لعباده إلى التوبة ثم قبولها منهم .

ولقد أمر الله تعالى عباده بالتوبة ورغَّبهم بها ووعدهم بقبولها فقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) [الشورى: ٢٥]، وأحبَّ أهلها قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة: ٢٢٢]، وهو تعالى يفرح بتوبة عبده قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ »^(١)، ومن رحمته سبحانه وتعالى بعباده أنه فتح باب التوبة ليلا ونهارا إلى أن تطلع الشمس من مغربها، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسْطُرُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »^(٢). أتى رَجُلٌ ابْنَ مَسْعُودٍ، وَقَدْ أَلَمَّ بِذَنْبٍ، فَسَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَلَحَظَهُ عَبْدُ اللَّهِ - أَوْ التَّمَّتَتْ إِلَيْهِ - فإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ، وَقَالَ: " هَذَا أَوْ أَنَّ هَمَّكَ مَا جِئْتَ لَهُ، إِنَّ لِلْجَنَّةِ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ، كُلُّهَا تُفْتَحُ وَتُعْلَقُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا بَابَ التَّوْبَةِ، فَإِنَّ بِهِ مَلَكًا مُوَكَّلًا فاعْمَلْ، وَلَا تَيْسَسْ " ^(٣) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ »^(٤)

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٦٨)، رقم ٦٣٠٩

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٩٩)، رقم ٧١٦٥

(٣) ابن المبارك، الزهد والرقائق، (١ / ٣٦٨)، رقم ١٠٤٢

(٤) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٥٤٧)، رقم ٣٥٣٧ وقال الالباني: حسن

وسيد الخلق سيدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يستغفر ربه ويتوب إليه في كل يوم بل في كل مجلس، عن أبي هريرة سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً »^(١)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا نعدُّ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد مئة مرة: « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »^(٢)

فكم مرة يجب ان نتوب الى الله نحن العاصين الغارقين في الذنوب؟

أول خطوة في التوبة هي المحاسبة قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [الحشر: ١٨]

فلا تصحَّ التوبة مع الجهل بالذنوب، فأمر سبحانه وتعالى عبده أن ينظر ما قدم لغد وذلك يتضمن محاسبة نفسه والنظر أيا صلح ما قدمه أن يلقي الله به يوم القيامة أم لا يصلح؟ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) [الحاقة: ١٨]". والتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله والانابة إليه، وليست التوبة من فعل السيئات فقط وتشمل:

- التوبة من الاعتقادات الفاسدة - التوبة من النيات والارادات الفاسدة - التوبة من التقصير في الاوامر الشرعية - التوبة من الذنوب وانتهاك حرمان الله .

فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي والاقلاع عنه في الحال والعزم على الايعاوده في المستقبل. والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم. ويضاف إلى هذه الشروط شرط رابع هو إعادة حقوق الاخرين أو استحلالهم منها عند تعلق الذنب بحقوق العباد.

فإذا عرف العبد ذنوبه واستعظم جرمه وإن كان صغيرا فهو لا ينظر إلى صغر المعصية

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٦٧)، رقم ٦٣٠٧

(٢) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٢٥٣)، رقم ٣٨١٤، قال الالباني: صحيح

ولكن ينظر إلى عظمة من يعصيه وعلمه بكل أقواله وأحواله، ومنته عليه بحلمه فلم يعاجله بالعقوبة، وستره له فلم يبادره بالفضيحة أسرع العبد إلى التوبة والعودة إلى عبوديته لخالقه ورازقه والتزام طاعته بعد أن خرج منها بارتكاب المعصية.

*** عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لَا. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أَنَا سَاءَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضٌ سَوْءٌ. فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ. وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَفَبَضَّتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ » (١).

وقد يقول قائل كيف يغفر له وأنه ارتكب ذنباً يتعلق بحقوق العباد فكيف يغفر له بدون أن يعفو عنه صاحب الحق وهو مقتول لا يمكن إرضاءه، قال العلماء: بأن الله تعالى إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه.

«اللَّهُمَّ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُلُوبِنَا وَأُزُوجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ مُثْنِينَ بِهَا قَابِلِيهَا وَأُمَّهَا عَلَيْنَا» (٢)

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٠٣)، رقم ٧١٨٤

(٢) المستدرک علی الصحیحین، (ج ١ / ص ٣٩٧)، رقم ٩٧٧، صحیح علی شرط مسلم

١٤. الاستغفار

قال تعالى: (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) [هود: ٣]

الاستغفار: طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره، وكل شر في الدنيا والآخرة سببه الذنوب والمعاصي. وأمر الله تعالى بالاستغفار ورغب به ووعد عباده بالمغفرة، والاستغفار من أجل القربات، وأنفع الطاعات، وأعظم موانع إنفاذ الوعيد، (وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم وما كان الله لمعذبهم وهم يستغفرون) [الأنفال: ٣٣]، ولم يقنط سبحانه وتعالى أحدا من مغفرته مهما عظمت ذنوبه، فقال تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر: ٥٣].

ومن أسماء الله الحسنى الغفور: سبحانه هو من يغفر الذنوب العظام. والغفار: هو من يغفر الذنوب الكثيرة، غفور للكيف في الذنب، وغفار للكم فيه. وقرن بين اسم الغفور والودود، والغفور الرحيم، والعزير والغفار، وتأمل سر اقتران هذه الاسماء مع بعضها في كثير من الآيات. فاقتران اسم الغفور باسم الودود في قوله تعالى: (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) [البروج: ١٤]، واقتران الغفار بالعزير في قوله تعالى: (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) [ص: ٦٦]، تجده من كنوز القرآن ولطائفه، فعادة الملوك المتجبرين الظلم وعدم العفو وإن عفوا عمّن أخطأ بحقهم فهم لا يحبونه، وهو سبحانه مع عزته وجبروته وكبريائه فهو الغفور الرحيم الودود يغفر لمن تاب إليه ويودّه ويحبّه ويرحمه فهو سبحانه المتودّد إلى عباده بنعمه قال تعالى: (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) [هود: ٩٠]

الاستغفار من صفات خواص خلق الله قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا

أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ) [آل عمران: ١٣٥]، وما من نبي الا استغفر ربه وأمر قومه بالاستغفار، عن أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ »^(١).

وينقسم الاستغفار إلى قسمين:

أولاً: استغفار من الذنوب: فالعبد محتاج الى الوقاية من شرها عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اِعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»^(٢).

عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ وَصَدَّقَ أَبُو بَكْرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: « مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ الْاِغْفَرَ اللَّهُ لَهُ »، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ) [آل عمران: ١٣٥]^(٣)

ثانياً: استغفار بعد الاعمال الصالحة، فيختم به بعد الصلاة، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٩٤)، رقم ٧١٤١

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٩٩)، رقم ٧١٦٢

(٣) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٥٦١)، رقم ١٥٢٣، وقال الالباني: صحيح

السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْاِكْرَامِ»^(١). وقيام الليل، قال تعالى: (كانوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَيَبْأُلسِحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الذاريات: ١٧-١٨]، صلوا القيام ثم جلسوا يستغفرون. ويختم به الحج قال تعالى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [البقرة: ١٩٩]، وتختتم به المجالس «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، فهي خاتمة للذكر في المجلس وكفارة للغو فيه. فهذه حال العبد مع ربه في جميع أحواله فهو محتاج إلى مغفرة ربه ورحمته. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»^(٢).

*** قال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

[النساء: ١١٠]

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَيِّدُ اسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. قَالَ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣). وهذا أفضل الاستغفار فهو مقترن بالتوحيد وبالعبودية لله وتجديد العهد له على الطاعة والثناء على ربه بالاعتراف بنعمته، ثم يُثني بالإقرار بذنبه، ثم يسأل الله المغفرة ولذلك سماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيِّدُ اسْتِغْفَارِ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَظَلَمْنَا وَهَزَلْنَا وَجِدْنَا وَعَمَدْنَا، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدَنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الْعِبَادِ، وَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ.

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٩٤)، رقم ١٣٦٢

(٢) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٢٥٤)، رقم ٣٨١٨، وقال الالباني: صحيح

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٦٧)، رقم ٦٣٠٦

١٥. الدعاء

قال تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) [البقرة: ١٨٦]

لقد أمر الله تعالى بالدعاء ودعا عباده لسؤاله والطلب منه وقال عز وجل: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر: ٦٠]، ووعدهم بالاجابة للداعي ما لم يدع يائس أو قطيعة رحم.

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع يائس أو قطيعة رحم ما لم يستعجل»، قيل يا رسول الله ما الاستعجال قال: «يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»^(١)

والدعاء عبادة لله تعالى لا يشاركه فيها أحد. فعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ (ادعوني أستجب لكم)^(٢)

ونهى الله عز وجل أن يدعى أي مخلوق من دونه، فقال تعالى: (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) [الشعراء: ٢١٣] لأن ذلك شرك في العبادة قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) [فاطر: ١٣-١٤]

وقال تعالى: (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن كُنْتَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ. وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [يونس: ١٠٦-١٠٧] لأن المخلوق لا يملك أن يدفع عن نفسه ضرًا ولا يجلب لها نفعًا، فكيف ينفع غيره أو يضره، قال تعالى: (وَاحْتَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) [الفرقان: ٣]

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٨٧)، رقم ٧١١٢

(٢) الادب المفرد، ص ٢٤٩، رقم ٧١٤، وقال الالباني: صحيح

وأخبر الله تعالى أن كل من يدعى من دون الله تعالى هو عبد له، والعبيد كلهم محتاجون إلى الله عز وجل ولا يصح أن يكونوا آلهة من دون الله فقال سبحانه وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ) [الأعراف: ١٩٤]

إذن كيف ندعو؟: قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) [الجن: ٢٠]، أفضل الادعية هي التي وردت في الكتاب والسنة لأن فيها جوامع الكلم وتحمل الخير كله وتدفع الشر كله والتي دعا بها الانبياء وخاتمهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم الادعية التي تدور حول معاني أدعية الكتاب والسنة مما دعا به الصحابة والتابعون والصالحون.

فخير الدعاء ما ذكر في كتاب الله مثل قوله تعالى: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) [ال عمران: ٨]. وقوله تعالى: (رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) [المؤمنون: ١٠٩]. وقوله تعالى: (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الممتحنة: ٥].

وخير الدعاء ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته والامة بعدهم كيف يدعون الله، وأمرهم بالثناء على الله عز وجل بما هو أهله، والصلاة على النبي قبل الدعاء، فعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ، لَمْ يَمَجِّدِ اللَّهَ تَعَالَى، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَلْ هَذَا ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِيغَيْرِهِ: إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ يَدْعُو بَعْدَ بِمَا شَاءَ»^(١).

(١) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٥٥١)، رقم ١٤٨٣، وقال الالباني: صحيح

*** قال تعالى: (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[غافر: ٦٥]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(١)

ومن رحمة الله بعبده ان العبد يدعوه بحاجة من الدنيا فيصرفها عنه ويعوضه خيرا

منها، اما ان يصرف عنه بذلك سوء، او ان يدخرها له في الآخرة او يغفر له بها ذنبا.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو، لَيْسَ بِإِثْمٍ وَلَا بِقَطِيعَةٍ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»، قَالَ: إِذَا نُكِّرْتُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(٢)

الدعاء عبادة تظهر فيها ففرك الى الله، عن أبي هريرة فتعبد لله بالدعاء، واجعل من

الدعاء لوالديك برا لهما، واجعل من الدعاء لأرحامك صلة، ولجيرانك احسانا، ولمن

علمك وكان سببا في هدايتك جزاء، واجعل من الدعاء لاخوانك برهانا على حبك لهم

فأحب لأخيك ما تحب لنفسك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كَان يَقُولُ «دَعْوَةُ

الْمُرءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْعَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ عِنْدَ رَأْسِهِ مَلِكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ

الْمَلِكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِ»^(٣)

قال تعالى معلما لنا من دعاء نوح: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) [نوح: ٢٨]

(١) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٥٣)، رقم ١١٤٥

(٢) الادب المفرد، ص ٢٤٨، رقم ٧١٠ وقال: الالباني صحيح

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٨٦)، رقم ٧١٠٥

١٦. وسائل استجابة الدعاء

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [المائدة: ٣٥]

لقد اعتاد الناس أن يتوسلوا إلى الله تعالى بوسائل لاستجابة دعائهم منها ما هو مشروع ومنها غير مشروع، فتوسل المشركون بأهتهم وجعلوها وسائط بينهم وبين الله، وتوسل اليهود والنصارى بأنبيائهم وصالحهم بعد أن حرّفوا دينهم، ومنهم من توسل بالأصنام والاحجار والاشجار والكواكب والقبور. وجاء الاسلام فألغى كل الوسائل غير المشروعة وأثبت ما يقرب إلى الله تعالى من الوسائل الشرعية قال تعالى: (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) [الاسراء: ٥٦-٥٧] وقال تعالى: (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران: ٨٠]

قالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون الملائكة والانبيا كالمسيح وعزير وغيرهما، فنهى الله عن ذلك، وأخبر تعالى أن هؤلاء يرجون رحمة الله ويخافون عذابه ويتقربون إليه، وأثم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله عنهم.

” فيجماع الوسيلة التي أمر الله تعالى الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول، لا وسيلة لأحد إلى ذلك الا ذلك. فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب“^(١). ومن الوسائل التي جاءت في القرآن وعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه:

أولاً — التوسل إلى الله تعالى بتوحيده وأسمائه وصفاته: قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) [الأعراف: ١٨]. فمن عرف الله

(١) ابن تيمية، قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة (ج ١ / ص ٨٢)

بأسماؤه وصفاته وأفعاله ودعا بها كان دعاؤه مستجابا. قيل لجعفر الصادق: مالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه. فمعرفة الله تعالى تجعل دعائك مستجابا. والدليل حديث عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. الْإِحْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. فَقَالَ: « قَدْ سَأَلَ اللهُ بِاسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ »^(١)

فهذا توّسل إلى الله بتوحيده وشهادة الداعي له بالوحدانية وثبوت صفاته المدلول عليها باسم (الصَّمَد) والصمد هو الكريم المقصود في الحوائج وهو كما قال ابن عباس: «العالم الذي كمل علمه القادر الذي كملت قدرته» وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله»

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَبِي عِيَّاشٍ زَيْدِ بْنِ صَامِتِ الزُّرَقِيِّ وَهُوَ يُصَلِّي، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، يَا مَنَّانُ، يَا بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ دَعَا اللهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ»^(٢).

ثانياً— التوسّل بتوحيده وعبودية العبد له:

وهي الاعتراف بعبوديتك لله قبل الدعاء وشهادتك له بالوحدانية والاعتراف بالذنب وطلب المغفرة، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في أدعية الاستفتاح بالصلاة. عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي اللهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا مِنَ

(١) سنن ابي داود، (ج ١/ ص ٥٥٤)، رقم ١٤٩٥، وقال الالباني: صحيح

(٢) المسند، (ج ٣/ ص ٢٦٥)، رقم ١٣٨٢٤، قال شعيب الأرنؤوط: حسن صحيح

المُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْحَمْدُ كُلُّهَا فِي يَدَيْكَ، وَالشُّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»^(١)

قال ابن القيم: "وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة امامها فإن المصلي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الراغب الراهب يستعطي من ربه ما لا غنى به عنه فشرع له امام استعطائه كلمات التحيات مقدمة بين يدي سؤاله ثم يتبعها بالصلاة على من نالت امته هذه النعمة على يده وسعادته فكأن المصلي توسل إلى الله سبحانه بعبوديته ثم بالثناء عليه والشهادة له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة ثم الصلاة على رسوله ثم قيل له تخير من الدعاء أحبه إليك فذاك الحق الذي عليك وهذا الحق الذي لك ... ثم شرع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته والدعاء في هذا المحل قبل السلام أفضل من الدعاء بعد السلام وأنفع للداعي، وهكذا كانت عامة أدعية النبي صلى الله عليه وسلم كلها كانت في الصلاة من أولها إلى آخرها"^(٢)

**** ثالثاً- التوسل إلى الله بالإيمان والاعمال الصالحة:** قال تعالى: (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) [آل عمران ١٩٣]. (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [آل عمران ٥٣].

هذه وسيلة أخرى ذكرها الله تعالى في كتابه وعلمها النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه حتى يستجيب الله تعالى دعاءهم. كما ورد في حديث الرهط الذين دخلوا الغار الذي

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٥٣٤)، رقم ٧٧١

(٢) الصلاة وحكم تاركها، ص ٢١٥

يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خَرَجَ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ يَمْشُونَ فَأَصَابَهُمُ الْمَطَرُ فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ فَاِنْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ قَالَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ فَقَالَ أَحَدُهُمُ اللَّهُمَّ إِنِّي كَان لِي أَبُوَان شَيْخَانِ كَبِيرَانِ فَكُنْتُ أُخْرِجُ فَأَرْعَى ثُمَّ أَجِيءُ فَأَحْلُبُ فَأَجِيءُ بِالْحِلَابِ فَآتِي بِهِ أَبُوَيَّ فَيَشْرَبَانِ ثُمَّ أَسْقِي الصَّبِيَّةَ وَأَهْلِي وَامْرَأَتِي فَاحْتَبَسْتُ لَيْلَةً فَجِئْتُ فَإِذَا هُمَا نَائِمَانِ قَالَ فَكَرِهْتُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ عِنْدَ رَجُلِي فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَائِي وَدَائِبُهُمَا حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ قَالَ فَفُرِّجْ عَنْهُمْ وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَحِبُّ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّي كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ فَقَالَ لَا تَنَالُ ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِائَةَ دِينَارٍ فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْضُ الْحَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَمَمْتُ وَتَرَكْتُهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً قَالَ فَفُرِّجْ عَنْهُمْ الثُّلثِينَ وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَحِيرًا بِفَرَقٍ مِنْ ذُرَّةٍ فَأَعْطَيْتُهُ وَأَبَى ذَاكَ أَنْ يَأْخُذَ فَعَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقْرًا وَرَاعِيَهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ اعْطِنِي حَقِّي فَقُلْتُ انْطَلِقْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ وَرَاعِيهَا فَإِنَّمَا لَكَ فَقَالَ أَتَسْتَهْزِئُ بِي قَالَ فَقُلْتُ مَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ وَلَكِنَّهَا لَكَ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا فَكُشِفَ عَنْهُمْ»^(١)

هؤلاء تعرّفوا إلى الله في الرخاء بأعمال صالحة وهي برّ الوالدين والعفة من الزنا وإعطاء حقّ الاجير ففرّج الله تعالى عنهم في الشدّة كما ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي فيه: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة»^(٢).

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم ان كنت تعلم منا انا عملنا عملا نبتغي به وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من الكرب والشدائد يا أرحم الراحمين.

(١) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ٧٩)، رقم ٢٢١٥.

(٢) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ١ / ص ٥٦٩)، رقم ٢٩٦١.

١٧. ما هو أفضل ما يدعو به العبد؟

قال تعالى: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [النور: ٤٦] اختلّف الناس في الدعاء فمنهم من يدعو الله تعالى بالخير كصلاح أهله وذريته ودفع الشر عن نفسه وأمواله ومنهم من يسأله الجنة ويعوذ به من النار، ومنهم من يدعو بالشر أي هلاك نفسه وولده أو طلب شهواته ورغباته غير المشروعة (وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجْوًا) [الإسراء: ١١]، ومن دعاء الانسان بالشر قول النضر بن الحارث في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالُوا: اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأنفال: ٣٢].

ولو عجل الله للناس الاجابة بالشر كما يعجل لهم الاجابة بالخير لهلكوا قال تعالى: (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [يونس: ١١]

فما هو أفضل دعاء يدعو به المسلم؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيتها في الفاتحة في {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥]"^(١)، وهو الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(٢)

وقال تلميذه ابن القيم: «لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نياله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفاً وبيانا وإرشادا وإلهاما وتوفيقا وإعانة فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريداً له قاصداً لاتباعه

(١) مدارج السالكين، (ج ١/ ص ١٠٠)

(٢) سنن أبي داود، (ج ١/ ص ٥٦١)، رقم ١٥٢٤، وقال الالباني: صحيح

فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال»^(١)

فأفضل دعاء يدعو به العبد هو طلب العون على مرضاته بمعرفة الطريق الموصلة اليه وهو ما أرسل من أجله الانبياء والرسل، وهو الدعاء الذي أمر الله تعالى عباده أن يسألوه كل يوم في صلاتهم سبع عشرة مرّة في الصلوات المفروضة من غير السنن. فمن هدي إلى الصراط المستقيم في الدنيا، وأعانه الله تعالى على السير فيه فتحت بوجهه أبواب الخير كلّها وأوصدت عنه أبواب الشرّ كلّها وثبت على الصراط المستقيم في الآخرة فهذا الصراط متّصل بذاك الصراط من هدي إليه في الدنيا وعمل به ثبت عليه في الآخرة وعبره إلى الجنّة. -وفي الفاتحة يتوسّل العبد بأفضل وسيلتين لاستجابة الدعاء وهما أسماء الله الحسنى وهما الله والربّ والرحمن والرحيم ثمّ يتوسّل لله تعالى بعبوديته له ويطلب العون على مرضاته فيقول: (إياك نعبد وإياك نستعين)، ثمّ يدعو بما يحقق ذلك وهو معرفة الطريق الموصلة اليه وهو سؤال هداية التوفيق إلى الصراط المستقيم، المتضمن للتعريف بالأميرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها. والناس ثلاثة أقسام لا يخرج واحد ممّن تراه من الناس عن هذه الثلاثة وهم:

المنعم عليهم: هم الذين عرفوا الحقّ وعملوا به وهم الرسل وأتباع الرسل الذين قال الله تعالى فيهم: (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) [النساء ٦٩].

والمغضوب عليهم: وهم الذين عرفوا الحقّ وعملوا بغيره وهؤلاء أكثر الناس شبيها باليهود الذين عرفوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما يعرفون أبناءهم ولم يتبعوه.

والضالون: وهم الذين لم يعرفوا الحقّ ولم يبحثوا عنه ورضوا بما عندهم من الجهل

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد، (ج ٢ / ص ٣٢)

وعبدوا الله بعبادات ما أنزل الله بها من سلطان وهم أكثر شبهها بالنصارى.
 والفاخرة هي سورة الحمد وهي أم الكتاب وأم القرآن والسبع المثاني، ومن عظيم فضلها
 أن الصلاة خداج إذا لم تقرأ فيها، ومن عظيم فضل الله قسمها بينه وبين عبده نصفين.
 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا
 بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ » ثَلَاثًا غَيْرَ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ:
 « أَقْرَأَ بِهَا فِي نَفْسِكَ »؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَجْدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
 أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، قَالَ: مَجْدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَضَّ
 إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي
 مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(١)

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريدا لسلوك
 طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزّة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد وعلى الانس
 بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق وهم الانبياء والصديقون والشهداء
 والصالحون، فلا تستوحش من قلة السالكين ولا تغترّ بكثرة الهالكين، فأنس بالله وسر
 واعلم أن الذي ينتظرك على رأس الصراط الانبياء ومحمد وصحبه وآل بيته.

*** قال تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ) [القصص: ٥٦]

من تأمل أدعية الرسول صلى الله عليه وسلم يجد الكثير منها يدور على طلب الهداية

من الله تعالى والعون على مرضاته قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ كَلِمَاتٍ أَفْوَهُنَّ فِي الْوَتْرِ فِي الْقُنُوتِ «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ وَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ مَنْ وَالَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ»

قال ابن القيم: والقصد: أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم. وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت^(١) «اللهم اهديني فيمن هديت» أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقا لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيبا من هذه النعمة، واجعلني واحدا من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق علي في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إلي في جملة من شملته بإحسانك^(٢)

وفي حديث عبد الله بن مسعود أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالعَفَافَ وَالعِغْنَى»^(٣).

سعادة الدنيا والآخرة بالهدى: وهو العلم النافع، والتقوى: وهو العمل الصالح وترك الحرام والعفاف عن الخلق والاستغناء عنهم والغنى بالله والقناعة برزقه، اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك واغننا بفضلك عن سواك.

(١) المسند، (ج ١ / ص ١٩٩)، رقم ١٧١٨، قال شعيب الأرنؤوط: اسناده صحيح ورجاله ثقات

(٢) مدارج السالكين، (ج ١ / ص ٤٦)

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٨١)، رقم ٧٠٧٩

١٨ . كيف نهتدي إلى الحق

قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) [يونس: ١٠٩]

في هذا الوقت الذي كثرت فيه الفتن وتعددت فيه الفرق والاحزاب والجماعات وظهر فيه الشر وأهله، وكلّ منهم يدّعي أنه على الحق وأصبح الدين كأنه سلعة تباع وتشترى بعرض من عروض الدنيا.

وأخبر فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم كما جاء في الحديث الذي يرويه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بَعْرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(١)

زمن كثر فيه الاتباع والمتبوعون وعادى بعضهم بعضا وأصبح الولاء للحزب أو للجماعة أو للعشيرة أو للقومية وليس للإسلام والمسلمين، أما البراء من الكفار فهو تبع للمصالح والمنافع الشخصية. كل ذلك بسبب أناس من أبناء جلدتنا ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا دعاة إلى جهنم كما جاء في حديث حذيفة بن اليمان الذي يقول فيه: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ خَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ قَالَ نَعَمْ وَفِيهِ دَخْنٌ قُلْتُ وَمَا دَخْنُهُ قَالَ قَوْمٌ يَهْدُونَ بِعَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا قَالَ هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا قُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ قَالَ تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ قُلْتُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ قَالَ فَاعْتَرِزْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَلَوْ

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٧٦)، رقم ٣٢٨

أَنْ تَعْصَ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١)

في مثل هذه الحال التي كثرت فيها السبل، والتبس فيها الحق بالباطل لا بد من معرفة طريق الهداية الذي ينجي الانسان من الضلال، والهداية هدايتان:

أولاً: هداية الارشاد والدعوة والبيان: وهذه هي مهمّة الانبياء والرسل قال تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي بيّنا لهم الطريق. ومنه قوله تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)، أي الخير والشرّ، وقال تعالى عن سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، أي دين الاسلام، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عندما يخاطب يقول «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ»^(٢). ويقوم بها أيضا أتباع الانبياء والرسل الذي يهدون بهديهم ويستنون بسنتهم، (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [يوسف ١٠٨]. وقد أمر الله تعالى بالافتداء بهم فقال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَبُهَادِهِمْ اِقْتَدِهْ) [الأنعام: ٩٠].

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنِّي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٣).

ثانيا: هداية التوفيق: وهي هداية القلوب بالايان، فهذه لا يملكها أحد الا الله سبحانه وتعالى. قال الله عزّ وجلّ: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [القصص: ٥٦]، وقد جمع الله بين الهدايتين في قوله تعالى: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [يونس: ٢٥]، يدعو الناس ببيان الصراط المستقيم عن طريق الانبياء والرسل، وهو سبحانه يهدي هداية التوفيق، فالبيان للانبياء والرسل والهداية لله وحده.

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٩٩)، رقم ٣٦٠٦

(٢) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ١١)، رقم ٢٠٤٢

(٣) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٧٠)، رقم ٣٤٦١

*** قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا مَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) [الشورى: ٥٢-٥٣]

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرَخَّاءٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجُهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»^(١)

ذكر ابن جرير الطبري: أن رجلا قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه، وطرّفه في الجنة، وعن يمينه جوادٌ، وعن يساره جوادٌ، وثمّ رجال يدعون من مرّ بهم. فمّن أخذ في تلك الجوادّ انتهت به إلى النار، ومّن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)^(٢) وعن عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالسُّدَادَ»^(٣)

الهدى: العلم النافع، والسداد: الصواب في القول والعمل باتباع السنة، يشبه سداد السهم نحو الهدف. اللهم اهدنا ويسر الهدى لنا وسدد خطانا واصلح اعمالنا.

(١) مسند احمد، (ج٤/ ص ١٨٢)، رقم ١٧٦٧١، وقال شعيب ارناؤوط: حديث صحيح

(٢) جامع البيان، (ج١٢ / ص ٢٣٠)

(٣) صحيح مسلم، (ج٨ / ص ٨٣)، رقم ٧٠٨٧

١٩. أسباب الهداية

قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) [الاسراء: ٩]

الهداية أمر ربّاني لا يحصل الا بتوفيق من الله تعالى. ولا بد لمن أراد الهداية من مقدمات تبدأ من جهته حتى يوفق من الله تعالى لسلوك طريق الحقّ واجتناب سبل الباطل ومن أسباب الهداية المتعلقة بالعباد:

أولاً: الانابة إلى الله تعالى والرجوع إليه: بما ان هداية التوفيق هبة من الله تعالى فلا بدّ من الرجوع إليه وطلب توفيقه للهداية لأنّ قلوب العباد بين إصبعين من أصابعه يقلبها حيث شاء، قال تعالى: (قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ) [الرعد: ٢٧]. وقال تعالى: (اللَّهُ يُجْتَبَىٰ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) [الشورى: ١٣]

فقد بين سبحانه في هاتين الآيتين أنّه يهدي من اتّصف بالإنابة، وهي صفة يوصف بها من أقبل على الحقّ ورجع عن الباطل. حيث اقتضت حكمته تعالى أن يهدي من طلب الهداية وسعى لها، جاء في الحديث القدسيّ: « يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ »^(١). أي اطلبوا الهداية منّي أهدكم. على عكس من سار في طريق الباطل ولم يفكر في معرفة الحقّ وطلبه فإنّه يبقى في طريق الضلال لأنّه لم يلجأ إلى الله ويطلب التوفيق منه.

ثانياً: الهداية لا تكون الا بالوحي الكتاب والسنة بفهم الجيل الاول:

قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٦)، رقم ٦٧٣٧

[المائة: ١٥-١٦]، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ مُتَّكِنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ مَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ »^(١)

لقد حدد الله تعالى الهداية بالكتاب والسنة، وكل الطرق مسدودة الا من جهتها، والايان لا يصح الا كما آمن جيل الصحابة قال تعالى: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة: ١٣٧] فالقرآن يبين سبيل المهتدين لاتباعها وسبل المجرمين لاجتنابها، والنبى صلى الله عليه وسلم يدعو لسلوك طريق الايمان واجتناب طرق الضلال، والصحابة هم من فهموا قول النبي صلى الله عليه وسلم وعملوا به على عينه وأقرهم أو صحح لهم. فإذا ركن العبد إلى الكتاب والسنة واستقى منها العقائد والشرائع وأصبح قوله وعمله تبعاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم زين الله قلبه بنور الايمان وأبعده عن سبل الضلال.

ثالثاً: لا يقدم ما يقوله العقل على الكتاب والسنة

لا بد لكل مسلم التسليم لما جاء به الوحي {القرآن والسنة} وعدم الخوض في الامور الغيبية التي لا مجال للعقل فيها، فلم يبلغ دور العقل ولم يحكمه في جميع أموره كما فعل أهل الضلال. وإنما توزن الامور بموازين الشرع فما جاء به فهو حق وصدق ولا يمكن للعقل أن يخالف الصحيح المنقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ) [الأنعام: ١١٩].

يقول الامام الغزالي: "فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشاراته فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم الا به والسلام"^(٢). فمن أراد الهداية يجب عليه الا يعارض الوحي بالعقل أو

(١) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٣٢٩)، رقم ٤٦٠٧، وقال الالباني: صحيح

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، (ج ١ / ص ٦٣)

الرأي ففي كل مسألة يقول رأيي كذا أو هذه المسألة بعقلي كذا، هذا كله يسد عليه باب التوفيق للهداية.

رابعا: قبول الحق بغض النظر عن قائله: فالحق مقبول لذاته من أي ملة كان والباطل مردود لذاته وإن كان من أهل ملتك والدليل: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال وكلمني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يخبث من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث فقال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي صلى الله عليه وسلم «صدقك وهو كذوب ذاك شيطان»^(١) فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق منه بالرغم من كذبه في أمور أخرى، فالحق يقبل من المسلم وغير المسلم سواء كان إنسيا أم جنيا. وصعب على النفس قبول الحق من كل شخص، أو الرجوع عن الخطأ الا من وفقه الله لذلك، قال بعض الصحابة: اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغیضا، ورد الباطل على من قاله وإن كان حبيبا.

الخامس: الحق لا يعرف بالرجال ولكن يعرف الرجال بالحق: التعصب للرجال يعمي عن معرفة الحق، فمن الناس من يقلد شيئا أو عالما ويأخذ كل كلامه على أنه حق. والحق ما وافق الكتاب والسنة من غير التفات إلى الشيخ أو المذهب أو الكثرة. قال علي رضي الله عنه "إن الحق لا يعرف بالرجال اعرف الحق تعرف أهله". فلا نقول هذا حق لأن فلانا قاله وإنما نقول فلان على الحق الموافق للكتاب والسنة. وكل واحد يعرض كلامه على الكتاب والسنة فما وافقها فهو مقبول وما خالفها فهو مردود.

وقال مالك رحمه الله: "كُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُرَدُّ إِلَّا صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"^(٢).

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٢٣)، رقم ٣٢٧٥

(٢) السخاوي، المقاصد الحسنة ص: ٥١٣

*** قال تعالى: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ) [آل عمران: ٨]

- عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي الله - صلى الله عليه وسلم - يفتتح صلاته إذا قام من الليل قالت كان إذا قام من الليل افتتح صلاته «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

وهذا توسل إلى الله عز وجل بربوبيته لجبريل وميكائيل وإسرافيل، وهم من أشرف الملائكة، وقيل: إنه ذكر هؤلاء الثلاثة وتوسل إلى الله عز وجل بربوبيته لهم لأن جبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأبدان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به الحياة بعد الموت والبعث بعد الموت، ثم بعد ذكر ربوبيته لجبريل وميكائيل وإسرافيل أتى على الله عز وجل بما هو أهله فقال: [فاطر السموات والأرض] . يعني: فاطرهما وموجدهما. وقوله: [عالم الغيب والشهادة] يعني: يعلم ما غاب وما خفي، ما كان علانية وما كان سراً وخفياً، كما قال تعالى: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ [غافر: ١٩] يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [طه: ٧]. قوله: [أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون] . يعني: أنت المرجع في الحكم، لا حكم إلا حكمك. والله عز وجل والله عز وجل يقول: وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ [الشورى: ١٠]، ويقول عز وجل: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء: ٥٩]. ثم بعد ذلك وصل إلى الغاية وهي السؤال؛ لأن هذا كله تمهيد وكله توطئة وكله تقديم بين يدي السؤال.

٢٠. سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة

قال تعالى: (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [سورة العصر]

النجاة مطلب كل الناس، لكن القليل منهم من هداه الله ليسلك طريقها ويسعى لها سعيها، والكثير منهم من تكاسل عن السير وركن إلى الدنيا وشواغلها عن النجاة.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

قال ابن القيم: ” كمال الانسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق وبتكميله لغيره في هذين الامرين كما قال تعالى: (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [سورة العصر]

قال الامام الشافعي رحمه الله تعالى فيها: ” لو ما أنزل الله حجة على خلقه الا هذه

السورة لكفتهم“^(١).

في سورة العصر بين سبحانه وتعالى أن كل إنسان خاسر، واستثنى من الخسارة من كان فيه أربع صفات، اثنان في نفس العبد واثنان بينه وبين الناس:

الصفة الاولى: الإيمان: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وما يتبع ذلك من معرفة الله، ومعرفة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومعرفة دين الاسلام بأدلته الشرعية. وهذا الذي يسأل عنه الانسان في قبره، وهذا العلم الذي يجب التصديق به بالقلب واعتقاده وهو الايمان ولا يكفي الا مع ما بعده وهو:

الصفة الثانية: العمل الصالح: (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، أي العمل الصالح فالإيمان من غير عمل كالشجرة من غير ثمر، فالإيمان عند السلف الصالح اعتقاد بالقلب، وقول

باللسان، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. والادلة على ذلك من الكتاب والسنة:

(١) ينظر، مدارج السالكين، (ج ١ / ص ٣٠)

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ) [المائدة: ٤١]، (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) [النساء: ١٢٤]، يزيد بالطاعة، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الفتح: ٤] وينقص بالمعصية، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « لَا يَزِينِي الزَّانِي حِينَ يَزِينِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرِبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ »^(١). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الايان بضعٌ وسبعون أو بضعٌ وستون شعبةً فأفضلها قولٌ لا إله إلا الله وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ والحياءُ شعبةٌ من الأيمان»^(٢).

وصلاح القلب إنَّما يكون بامتلائه بالعقائد الصحيحة، فإذا أشرب القلب الحقائق الايمانية كان قلبا سليما مندفعاً إلى كل ما يرضي ربه.

الصفة الثالثة: التواصي بالحق: (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) أي الدعوة اليه، وهذا هو أساس دعوة الانبياء والرسول التي أرسلوا من أجلها قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [فصلت: ٣٣]

وكذلك أتباعهم، فوظيفة الداعية في أعلى مراتب الشرف، إذ أتمها تبليغ دعوة الله تعالى، ومتابعة مهمة الرسل، والسير على طريقهم، قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [يوسف: ١٠٨]

ويبين تعالى أن الفلاح في الدعوة إلى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [آل عمران: ١٠٤]، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٥٥)، رقم ٢١٧

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٤٦)، رقم ١٦٢

وَحَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلَيْتَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

الصفة الرابعة: التواصي بالصبر على الاذى فيه: (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) في الدعوة إلى الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد من حصول أذى لأن أهل الباطل المعاندين يؤذون من يدعو إلى الله، لذلك أوصى ربنا بالصبر على الحق وتبليغه فقال تعالى: (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) [المدثر: ٧]

فمن قام لله حتى أؤذي في الله حرم الله عليه الانتقام لنفسه، لأن الله تعالى قد اشترى منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له على من آذاه، ولا شيء له قبله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبائع، فإنه قد وقع أجره على الله. فلا ينتصر لنفسه عند الاذى، ولا يطلب تعويضا لماله وعرضه كما قال لقمان لابنه، (يَا بَنِيَّ أَتَمِّمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [لقمان: ١٧] إن ذلك مما عزم الله عليه من الأمور، يقول: مما أمر الله به من الأمور. ولذلك لم ينتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه عندما فتح مكة، فعفا عنهم وقال اذهبوا فأنتم الطلقاء ولم يرد على الصحابة امواهم التي نهبتها قريش لأنهم تركوها لله.

والصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها وصبر على الأقدار والاقضية حتى لا يتسخطها وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبد القادر في فتوح الغيب: "لا بد للعبد من أمر يفعلُه ونهي يجتنبه وقدر يصبر عليه"^(٢)

فالأول: صبر على الأوامر والطاعات: بأن يؤدي الانسان ما أمر الله تعالى به، وإن كان فيه مشقة عليه، وإن كانت نفسه تريد الراحة فإنه يصبر، فيقوم للصلوات الخمس وصلاة الليل ويترك النوم، ويصوم ويترك الطعام والشراب، ويتصدق طاعة لله سبحانه وتعالى، ويجاهد في سبيل الله ويصبر على ملاقاته الاعداء.

الثاني: صبر عن المناهي والمخالفات: فيتجنب ما نهى الله تعالى عنه، والنفس تنازعه تريد

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ٧٤)، رقم ٣٤٦١

(٢) ابن القيم، عدة الصابرين، ص ٢٨

الشهوات المحرّمة، وكذلك شياطين الانس والجنّ يدعونه ويرغبونه ويحسّنون له القبيح، فهو يصبر على حبسها عنها وإمساكها عما يدعو إليه أهل السوء.

والثالث: صبرٌ على الاقدار والاقضية: فإن أصابه مرض أو أصابته مصيبة في ماله أو ولده أو في قريبه فإنه يصبر ولا يجزع، هذا من الايمان بالله، قال تعالى: (وَلَبَّوْا نَفْسَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) [البقرة: ١٥٦-١٥٧]، يعرفون أن هذا من الله، وأنه بقضاء الله وقدره، فلا يجزعون ولا يتسخطون.

*** قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[آل عمران: ٢٠٠]

قال النبي صلى الله عليه وسلم «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الْمُتَمَسِّكُ فِيهَا يَوْمٌ يَمُذُّ بِهَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ أَجْرٌ خَمْسِينَ مِنْكُمْ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: بَلْ مِنْكُمْ»^(٣)

أي: من ورائكم أياماً يُحمّد فيها الصبرُ عن المحارم فمن صبرَ في تلك الأيام كان كمن قبض على الجمرة، اوصى صلى الله عليه وسلم بالصبر والتمسك في الدين في أيام الفتن وبين عظيم الأجر عليه، لقول الله تعالى: (إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠] وَعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَهَا هَذَا الدُّعَاءَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلْتُكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَادَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تُجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا»^(٤)

(٣) السلسلة الصحيحة، (ج ١ / ص ١٩٢)، رقم ٤٩٤

(٤) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٢٦٤)، رقم ٣٨٤٦، وقال الالباني: صحيح

٢١. العلم النافع

قال تعالى: (أَمْ مَنْ هُوَ قَانَتْ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) [الزمر: ٩]

إن شرف العلم من شرف المعلوم، وإن أشرف العلوم ثلاثة يسأل عنها الانسان في قبره وهو بحاجة إلى معرفتها في الدنيا ليجيب عنها عند سؤال الملكين له في قبره وهي: من ربك؟، وما دينك؟، ومن نبيك؟

كما في حديث البراء بن عازب الطويل عن النبي صلى الله عليه وسلم ... « وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَام. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ قَالَ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ» وَإِنَّ الْكَافِرِ... فَذَكَرَ مَوْتَهُ قَالَ: « وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي»^(١)

من هذا الحديث يتبين أن أصول العلم الشرعي هي معرفة المرسل والرسول والرسالة أي أن يكون المسلم على معرفة بالله، ومعرفة بنبيه صلى الله عليه وسلم، ومعرفة دين الاسلام بالادلة، وهذا هو الميراث النبوي، وإن العلماء هم ورثة الانبياء الذين ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وأهل العلم هم أخشى الناس لله وأقربهم منه وأعلاهم منزلة في الدنيا والآخرة. ومعنى معرفة الله: أن يتعرف العبد على ربه بما تعرف به إلينا في كتابه وعلى لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- من أسمائه وصفاته وأفعاله. والانسان لا يكون على حقيقة من دينه الا بالعلم بربه، ولهذا كان أساس دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، معرفة الله بأسمائه

(١) سنن ابي داود، (ج ٤ / ص ٣٨٣)، رقم ٤٧٥٥، وقال الالباني: صحيح

وصفاته وأفعاله، قال ابن القيم رحمه الله: "مفتاح الدعوة الالهية، معرفة الربّ تعالى" (١)

وهذه المعرفة تؤدّي إلى:

أولاً: رفع الجهل والقرب من الله تعالى: فالجهل يحجب العبد عن ربّه ويبعده عنه، يقول الغزالي: "إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل والوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله" (٢)

ثانياً: تعظيم الله تعالى ومحّبته: ولا يعظّم الله حقّ تعظيمه من هو جاهل بأسمائه وصفاته ومعرفة الله أحد مهمّات الدين، والجهل به سبحانه من التفريط في أمور الدين، قال ابن القيم رحمه الله: "وقد ذمّ الله تعالى من لم يعظّمه حقّ عظّمته ولا عرفه حقّ معرفته ولا وصفه حقّ صفته فقال تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح: ١٣] (٣)

ومن سلك الطريق الموصل إليه تعالى، سلك طريق معرفته، وعلى قدر معرفة الله يكون تعظيم الربّ في القلب، ومن عرف الله أحبّه، قال ابن القيم رحمه الله: "من عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحبّه لا محالة" (٤)

ثالثاً: صلاح القلوب بمعرفة الله: يقول ابن رجب الحنبلي: "فلا صلاح للقلوب حتّى تستقرّ فيها معرفة الله وعظّمته ومحّبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكّل عليه، وتمتليّ من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو معنى (لا إله الا الله) فلا صلاح للقلوب حتّى يكون إلهها الذي تألّه وتعرفه وتحبّه وتخشاه هو الله وحده لا شريك له، ولو كان في السماوات والارض إله يؤلّه سوى الله، لفسدت بذلك السماوات والارض، كما قال تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الانبياء ٢٢] (٥)

(١) الصواعق المرسلّة، (ج ١ / ص ١٥١)

(٢) احياء علوم الدين، (ج ٤ / ص ٢٠)

(٣) مدارج السالكين، (ج ٢ / ص ٤٩٥)

(٤) مدارج السالكين، (ج ٣ / ص ١٧)

(٥) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، (ج ١ / ص ٧٥)

رابعاً: معرفة الله سبب السعادة في الدارين: فلا سعادة ولا فلاح للعبد الا بمعرفة ربه قال شيخ الاسلام رحمه الله: "اللذة والفرحة، والسرور وطيب الوقت، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والايان به"^(١)

«فإنه من ذاق حلاوة معرفة الله والقرب منه، والانس به لم يكن له أمل في غيره، وإن تعلق أمله بسواه، فهو لإعنته على مرضاته ومحابه، فهو يؤمله لأجله، ولا يؤمله معه»^(٢)

يقول الامام الغزالي رحمه الله: «إن مقصد الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقاءه وإنه لا وصول لهم إلى ذلك الا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله وإليه الاشارة بقوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) أي ليكونوا عبيداً لي ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الاقصى ببعثة الانبياء»^(٣)

*** عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِقُلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ»^(٤)

قوم عرفوا الله بأسمائه وصفاته وافعاله فأحبوه فمنّ تعالى عليهم بحبه لهم.

اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب العمل الذي يبلغني حبك اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي وأهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ.

(١) الفتاوى، (ج ٢٨ / ص ٣١)

(٢) مدارج السالكين، (ج ٣ / ص ٩٣)

(٣) إحياء علوم الدين، (ج ٤ / ص ١٩)

(٤) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ٢٠٠)، رقم ١٩٢٦

٢٢. العلم بالاسماء الحسنی

قال تعالى: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الحشر ٢٤].

لو سألنا هذا السؤال لكل مسلم، كم اسماً يعرف من أسماء الله الحسنی، وكم معنى يعلم من معانيها؟

سوف يختلف الناس في الإجابة، وعلى قدر علمهم بها وشهود قلوبهم لها تكون معرفتهم برّبهم، وتعظيمهم له، وخوفهم منه، وحبّهم له.

العلم بالاسماء الحسنی أصل كل معلوم، فكل المعلومات سواء إما أن تكون خلقاً له، أو أمراً من عنده بما شرعه. ومصدر الخلق والامر صادر عن أسمائه الحسنی، فهو المحمود على خلقه وهو المحمود على أمره حمد شكر وعبودية وحمد ثناء ومدح ويجمعها التبارك ولذلك ذكر هذه الكلمة عقيب الخلق والامر، فقال تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [الأعراف: ٥٤] وفي الاستفتاح {وتبارك اسمك}

ويكفي العبد شرفاً معرفته بالاسماء الحسنی وجعل الله تعالى الجنة جزاء لمن أحصاها كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)

يقول ابن القيم: "مراتب إحصاء اسمائه التي من أحصاها دخل الجنة وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح.

المرتبة الاولى: إحصاء ألفاظها وعددها

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ

(١) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ١٩٨)، رقم ٢٧٣٦

يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأعراف: ١٨٠]، وهو مرتبتان إحداهما: دعاء ثناء وعبادة، والثاني: دعاء طلب ومسألة: فلا يثنى عليه الا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكذلك لا يسأل الا بها... يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلا إليه بذلك الاسم. فدعاء الله بها مرتبط بحال العبد ومطلبه وما يناسب حاجته فالضعيف يدعو الله باسمه القادر المقتدر القوي، والفقير يدعوه باسمه الرازق الرزاق الغني والمتهور المظلوم يدعوه باسمه الحي القيوم، إلى غير ذلك مما يناسب أحوال العباد. ولا تخرج عما أظهر لهم من أسمائه الحسنى. ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا^(١)

فأعرف خلقه به وأحبهم له صلى الله عليه وسلم يقول: « لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢)، ولو شهد بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة الا من آثار صفات كماله... وإنما تفاوتت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به. فأعرفهم بالله أشدهم حبا له، ولهذا كانت رسله أعظم الناس حبا له من غيره والخليلان {إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم} من بينهم أعظمهم حبا، وأعرف الأمة به أشدهم له حبا، ولهذا كان المنكرون لحبه من أجهل الخلق به^(٣). فمن عرف أسماء الله وصفاته وأفعاله وشاهدها بقلبه تقلب في رياض هذه المعرفة وأحبه لا محالة.

ولما كان سبحانه يحب أسماءه وصفاته كان أحب الخلق إليه من اتصف بالصفات التي يحبها، فهو محسن يحب المحسنين شكور يحب الشاكرين جميل يحب الجمال طيب يحب كل طيب... رحيم يحب الرحماء وتر يحب الوتر ويحب أسماءه وصفاته ويحب المتعبدين له بها

(١) ابن القيم، بدائع الفوائد، (ج ٢ / ص ٢٧٥)

(٢) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٥١)، رقم ١١١٨

(٣) طريق المهجرتين و باب السعادتين، ص ٣١٨

ويجب من يسأله ويدعوه بها ويجب من يعرفها ويعقلها ويشني عليه بها ويمدحه بها كما في الصحيح عن النبي لا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه ولا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين وفي حديث آخر صحيح لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم ولمحبته لأسمائه وصفاته أمر عباده بموجبها ومقتضاها فأمرهم بالعدل والإحسان والبر والعفو الجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت ولما كان سبحانه يحب أسمائه وصفاته كان أحب الخلق إليه من اتصف بالصفات التي يحبها وأبغضهم إليه من اتصف بالصفات التي يكرهها فإنها أبغض من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت لأن اتصافه بها ظلم إذ لا تليق به هذه الصفات ولا تحسن منه، لمنافاتها لصفات العبيد، وخروج من اتصف بها من رتبة العبودية ومفارقتها لمنصبه ومرتبته، وتعديه طوره وحدّه، وهذا خلاف ما تقدم من الصفات كالعلم والعدل والرحمة والاحسان والصبر والشكر فإنها لا تنافي العبودية، بل اتصاف العبد بها من كمال عبوديته، إذ المتصف بها من العبيد لم يتعد طوره ولم يخرج بها من دائرة العبودية^(١)

**** قال تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا**

تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا وَأَبْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) [الاسراء: ١١٠]

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا قَالَ أَحَدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حَزَنٌ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرِحًا، قَالُوا: يَا

رَسُولَ اللَّهِ يُنْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ ؟ قَالَ: أَجَلٌ، لَمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»^(١)

هذا الدعاء يتضمن أربعة أسباب لنيل السعادة وزوال الهم والغم والحزن

الأول: فهو تحقيق العبودية لله وتَمَام الانكسار بين يديه، والخضوع له واعترافه بأنه مخلوق لله مملوكٌ له هو وآبائُه وأمهاتُه، «اللهمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وابنُ عبدِكَ وابنُ أُمَّتِكَ» فالكلُّ ممالك لله، لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

وأما الأصل الثاني: ايمان العبدُ بقضاء الله وقدره، وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه سبحانه لا مُعَقَّبَ لحُكمه ولا رادَّ لقضائه «ناصيتي بيدك، ماضٍ في حُكْمِكَ، عدلٌ في قضاؤِكَ» يتناول جميع أفضيته سبحانه في عبده من كلِّ الوجوه، من صحة وسقم، وغنى وفقر، ولذَّة وألم، وحياة وموت، وعقوبة وتجاوز وغير ذلك، فكلُّ ما يقضي على العبد فهو عدلٌ فيه (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

الثالث: الايمان بأسماء الله وصفاته كلها ما علَّم العبدُ منها وما لم يعلم، وهذا أحبُّ الوسائل إلى الله سبحانه، {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}، وهو أعظم ما يطردُ الهمَّ والحزنَ والغمَّ ولهذا قال: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»

والأصل الرابع: هو الايمان بالقرآن الكريم، المشتمل على الهداية والشفاء والكفاية والعافية فهو شفاء الابدان من الاسقام وشفاء القلوب من الهم والغم والحزن وفيه الطمأنينة وراحة الصدر ولهذا قال في هذا الدعاء: «أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حَزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي». ومن آمن بهذه الأسباب وسعى في تحقيقها نال موعود الله الكريم وفضله العظيم وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم «إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حَزْنِهِ فَرِحًا»^(٢)

(١) السلسلة الصحيحة، (ج ١ / ص ٣٨٣)، رقم ٣٥٢٨، قال الالباني : صحيح

(٢) ينظر، البدر، فقه الادعية والاذكار، (ج ١ / ص ١٨٦)

٢٣. معنى كلمة التوحيد لا إله الا الله

قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) [محمد: ١٩].

لا إله الا الله : هذه الكلمة هي الفارقة بين الكفر والاسلام، وهي كلمة التقوى، وهي العروة الوثقى، وهي الكلمة الطيبة، وهي مفتاح دعوة الرسل وخاتمتها من قالها دخل الاسلام وعصم دمه وماله ومن ختم بها حياته عند الموت دخل الجنة قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: ٢٥]

وهي التي جعلها إبراهيم عليه السلام كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون، وهي الكلمة التي نجى الله تعالى بها يونس من بطن الحوت عندما قال لا إله الا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين، وهي كلمة قامت بها الارض والسموات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين ووضعت الدواوين وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى مؤمنين وكفار، فهي منشأ الخلق والامر والثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي كلمة الاسلام، ومفتاح دار السلام، وعنهما يسأل الاولون والآخرين، فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسالتين: {ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين}، وجواب الاولى بتحقيق لا إله الا الله معرفة وإقرارا وعملا، وجواب الثانية بتحقيق محمد رسول الله معرفة وانقيادا وطاعة^(١)

وهذه الكلمة تشتمل على ركنين: نفي وإثبات.

فالنفي هو قولنا «لا إله» والاثبات هو قولنا «الا الله»

(١) زاد المعاد، (ج ١ / ص ٣٥).

ف « لا إله » نفي جميع ما يعبد من دون الله تعالى، «والا الله»: إثبات جميع أنواع العبادة لله رب العالمين وحده لا شريك له في عبادته، كما لا شريك له في ملكه، وربوبيته، ففيها إذن براءة من كل ما يعبد من دون الله تبارك وتعالى، وفيها تحقيق العبودية لله وحده.

وذلك يعني أن لا معبود بحق الا الله. وقد جاء معنى الكلمة العظيمة في آيات كثيرة من كتاب الله قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ) [النحل: ٣٦] فقله تعالى: (أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ) هو معنى قوله « الا الله » وقوله: (وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) هو معنى قوله « لا إله »

"والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع. فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله. فهذه طواغيت العالم إذا تأملتتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد"^(١)

والعبادة باعتبار ما أمر الله به: اسم جامع لكل ما يحبه الله سبحانه وتعالى ويرضاه من الاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة، ولذلك قال الله تعالى لنبيه: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام: ١٦٢]، فالأعمال الصالحة كلها عبادة خالصة لله تبارك وتعالى لا حظَّ لغيره فيها لا من الملائكة المقربين ولا من الانبياء المرسلين ولا من الاولياء الصالحين ولا من غيرهم وهو تعالى يجزي عليها برحمته وفضله.

فلا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من أن يكون المتكلم بها عارفا لمعناها، عاملا بمقتضاها

(١) ابن القيم، اعلام الموقعين عن رب العالمين، (ج ١ / ص ٥٠)

باطنا وظاهرا، ولا بد من العلم واليقين بمدلوها كما قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). [محمد ١٩] وقوله: {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف ٨٦]، أما النطق بها من غير معرفة بمعناها، ولا يقين، ولا عمل بما تقتضيه من نفي الشرك وإخلاص القول والعمل قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح فغير نافع بالإجماع.

يقول ابن رجب: ”وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد لا إله إلا الله يقتضي أن لا إله له غير الله، وإلآله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبه له وإجلالا ومحبة وخوفا ورجاء وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاء له ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الالهيه كان ذلك قدحا في إخلاصه في قول لا إله إلا الله ونقصا في توحيده وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك وهذا كله من فروع الشرك ... وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قاذح في تمام التوحيد وكماله“ (١)

*** قال تعالى: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [السجدة: ١٦]

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ» (٢).

التوحيد هو روح الإسلام فمن لم يعرف التوحيد لم يعرف الإسلام وانما حظ المسلم من اسلامه بقدر حظه من كلمة التوحيد، فبقدر استقرار كلمة التوحيد واشراقها في القلب تخرج ثمراتها في القول والعمل والحال في العبادات والمعاملات والأخلاق.

(١) ابن رجب، كلمة الإخلاص، (ص: ٢٣)

(٢) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٥٤)، رقم ١١٥٤

٢٤. أركان التوحيد

قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[الأنبياء: ٢٥]

لقد خلق الله الخلق لغاية عظيمة وهي عبادته وحده لا شريك له، فقال عز وجل: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: ٥٦]، أي: خلقهم لعبادته وحده ونهاهم عن عبادة كل من سواه، والعبادة لا تسمى عبادة الا مع التوحيد، والتوحيد أساس العبادة وأوجب ما يجب على العبد معرفته والتسليم له، وضده الشرك الذي إذا خالط العبادة أحبط العمل حتى وإن كان عمل الانبياء قال تعالى: (وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الزمر: ٦٥]، والشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله تعالى الا بالتوبة منه قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) [النساء: ٤٨]

والتوحيد هو حق الله على العبيد وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ »، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: « أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟ »، قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: « أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ »^(١)

وللتوحيد ثلاثة أركان: توحيد الربوبية، وتوحيد الالهية، وتوحيد الاسماء والصفات.

أولاً: توحيد الربوبية: فعل الرب. وهو الاقرار بأن الله سبحانه وتعالى رب العالمين خالق كل شيء ومالكة ورازقه ومدبر أمره وهو المحيي المميت قال الله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ

(١) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١١٤)، رقم ٧٣٧٣

الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ [يونس: ٣١-٣٢]، وقد أقرّ به الكفار على زمن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يدخلهم في الاسلام وقاتلهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستحلّ دماءهم وأموالهم.

ثانيا: توحيد الألوهية: ويقال توحيد العبادة وتوحيد الارادة والقصد وتوحيد الطلب وهو فعل العبد: وهو إخلاص التأله لله تعالى بأفعال العباد كالدعاء والنذر والنحر والرجاء والخوف والتوكل والرغبة والرغبة والالابة ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له، لا يجعل فيها شيئا لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلا عن غيرهما. وهذا التوحيد هو الذي تضمنته قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: ٥]

وتوحيد الألوهية أول ما دعا إليه الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لأن الناس مقرون بالربوبية لله وحده قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل: ٣٦]

وأول ما دعا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إِلَيْهِ، عن ابن عَبَّاسٍ يَقُولُ: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: « إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَيَّ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقْرَأُوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَامَةَ أَمْوَالِ النَّاسِ»^(١)

والادلة متظاهرة في الكتاب والسنة على وجوب الاخلاص لله ونفي الشريك معه في العبادات، قال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وقال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ)

[البينة: ٥]

ثالثا: توحيد الاسماء والصفات: ويقال توحيد الخبر وتوحيد المعرفة والاثبات: وهو الايمان بأن له الكمال المطلق وله الاسماء الحسنی والصفات العلی كما وصف الله تعالى بها نفسه في كتابه ووصفه بها رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير تكيف ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تعطيل، قال تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [طه: ٨]

كما جمع الله تعالى بين إثباتها ونفي التكيف عنها في كتابه في غير موضع فقال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [الشورى: ١١]، ففي قوله: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ردٌ للتشبيه والتمثيل، وقوله: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ردٌ للإلحاد والتعطيل. وتضمنت سورة الإخلاص للتوحيد القولي والعملي، (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص ١-٤]، و (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) متضمنة للتوحيد العملي الإرادي وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة .

وتضمنت سورة الناس مقامات التوحيد الثلاثة قال تعالى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ) [الناس ١ - ٣]، فالرب هو الذي يخلق وينعم، والملك من أسماؤه الحسنی، وأفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسماؤه وصفاته وهو الذي يأمر وينهى ويحكم، والإله هو المعبود والله تعالى هو المعبود الحق الذي لا يستحق العبادة غيره، فمن أكمل هذه المقامات الثلاثة أتم دين الإسلام يقول ابن القيم: ” وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربا، ولا إلهًا، ولا غيره حكما“^(١). فهو يخلق وينعم ويأمر وينهى ويحكم ويُعبد ولا شريك له في كل ذلك، والكون كله آيات بينات شاهدة على توحيدة ناطقة بحمده، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) [الروم: ٢٢]^(٢)

(١) مدارج السالكين، (ج ٢ / ص ١٧٩)

(٢) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، (ج ١ / ص ٢٢٥)

قال ابو العتاهية:

فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَٰهَ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

*** قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[الأنعام: ٨٢]، أي لهم الامن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَيْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ قَالَ « لَيْسَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكَ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) » (١)
عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يَتْرُكُهُ اللَّهُ، وَظُلْمٌ يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكَ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ فَيَقْتَصُّ اللَّهُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ » (٢)

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ: « لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَإِنْ قُطِعَتْ وَحُرِّقَتْ، وَلَا تَتْرُكْ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا، فَمَنْ تَرَكَهَا مُتَعَمِّدًا، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ، وَلَا تَشْرَبِ الخَمْرَ، فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ » (٣)

(١) صحيح البخاري، (ج٤ / ص ١٦٣)، رقم ٣٤٢٩

(٢) صحيح الجامع الصغير، (ج٢ / ص ٧٤٢)، ٣٩٦١، الصحيحة، (ج٤ / ص ٥٦٠)، ١٩٣٧.

(٣) سنن ابن ماجه، (ج٢ / ص ١٣٣٩)، رقم ٤٠٣٤، قال الالباني: حسن

٢٥. آية الكرسي

قال تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقرة: ٢٥٥]

هذه الآية أعظم آية في كتاب الله وتضمنت التوحيد والصفات العلى، وفيها اسم الله الاعظم الذي تجاب به الدعوات، وتفرج به الكربات، وفيها مغفرة الذنوب ودخول الجنة وهي خمسون كلمة، وفي كل كلمة خمسون بركة، وهي تعدل ثلث القرآن.

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ فَضْرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ « وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ »^(١)

فيها اسم الله الاعظم الذي اذا دعي به اجاب واذا سئل به اعطى، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، فِي سُورَةِ ثَلَاثِ: الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ، وَطِهَ» قال القاسم أبو عبد الرحمن: فالتمستها فوجدت في «سورة البقرة» آية الكرسي: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وفي «سورة آل عمران» فاتحتها: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وفي «سورة طه» (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ)^(٢)

وفيها مغفرة الذنوب قال صلى الله عليه وسلم: « مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٩٩)، رقم ١٩٢١

(٢) السلسلة الصحيحة، (ج ٣ / ص ٣٧١)، رقم ٧٤٦

هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَآتُوبٌ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرٌّ مِنَ الرَّحْفِ «^(١)

ومن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، وهي مشتملة على عشر جمل، كل جملة لها معنى عظيم جدا.

(الله لا إله إلا هو) - وهو إخبار بأنه تعالى هو المتفرد بالالوهية لجميع خلقه ولا أحد يستحق هذا الوصف الا الله سبحانه وتعالى وهو الذي يستحق أن يعبد دون سواه، والاله بمعنى مألوه، والمألوه بمعنى المعبود حبا، ورجاء وخوفا وتعظيما.

(الْحَيُّ الْقَيُّومُ) - هذان اسمان من أسمائه تعالى، وهما جامعان لكمال الاوصاف، والافعال، فكمال الاوصاف في (الحي)، وكمال الافعال في (القيوم)، لأن معنى (الحي) ذو الحياة الكاملة الحي في نفسه لا يموت أبدا، ويدل على ذلك «ال» المفيدة للاستغراق. و(القيوم): أصلها من القيام، ووزن قيوم فيعول؛ وهي صيغة مبالغة، فهو القائم على نفسه فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، والقائم على غيره فكل أحد محتاج إليه، وهو القائم بتدبير أمر عباده، يكلؤهم ويحفظهم ويرعاهم ويرزقهم، ولا قوام للمخلوقات بدون أمره لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: ١٥] (لا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) - لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، ومن تمام القيومة أن لا يعتريه سنة ولا نوم، لأن اعتراء النعاس والوسن دليل على العجز والضعف.

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) - وهو إخبار بأن جميع من في الكون عبيد له وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه، وهو المتصرف بشؤونهم، الحافظ لوجودهم.

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) - ومن عظمتها، جل شأنه وعلا، لا يجروا أحد على أن يشفع لأحد عنده الا إذا أذن له بالشفاعة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وهو

(١) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٥٦٠)، رقم ١٥١٩، وقال الألباني: صحيح.

أعظم الناس جاها عند الله، ومع ذلك لا يشفع الا بإذن الله لكمال سلطانه جلّ وعلا، وهيبته، وكلما كمل السلطان صار أهيب للملك، وأعظم، حتى إنّ الناس لا يتكلمون في مجلسه الا إذا تكلم وأذن بالكلام.

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) - وهذا دليل على إحاطته علما بكلّ شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو يعلم أمور الدنيا التي خلفوها، وأمور الآخرة التي يستقبلونها. (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) ولا يطلع أحد من خلقه على شيء من علم الله الا ما علمه الله، وأطلعته عليه، وأذن له به. ولا يعرف إذنه تعالى الا بالوحي منه.

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) - والكرسي غير العرش، وهو أصغر منه. قال صلى الله عليه وسلم «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»^(١)

(وَلَا يَوُدُّهُ حِفْظُهُمْ) - ولا يعجزه حفظ السماوات والارض وما فيها وما بينهما بل هو سهل عليه يسير، فلا يعزب عن علمه شيء، ولا يغيب عنه شيء.

(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) - العليّ الذي ليس فوقه شيء والقاهر الذي لا يغلبه شيء، العظيم الذي كلّ شيء أمام عظمته صغير حقير^(٢)

آية الكرسي تعرف العبد بربه بذكر اسمائه وصفاته وتذكره بعظمته وقدرته وتفرده بالملك والربوبية والألوهية في الدنيا والآخرة، فتتعلق القلوب به حبا وخوفا ورجاء.

عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: لَمَّا رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهَاجِرَةَ الْبَحْرِ، قَالَ: أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ؟ قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِيْنِهِمْ، تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتَى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتْفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا

(١) الالباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، (ج ١ / ص ٢٢٣)، رقم ١٠٩

(٢) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، (ج ١ / ص ٢٩٣)

ارْتَفَعَتِ التَّفَتَّتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غَدْرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الْأَوْلَيْنَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرَكَ عِنْدَهُ غَدًا. قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقْتُ، صَدَقْتُ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهِمْ مِنْ شِدِيدِهِمْ»^(١)

*عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ »^(٢).

عن أنس بن مالك، قال سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لِفَاطِمَةَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمَعِي مَا أَوْصِيكَ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»^(٣)

اعظم آية في القرآن، ليس في القرآن آية تضمنت ما تضمنته آية الكرسي فيها اعظم أجر وهو مغفرة الذنوب ودخول الجنة، وفيها الاجارة من الشيطان وكيده، وفيها الحفظ من الجن ومكرهم، من قرأها غدوة أجير من الشيطان حتى يمسي، ومن قرأها حين يمسي أجير من الشيطان حتى يصبح، ومن قرأها عند النوم لن يزال عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح، وقد ورد عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال: "ما أرى احدا يعقل بلغة الاسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، فانها من كنز تحت العرش"^(٤)

اعظم آية في القرآن فيها أعظم أجر وهو مغفرة الذنوب ودخول الجنة فلا تغفل عنها
وقل «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ»

(١) سنن ابن ماجه، (ج ٥ / ص ١٤٣)، رقم ٤٠١٠ وقال الالباني: حسن
(٢) صحيح الجامع الصغير، (ج ٢ / ص ٧٣)، رقم ٦٤٦٤، وقال الالباني: صحيح
(٣) المستدرک على الصحيحين، (ج ١ / ص ٧٣٠)، رقم ٢٠٠٠ وقال: صحيح على شرط الشيخين

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (ج ١ / ص ٧٣٥)

٢٦. العبودية

قال تعالى: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإَيَّيَ فَاعْبُدُونِ) [العنكبوت: ٥٦]

ما هي أفضل صفة يتّصف بها الانسان عند ربّه؟

أفضل صفة يتّصف بها الانسان هي أن يكون عبداً لله تعالى. فكيف يكون المسلم عبداً

لخالقه ورازقه ومربيّه بالنعم؟

العبودية نوعان: عامّة، وخاصّة.

فالعبودية العامّة: عبودية أهل السماوات والارض كلّهم لله، برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى: (إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا) [مريم: ٩٣]، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وأما النوع الثاني: العبودية الخاصّة وهي عبودية الطاعة والمحبة، واتباع الاوامر قال

تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) [الفرقان: ٦٣]

فالخلق كلّهم عبيد ربوبيّته. فهم محتاجون إلى نعمه ورعايته ورزقه وحفظه. وأهل طاعته

وولايته هم عبيد إلهيته وهؤلاء محبّون له أذلاء له مطيعون محتاجون لقربه.

وقد وصف تعالى صفوة خلقه الانبياء والمرسلين بصفة العبودية. فقال تعالى: (وَأذْكُرْ

عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) [ص: ٤٥]

ووصف أكرم خلقه عليه النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأعلاهم عنده منزلة

بالعبودية في أشرف مقاماته، فذكره بصفة العبودية في مقام إنزال الكتاب والاسراء فقال

تبارك وتعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ) [الفرقان: ١] (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى

بِعَبْدِهِ) [الاسراء: ١]

ووصف بصفة العبودية خواصّ خلقه من غير الانبياء والرسل وجعل الله سبحانه

وتعالى البشارة المطلقة لهم فقال تعالى (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ). [الزمر: ١٧-١٨] وجعل لهم الامن

التام فقال تعالى: (يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) [الزخرف: ٦٨]
 وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصّة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به،
 فقال تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) [الحجر: ٤٢]
 ومن أراد أن يكون عبدا لله فعليه أن يتأمل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ
 إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: ١٥] «فهذه الآية تورث العبد علمين شريفيين،
 تعرّف الانسان بنفسه وتعرّفه برّبّه، فيعتقد أنّ له الفقر التام ولربّه الغنى التام، فيستحيل
 أن يكون العبد الا فقيرا، ويستحيل أن يكون الربّ سبحانه الا غنيا، كما أنّه يستحيل أن
 يكون العبد الا عبدا والربّ الا ربّا»^(١)

وثمرة هذين العلمين: أن لا تشهد لنفسك ملكا مع الله فالملك لله وأنت موكل
 ببعضه، وأن لا تشهد لك عملا ينجيك يوم القيامة الا طلب رحمة الله، فأنت فقير إلى الله،
 لأنّك لا تملك شيئا وأنت فقير إلى رحمة الله سبحانه وتعالى لأنّ عملك لا ينجيك يوم
 القيامة، فلو حصل بيد هذا العبد من الاموال والاسباب ما حصل لم ير له فيها شيئا، بل
 يراه كالوديعة في يده، وأنها أموال سيّده وخزائنه ونعمه بيد عبده، مستودعا متصرفا فيها
 لسيده لا لنفسه، كما قال عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه: «مَا أُعْطِيكُمْ وَلَا أَمْنَعُكُمْ
 إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ أَضْعُ حَيْثُ أَمَرْتُ»^(٢)، فهو متصرّف في تلك الخزائن تصرّف العبد المحض.
 ونفى النبي صلّى الله عليه وسلّم دخول الجنة بالعمل، فعن عائشة عن النبي صلّى الله عليه
 وسلّم قال: «سَدُّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا
 رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ»^(٣)

وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاها

(١) ينظر، طريق المهجرتين وباب السعادتين، ص ٢٢-٢٣

(٢) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ٨٥)، رقم ٣١١٧

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٩٨)، رقم ٦٤٦٧

وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه عز وجل، وكان: «يَقُولُ لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ»^(٢). وقال قولوا «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ»^(٣)، فهو أكملهم عبودية وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، وكذلك صحابته وأهل بيته الذين رباهم على العبودية لله، فالعبد فقير إلى الله محتاج إليه في الدنيا والآخرة. فمن مناجاة على كرم الله وجهه وزاده منه قربا، سيدي كفانا شرفا أن نكون لك عبيدا وكفانا عزا أن تكون لنا ربا.

حكى عن مالك بن دينار أنه مر بقصر يعمر، فسأل الأجراء عن أجرتهم، فأجابه كل واحد منهم بما كانت أجرته، ولم يجبه واحد، فقال: ما أجرتك؟ فقال: لا أجر لي. فقال: ولم ذلك؟ قال: لأني عبد صاحب القصر. فقال مالك: إلهي ما أسخاك، الخلق كلهم عبيدك، كلفتهم العمل ووعدهم الأجر.

*** عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٦٧)، رقم ٣٤٤٥

(٢) المسند، (ج ٣ / ص ١٥٣)، رقم ١٢٥٧٣، اسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٧٧)، رقم ٦٣٥٨

بِذَنبِي، فَاعْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»، وَإِذَا رَكَعَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَوَحْيِي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»، وَإِذَا رَفَعَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلءَ الْأَرْضِ، وَمِلءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ»، وَإِذَا سَجَدَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوْرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُدِ وَالتَّسْلِيمِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» (١).

عن أفلح، مولى محمد بن علي الباقر، قال: خرجت مع محمد بن علي حاجا فلما دخل المسجد نظر إلى البيت فبكى حتى علا صوته فقلت بأبي أنت وأمي إن الناس ينظرون إليك فلورفت بصوتك قليلاً قال: ويحك يا أفلح، ولم لا أبكي؟ لعل الله ينظر إليّ منه برحمة فأفوز بها عنده غداً قال: ثم طاف بالبيت ثم جاء حتى ركَع عند المقام فرفع رأسه من سجوده فإذا موضع سجوده مبتل من دموع عينيه (٢)

الصلاة شاهد العبودية وهي أفضل العبادات ويجب أداءها على أحسن صورها ولا يكن ذلك الا باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في أركانها وواجباتها ومستحباتها ففي كل ركن من أركانها وواجب من واجباتها ومستحب من مستحباتها شاهد للعبودية تستسلم به الجوارح لبارئها حالا ويشهد به اللسان قولاً ويستحضره القلب ذلاً وخضوعاً.

اللهم اجعلنا من عبيدك برحمتك وفضلك يا كريم.

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٨٥)، رقم ١٨٤٨

(٢) صفة الصفوة، (ج ١ / ص ٣٦٣)

٢٧. حقيقة العبودية

قال تعالى: (وَقَالَ رَبُّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) [النمل: ١٩]

تحقيق العبودية لله دأب الصالحين وغايتهم لأن من رضيه الله أن يكون عبدا له فقد فاز في الدنيا والآخرة. فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه أو أن الخروج عنها أكمل فهو من أجهل الخلق بل من أضلهم. كما ادعى النصارى خروج المسيح من العبودية ونسبوه ولدا لخالقه وكذلك من قال الملائكة بنات الله وكذلك من قال إن الصالحين يتصرفون في الكون ويعلمون الغيب ويشفعون لمن يريدون سبحان الله عما يقولون علوا كبيرا فقال تعالى: (لَنْ يَسْتَنْجِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) [النساء: ١٧٢] وقال عن المسيح (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) [الزخرف: ٥٩] فجعل غايته العبودية لا الإلهية، وقال تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ) [الأنبياء: ٢٦-٢٨] فكيف يحقق المسلم العبودية لله؟

أولا: تحقيق كلمة التوحيد: وروح هذه الكلمة وسرها أفراد الرب جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره بالمحبة والاحلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والانابة والرغبة والرغبة، فلا يحلف الا باسمه، ولا ينظر الا له، ولا يتاب الا إليه، ولا يطاع الا أمره، ولا يتحسب الا به، ولا يستغاث في الشدائد الا به، ولا يلتجأ الا إليه، ولا يسجد الا له، ولا يذبح الا له وباسمه، ويجتمع ذلك في حرف واحد وهو: أن لا يعبد الا إياه بجميع أنواع العبادة، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله الا الله، ولهذا حرم الله على النار من شهد أن لا إله الا الله حقيقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ)^(١)

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص: ١٩٦

ثانيا: حقيقة العبودية مبنية على أصلين: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب، تقول العرب طريق معبد أي قد ذلته الاقدام وسهلتها، والعبادة تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له، والعبودية التامة لا تكون الا بتكميل هذين الأصلين:

- تكميل مقام الحب التام وهو أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام الا الله، والشرك الذي لا يغفره الله تعالى هو أن يشرك به في الحب والتعظيم فيحب غيره ويعظم من المخلوقات غيره كما يحب الله تعالى ويعظمه قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) [البقرة: ١٦٥]

فأخبر سبحانه أن المشرك يحب الند كما يحب الله تعالى، وأن المؤمن أشد حبا لله من كل شيء، وقال أهل النار في النار: (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) [الشعراء: ٩٧-٩٨]، ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به سبحانه في الحب والتأله والعبادة^(١)

ولو تأملت المعبودات الباطلة التي عبدها البشر تجدها ليس فيها صفات حمد فأما أن تكون حجرا أو شجرا لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر ولا تعقل وأما أن تكون بشرا مثلنا عاجزا عن الخلق أو ميتا لا حول له ولا قوة: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ) [الاعراف ١٩٤] (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون. أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون) [النحل: ٢٠-٢١] فالمحبوب لذاته هو الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن أسماءه أسماء حسنى، وصفاته صفات حمد، وأفعاله كلها عدل وحكمة ورحمة وفضل وإحسان، فكل محمود ولو بصفة حمد واحدة فهو محبوب، فكيف وكل صفات الحمد في الكون هي لله، فالحمد كله لله رب العالمين فهو أهل أن يحمد وهو أهل أن يحب ويعبد.

- تكميل مقام الذل والانقياد للعزير الرحيم، واكمل الخلق عبودية اكملهم ذلا لله وانقيادا وطاعة، فإن الله سبحانه يحب من عبده أن يكمل مقام الذل له وهذه هي حقيقة العبودية. والذل أنواع أكملها ذل المحب لمحبوبه، الثاني ذل المملوك لمالكه، الثالث ذل الجاني بين يدي

(١) ابن القيم، التفسير القيم، (ج١ / ص ١٤٣)

المنعم عليه المحسن إليه المالك له، الرابع ذلّ العاجز عن جميع مصالحه وحاجاته بين يدي القادر عليها التي هي في يده وبأمره. وتحت هذا قسمان أحدهما ذلّ له في أن يجلب له ما ينفعه، والثاني ذلّ له في أن يدفع عنه ما يضرّه على الدوام . ويدخل في هذا ذلّ المصائب كالفقر والمرض، وأنواع البلاء والمحن، فهذه خمسة أنواع من الذلّ إذا وفاها العبد حقّها وشهدا كما ينبغي وعرف ما يراد به وقام بين يدي ربّه مستصحبا لها شاهدا لذلّه من كل وجه ولعزّة ربّه وعظّمته وجلاله كان قليل أعماله قائما مقام الكثير من أعمال غيره^(١)

*** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ »^(٢).

فالعبادة أعظم شاهد للعبودية والصلاة أفضل عبادة بعد الاقرار بالشهادة وهي أجمع خصلة من خصال الدين لتعظيم قدر الله، ومحبته والذلّ له وأدلّ شيء على إجلاله عزّ وجلّ وتعظيمه ففيها التكبير والتسبيح والتهليل والتحميد وفيها التحيّات وفيها الصلاة على الرسول حبّا له وتعظيمها للمرسل وفيها ذلّ المعصية وطلب الاستغفار وفيها ذلّ النفس وإظهار الفقر للواحد القهار في جلب النفع ودفع الضرّ وشرّ الاشرار وليست هذه الخصال بإجماعها في شيء من العبادات أجمل منها في الصلاة، فلذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(٣)

وقرّة عين العبد نعيمه وطيب حياته، فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه عزّ وجلّ في الآخرة وقرت عينه أيضا به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

(١) مفتاح دار السعادة (ج ١ / ص ٢٨٩)، طريق المهجرتين وباب السعادتين، ص: ٣٥٨

(٢) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١٤٢)، رقم ٧٤٨٦

(٣) سنن النسائي، (ج ٧ / ص ٦١)، رقم ٣٩٤٠، وقال الالباني: صحيح

٢٨ . صفات عباد الرحمن

قال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) [الفرقان: ١]

ابتدأت سورة الفرقان بذكر عبودية النبي صلى الله عليه وسلم وتكريم الله تعالى له بإنزال القرآن لينذر به العالمين ليكونوا عبيدا لله، وانتهت بذكر صفات عباد الرحمن الذين يريدون أن يقتدوا بنبيه صلى الله عليه وسلم ويكونوا عبيدا لربهم عز وجل.

قال تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) [الفرقان: ٦٣]، فهم عبيد لله في مشيتهم وفي سلوكهم يمشون بالوقار، والسكينة والتواضع لا يتكبرون على الناس ولا يتجبرون ولا يفسدون.

(قَالُوا سَلَامًا) حلماء، لا يقابلون الجاهل بجهله. ولا يلتفتون إلى حماقة الحمقى وسفه السفهاء. هذا نهارهم مع الناس، فأما ليلهم فهو التقوى ومراقبة الله، والشعور بجلاله، والخوف من عذابه، (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ. إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا)

وهم في حياتهم نموذج القصد والاعتدال والتوازن: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) إنفاقهم بين الإسراف والتقتير.

ومن صفاتهم أنهم يترفعون عن الكبائر من الذنوب (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)، وهذه الكبائر فسادها كبير، فالشرك فيه فساد الدين بالكليّة، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض. ومن رحمته سبحانه وتعالى لم يقنط من فعلها من الدخول في عبوديته وجعل باب التوبة مفتوحا ورغبه عز وجل بالتوبة بقوله: (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) أي: لا يحضرون الزور، فيجتنبون كل قول وفعل محرّم لا يفعلونه ولا يقولونه وشهادة الزور داخله في قول الزور. (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) لا

يقصدون مجالس الزور التي لا فائدة فيها، دينية ولا دنيوية، وإذا صادف أن مروا بها نزهوا أنفسهم وأكرموها عن مشاهدتها ورأوا ذلك سفها منافيا لمكارم الأخلاق.

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) [الفرقان: ٧٣] أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق بها، وإنما حال هؤلاء الأخيار عند سماعها كما قال تعالى: (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) [السجدة: ١٥]

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا) أي: قرنائنا من أصحاب وأخلاء وأقران وزوجات، (وَذُرِّيَّتِنَا قَرَّةَ أَعْيُنٍ) لم يطلبوا الذرية فقط وإنما طلبوا الذرية الصالحة التي تقر بها أعينهم لأن صلاحهم يعود إلى نفع المسلمين عموماً.

(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا): أي أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكمّل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين يقتدى بهم في أقوالهم وأفعالهم واحوالهم .

ولما كانت همهمهم وأعمالهم عالية كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم من جنس عملهم فقال: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ) أي: المنازل العالية الرفيعة في الجنة (وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا) من ربهم، ومن الملائكة الكرام، ومن بعضهم على بعض. (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) [الواقعة: ٢٥-٢٦]، اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

*** قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) [الذاريات: ٥٦-٥٨]

الخلق جميعاً فقراء الى الله محتاجون اليه، والله هو الغني الحميد قال تعالى: (يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: ١٥]، فقر إلى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين.

ومن شواهد العبودية اظهار فقر العبد الى ربه بدوام التذلل اليه بطاعته وسؤاله له في كل

حاجاته والبراءة من الحول والقوة الا به، فأكمل الخلق أكملهم عبودية أعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: "أصلح لي شأنى كله، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك"، وكان يدعو: "يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك". يعلم صلى الله عليه وسلم أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئاً، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء كيف وهو يتلو قوله تعالى: {وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً} [الإسراء: ٧٤]، فضرورته صلى الله عليه وسلم إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده^(١)

ومن شواهد فقر العبد اللجأ الى الله في جلب الخير ودفع الضر عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمها هذا الدعاء: «اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيك، اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيت له خيراً»^(٢)

عن طاووس قال: "رأيت علياً بن الحسين ساجداً في الحجر فقلت: رجل صالح من أهل بيت طيب، لأسمع ما يقول. فأصغيت إليه فسمعتة يقول: عبديك بفنائك، مسكينك بفنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بفنائك، فو الله ما دعوت الله بها في كرب الا كشف الله عني"^(٣). اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم نحن عبيدك فقراء اليك جئناك الى بيتك بمنة منك وفضل سائلك رذك وفضلك وانت رب العالمين وانت اكرم الأكرمين وانت خير الرازقين وانت خير الغافرين وانت ارحم الراحمين وانت ذو الفضل العظيم.

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتين، (ص ١٠)

(٢) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٢٦٤)، رقم ٣٨٤٦، وقال الألباني: صحيح

(٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، (ج ١ / ص ٣٥٧)

٢٩. معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) [المؤمنون: ٦٩].

إن معرفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سيرته وفي سنته وفي شأئله من أهم الامور التربوية التي تساعدنا على الاقتداء به صلى الله عليه وسلم.

يقول ابن القيم: ” اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها“^(١) ومن العلم الواجب على المكلف تعلمه {معرفة نبيه} محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه الوساطة بيننا وبين الله في تبليغ رسالة الله، ومعرفته تستلزم قبول وامتنال ما جاء به من عند الله، من الهدى ودين الحق.

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَأَنَا سَيِّدٌ وَلِدِ آدَمَ وَلَا فخر وَأول من تنشق عنه الأرض وأول شافعٍ وأول مُشَفِّعٍ»^(٢)

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (ج ١ / ص ٦٨)

(٢) الألباني، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (ج ٩ / ص ٧٢)، وقال: صحيح

فهو الصادق الامين عند أهل الجاهليّة وهو أمين الله على وحيه بعد البعثة، وكان أهل الجاهليّة يستأمنونه على أعزّ أموالهم وعندما اختلفوا في وضع الحجر الاسود عند إعادة بناء الكعبة حكموه ورضوا بحكمه، وقالوا هذا الصادق الأمين رضينا بحكمه فحكموه، وهو سيّد البشر بشهادته لنفسه صلّى الله عليه وآله وسلّم، وهو رحمة للعالمين بشهادة ربّه عز وجل قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: ١٠٧]، فالإسلام رحمة ومحمد صلّى الله عليه وسلّم رحمة وأمته الأُمَّة المرحومة من الله تعالى، وهو رحمة لجميع الخلق، للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

وذكر الله تعالى قريش بشرف النبي ونسبه فيهم ووصفه بعدة أوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة فقال تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: ١٢٨]. (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) أي على إيمانكم وصلاح أحوالكم، والحرص شدة الطلب للشيء والاجتهاد فيه.

قال ابن عباس: «سماه الله باسمين من أسمائه»، وقال جعفر الصادق «وألپسه من نعته الرأفة والرحمة» وما أقسم الله تعالى بحياة أحد غير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال تعالى: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الحجر: ٧٢]، وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف فإن الأقسام لا تقع إلا على المعظمين والمبجلين والمكرّمين، فهو أفضل الخلق وأكرمهم عليه، آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة فهو كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وببيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيّ يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»^(١).

وقد نوّهت الكتب السابقة بشره صلّى الله عليه وسلّم والتعريف بفضله وفضل أمته كما في الحديث الصحيح عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص

(١) سنن الترمذي، (ج ٥/ ص ٥٨٧)، رقم ٣٦١٥، وقال: حسن صحيح

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَةِ، قَالَ: « أَجَلٌ، وَاللهُ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) [الاحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْإِمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ لَيْسَ بَفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»^(١)

فهو المشهود له عند الله بالفضل، وعند الناس بالأمانة والصدق، وعند أهل الكتاب بمكارم الاخلاق، فيا خسارة من لا يعرف نبيه ويا حسرته يوم القيامة.

*** قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) [آل عمران: ٨١]

أخذ الله العهد على النبيين جميعا قبل مبعثه بالإيمان به والتصديق له والنصر على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدّوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فآمن من آمن وكفر من كفر، قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ »^(٢)، وقوله عليه السلام: «ولم يؤمن بالذي أرسلت به» إشارة إلى أن الإيمان بجميع أحكام الإسلام واجب عقيدة وشريعة، فلا نجاة لأحد الا باتباع النبي صلى الله عليه وسلم، (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ).

(١) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ٦٦)، رقم ٢١٢٥

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٩٣)، رقم ٤٠٣

٣٠. صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخلقية

قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ

رَبِّهِمْ كَفَرُ عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بِهِمْ) [محمد: ٢]

من أجل التعرّف على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في صورته التي خلقه الله عليها والتي كانت منتهى الكمال الانساني في كلّ أوصافه ﷺ. وخير من وصفته على صورته أمّ معبد الخزاعية عاتكة بنت خالد عند مروره عليها في طريق الهجرة: عَنْ حِزَامِ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ هِشَامِ بْنِ حُبَيْشِ بْنِ خُوَيْلِدِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَوْلَى أَبِي بَكْرٍ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَدَلِيلُهُمَا اللَّيْثِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُرَيْقِطٍ مَرُّوا عَلَى خَيْمَتِي أُمَّ مَعْبِدِ الْخَزَاعِيَّةِ، وَكَانَتْ امْرَأَةً بَرْزَةً جَلْدَةً { يريد أتمها خلا لها سنّ فهي تبرز، ليست بمنزلة الصغيرة المحجوبة } تَحْتَبِي بِفَنَاءِ الْخَيْمَةِ، ثُمَّ تَسْقِي وَتُطْعِمُ، فَسَأَلُوهَا لَحْمًا وَتَمْرًا لِيَشْتَرُوا مِنْهَا، فَلَمْ يُصِيبُوا عِنْدَهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقَوْمُ مُرْمِلِينَ مُسْتِنِينَ، { يريد قد نفذ زادهم أي داخلين في السنة، وهي : الجذب والمجاعة } فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى شَاةٍ فِي كَسْرِ الْخَيْمَةِ، { الظل الذي في جانب الخيمة } فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبِدٍ؟» قَالَتْ: شَاةٌ حَلَفَهَا الْجُهْدُ عَنِ الْعَنَمِ، قَالَ: «هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنِ؟» قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «أَتَأْذِنِينَ لِي أَنْ أَحْلُبُهَا؟» قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلُبْهَا، فَدَعَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسَحَ بِيَدِهِ صَرْعَهَا، وَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى، وَدَعَا لَهَا فِي شَاتِهَا، فَتَفَاجَّتْ عَلَيْهِ وَدَرَّتْ، فَاجْتَرَّتْ { أي فتحت ما بين رجلها ودرت أرسلت اللبن واجترت من الجرّة وهي ما تخرجه البهيمة من كرشها بمضغها به } فَدَعَا بِإِنَاءٍ يَرْبُضُ الرَّهْطُ { ما بين الثلاثة إلى العشرة } فَحَلَبَ فِيهِ نَجًّا { يريد سيلا } حَتَّى عَلَاهُ الْبَهَاءُ { يريد علا الاناء بهاء اللبن، وهو ويص رغوته يريد أنه ملاحا } ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رَوَيْتَ وَسَقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا وَشَرِبَ آخِرَهُمْ حَتَّى أَرَاضُوا { يريد : شربوا حتى رووا

فنفقوا بالريي}، ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ الثَّانِيَةَ عَلَى هَدَّةٍ حَتَّى مَلَأَ الْإِنَاءَ، ثُمَّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا، ثُمَّ بَايَعَهَا وَارْتَحَلُوا عَنْهَا، فَقَلَّ مَا لَبِثَتْ حَتَّى جَاءَهَا زَوْجُهَا أَبُو مَعْبِدٍ لَيْسُوقَ أَعْنَزَا عِجَافًا يَتَسَاوَكُنَ هُزَالًا مُخْمِنٌ قَلِيلٌ {أي عمهن الهزال أي قلة اللحم} فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبِدٍ اللَّبْنَ أَعْجَبَهُ، قَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا يَا أُمَّ مَعْبِدٍ وَالشَّاءُ عَازِبٌ حَائِلٌ وَلَا حَلُوبَ فِي الْبَيْتِ؟ {عازب: بعيدة المرعى، حائل: لم تحمل في هذه السنة}، قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: صِفِيهِ لِي يَا أُمَّ مَعْبِدٍ، قَالَتْ: رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، {تريد: ظاهر الجمال} أَبْلَجَ الْوَجْهَ {مشرق الوجه مضيئه} حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعْبَهُ ثَجَلَةٌ {وفي لفظ البيهقي نحلة أي الدقة والضمير} وَلَمْ تُزْرِيهِ صَعْلَةٌ، {والثجلة: عظم البطن واسترخاء أسفله. والصعلة: صغر الرأس}، وَسَيْمٌ قَسِيمٌ، {الوضيء وكذلك القسيم} فِي عَيْنَيْهِ دَعِجٌ {السواد في العين وغيره} وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ {وهو أن تطول الأشفار ثم تنعطف}، وَفِي صَوْتِهِ صَهْلٌ، {أي كالبحة، وهو أن لا يكون حادا} وَفِي عُنُقِهِ سَطْعٌ {أي طول}، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، {الكث الغزير والكثيف} أَزْجٌ أَقْرُنٌ، {الأزج: المتقوس الحاجبين، الأقرن: المتصل رأس حاجبيه}، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، {يريد علا برأسه أو يده} أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلُوُ الْمُنْطِقِ فَضْلًا، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ {النزر: القليل: والهدر: الكثير غير المفيد}، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتٌ نَظْمٌ، يَتَحَدَّرْنَ، {الخرز: حبات تنظم في عقد تضعه المرأة في رقبتها لتزين به} رَبْعَةٌ {ليس بالطويل ولا بالقصير} لَا تَشْنَاهُ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصْرِ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ، {لا تحتقره ولا تزدرية}، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا وَأَحْسَنُهُمْ، قَدْرًا لَهُ رُقَقَاءُ يَحْفُونُ بِهِ، {يستديرون حوله}، إِنْ قَالَ: سَمِعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ، {عجلوا وتسارعوا} مُحْفُودٌ مُحْشُودٌ لَا عَابِسٌ وَلَا مُفَنَّدٌ، {محفود محشود: أي أن أصحابه يخدمونه ويجمعون عليه، لا عابس: متجهم الوجه المفند: الضعيف الرأي} قَالَ أَبُو مَعْبِدٍ: هَذَا وَاللَّهِ صَاحِبٌ قُرَيْشٍ الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذُكِرَ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، وَلَا فَعَلْنَا إِنْ

وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا^(١)

قالت أم معبد: لقد بقيت الشاة التي مسح رسول الله ﷺ ضرعها إلى عام الرمادة- وهي سنة ثمانى عشرة من الهجرة- وكنا نحلبها صبوحا وغبوقا، وما في الأرض قليل ولا كثير [الصباح: شراب الصباح، والغبوق: ما يشرب بالعشي]

فكانت تسميه المبارك. وكثرت غنمها حتى جلبت جلبا إلى المدينة، فمر أبو بكر فرأه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه هذا الرجل الذي كان مع المبارك. فقامت إليه فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟ قالت: لا. قال: هو نبي الله، قالت: فأدخلني عليه، قال: فأدخلها فأطعمها رسول الله ﷺ وأعطاها، زاد ابن عبدان في روايته: - قالت: فدلني عليه، فانطلقت معي، وأهدت لرسول الله ﷺ شيئا من أقط ومتاع الأعراب، قال: فكساها وأعطاها. قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت^(٢)

***عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ كَانَ عَرَقَهُ اللَّؤْلُؤُ إِذَا مَشَى تَكْفًا وَلَا مَسِسْتُ دِيبَاجَةً وَلَا حَرِيرَةً أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا سَمَمْتُ مِسْكَةً وَلَا عُنْبَرَةً أَطِيبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٣). {أزهر: أبيض مشرب بحمرة}

هذا هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجمل الناس خلقا وأحسنهم خلقا عن جابر بن سمرة قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةِ إِضْحِيَانَ (مضيئة مقمرة) وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَى الْقَمَرِ فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ»^(٤) فهو كما قال حسان بن ثابت فيه:

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي... وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خَلَقْتَ مَبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ... كَأَنَّكَ قَدْ خَلَقْتَ كَمَا تَشَاءُ

(١) المستدرک علی الصحیحین، (ج ٣ / ص ١٠) رقم ٤٢٧٤، تعليق الذهبي: صحيح . وما بين المعكوفتين { } ليس من الحديث وإنما شرح لمفردات الحديث من كتب اللغة .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، (ج ٢ / ص ٢٥٩)

(٣) صحيح مسلم، (ج ٧ / ص ٨١)، رقم ٦٢٠٠

(٤) مختصر الشائل (ص: ٢٦)

٣١. خُلِقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

قال تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: ١-٤]

لقد بعث الله نبيه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكمّله بأحسن الاخلاق فقال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، سئلت عائشة عن خلقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت كان خلقه القرآن، وكان قرآنا يمشي على الأرض، وقد جمع الله له مكارم الاخلاق فقال تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) [الأعراف: ١٩٩]

قال جعفر بن محمد: "أمر الله نبيه بمكارم الاخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق من هذه الآية"، وما ساءت أخلاق المسلمين الا بابتعادهم عن القرآن والتأسي بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأمر الله تعالى بحسن الخلق من أيام الدعوة الاولى وما من سورة مكّية الا وهي تأمر الناس بالتوحيد وتحثهم على مكارم الاخلاق وذلك لما لحسن الخلق من أثر عظيم في تأليف قلوب الناس على الإسلام، لأن الفطرة السليمة تميل إلى اتباع صاحب الخلق الحسن، فالأخلاق الحسنة تؤثر في الاعداء قبل الاصحاب، وما أخطر على الدعوة من داعية لا يتمثل بخلق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أصول الاخلاق الفاضلة وأنها تقوم على أربعة أركان فقال: "الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل"^(١). وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعلى المنازل الانسانية في هذه الصفات.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكفّ الاذى، والحلم والاناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة. وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبر الناس وأحلم الناس. ومن صفاته في الكتب السابقة أنه لا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر.

(١) ينظر، مدارج السالكين، (ج ٢ / ص ٢٩٤)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظٌ الْحَاشِيَّةُ فَأَذْرَكَهُ إِعْرَابِيٌّ فَجَبَدَهُ بِرِدَائِهِ جَبْدَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْدَتِهِ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ مُرِّي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"^(١)

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء؛ وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

وكان ﷺ عفيفا حيا في قوله وفعله عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»^(٢)

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الاخلاق والشيم، وعلى البذل والندی، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم، كما قال النبي ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(٣). وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه. قَالَ الْبَرَاءُ: «كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لِلَّذِي يُحَازِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ»^(٤).

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الافراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الامساك والاسراف والتبذير، وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وكان من عدله صلى الله عليه وسلم يوصي بالعدل ويقيمه ولو على أقرب الناس اليه، وقطع يد المرأة المخزومية وبنى مخزوم من قريش ولم يرده عن إقامة الحد عليها أتمها من قريش، ولم ترده شفاعة حبه أسامة بن زيد وخطب الناس بعد أن قطع يدها وقال: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَتَمُّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا

(١) صحيح البخاري، (ج ٧ / ص ١٤٦)، رقم ٥٨٠٩

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٢٦)، رقم ٦١٠٢

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٢٨)، رقم ٦١١٤

(٤) صحيح مسلم، (ج ٥ / ص ١٦٨)، رقم ٤٧١٦

سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١)

وكان صَلَّى الله عليه وسلم أجود الناس وأجود بالخير من الريح المرسله. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ"^(٢)

*** عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِيَنِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم: ٤] قُلْتُ: فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَبَلَّ، قَالَتْ: لَا تَفْعَلْ، أَمَا تَقْرَأُ: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [الأحزاب: ٢١]؟ فَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ^(٣).

فأخلاقه أزكى الاخلاق وأشرفها وأفضلها كان صَلَّى الله عليه وسلم احسن الناس خلقا وخلقاً، وألينهم كفا وأطيبهم ريحا، وأحسنهم عشرة، وأكثرهم تواضعا وأشدهم لله خشية. وكان أجود الناس بالخير، يمينه كالريح المرسله. وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه، تارة بطعامه، وتارة بلباسه. وكان ينوع في أصناف عطائه وصدقته، فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة، وتارة بالهدية، وتارة بشراء الشيء ثم يعطي البائع الثمن والسلعة جميعا، كما فعل ببيعير جابر وتارة كان يقترض الشيء فيرد أكثر منه وأفضل وأكبر، ويشترى الشيء فيعطي أكثر من ثمنه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها، تلطفا وتنوعا في ضروب الصدقة والإحسان بكل ممكن، وكان من خالطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من الساحة والندى^(٤)

(١) صحيح مسلم، (ج ٥ / ص ١١٤)، رقم ٤٥٠٦

(٢) صحيح مسلم، (ج ٧ / ص ٧٢)، رقم ٦١٤٦

(٣) مسند أحمد، (ج ٦ / ص ٩١)، رقم ٢٤٦٤٥، تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح

(٤) ينظر، ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، (ج ٢ / ص ٢٢)

٣٢. معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)

[النساء: ٨٢]

لقد أرسل الله تعالى الرسل وأيدهم بالمعجزات الحسية المادية والآيات الدالة على صدقهم فيما يبلغون عن ربهم، والمعجزة: هي الامر الخارق للعادة المقرون بالتحدي الدال على صدق الانبياء-عليهم الصلاة والسلام-الواقع على وفق دعوى المتحدي بها مع أمن المعارضة وسميت معجزة لعجز البشر عن الاتيان بمثلها.

ولقد أيد الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالمعجزة الكبرى القرآن «كلام الله تعالى المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- المتعبد بتلاوته».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)

قال الشعراوي رحمه الله: "وفي القرآن خاصية تفرّد بها عن الكتب السابقة، حيث نزل جامعاً بين أمرين: أنه منهج سماوي يُنظّم حركة الحياة، وهو في الوقت نفسه معجزة مصاحبة للمنهج لا تنفك عنه إلى قيام الساعة"^(٢).

فهو المعجزة الباقية الخالدة التي تحدى بها الامم من زمن قريش الى أن تقوم الساعة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة.

قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ نَقَوْلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) [الطور: ٣٣-٣٤] وقال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [هود: ١٣]

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٩٢)، رقم ٤٠٢

(٢) تفسير الشعراوي، (ج ١٤ / ص ٨٧٢٨)

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [يونس: ٣٨] ثم أخبر تعالى بعجز الجنّ والأنس عن الإتيان بمثله الى يوم القيامة قال تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) [الإسراء: ٨٨]

حكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية، فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أو يعد هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) [القصص: ٧]، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

فالقرآن معجز في بلاغته وفصاحته ونظمه وأسلوبه وإخباره بالغيوب المستقبلية وإخباره عن الامم السابقة والقرون البائدة واعجازه في هديه وتشريعه بالاضافة الى الاعجاز العلمي الذي ظهر حديثا ففي القرآن أكثر من ألف آية تتحدث عن معالم هذا الكون ولفت الانظار الى قدرة الله وتفرده بالربوبية والالوهية واثبات البعث والنشور.

أما المعجزات الحسية: ما من معجزة لنبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام الا لنبينا صلى الله عليه وسلم مثلها مع زيادة شرف له شرفه الله تعالى، فكلم الله تعالى موسى في الارض وكلم نبينا في السماء السابعة وفيها زيادة رفعة وانشق البحر لموسى وانشق القمر لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والمعجزات التي شاهدها الصحابة رضي الله عنهم لا تكاد تحصى مثل حنين الجذع وتكثير الطعام وإنزال المطر ببركة دعائه ونبع الماء من بين أصابعه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ، فَجَهَشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ: «مَا لَكُمْ؟» قَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلَا نَشْرَبُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرِّكْوَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، كَأَمْثَالِ الْعِيُونِ، فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا قُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ

أَلْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً" (١)

قال المزني: "نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجاره معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم" (٢).

وقد حصل لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم الكثير من الكرامات وكل كرامة لولي هي معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم ما حصلت لهم الكرامة الا باتباعه، ومن كرامات الأولياء من هذه الامة عن أنس رضي الله عنه: "أَنَّ رَجُلَيْنِ، خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، حَتَّى تَفَرَّقَا، فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا" (٣)

*عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: "أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي يَوْمٍ جُمُعَةٍ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَرَعَةً، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا وَضَعَهَا حَتَّى تَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مَنِيرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى حِجَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَمِنَ الْغَدِ وَبَعْدَ الْغَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ، حَتَّى الْجُمُعَةِ الْآخَرَى، وَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ - أَوْ قَالَ: غَيْرُهُ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَهْدِمُ الْبِنَاءَ وَغَرِقَ الْمَالُ، فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا» فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلَّا انْفَرَجَتْ، وَصَارَتِ الْمَدِينَةُ مِثْلَ الْجُبُوبَةِ، وَسَالَ الْوَادِي قَنَاءً شَهْرًا، وَلَمْ يَجِيءْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْإِخْرَجِ بِالْجُودِ" (٤).

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... تَهْلُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٩٣)، رقم ٣٥٧٦

(٢) القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، (ج ٢ / ص ٢٨١)

(٣) صحيح البخاري، (ج ٥ / ص ٣٦)، رقم ٣٨٠٥

(٤) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ١٢)، رقم ٩٣٣

٣٣. هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال: ٣٠].

مما اعتاد عليه أهل الباطل أن يواجهوا أهل الحق بثلاث أسلحة هي السجن أو القتل أو الاخراج من الديار، وهذه الفكرة تتكرر على مرّ الأزمان والعصور وملازمة لدعوة الانبياء والرسل وأتباعهم، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) [ابراهيم: ١٣-١٤]

إبراهيم عليه الصلاة والسلام ترك دياره من ظلم أهل الباطل (وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [العنكبوت: ٢٦]

لوط عليه السلام أخرجه قومه: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) [النمل: ٥٦]، والجريمة هي أنهم أناس يتطهرون.

شعيب عليه السلام وأتباعه: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ) [الأعراف: ٨٨]

وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاءت به خديجة إلى ورقة بن نوفل أخبره بأن قومه سيخرجونه فقال له وَرَقَةُ: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْ خُرْجِي هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ الْاَعُودِي، وَأَنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا"^(١). فكل من يتبع الرسل عليهم الصلاة والسلام لا بد أن يعادى ممن خالفهم.

ومكر به كفار قريش ليقتلوه واضطروه للخروج وقاموا بتعذيب أصحابه وقتل بعضهم. وقابلهم الله على مكرهم أن مكر بهم وجعل خروجه نصرا للإسلام على أعدائه.

فالهجرة تقديرًا ربانيًا حكيماً للحفاظ على الدعوة وتربية أهلها في مجتمع منفصل تتوافر فيه أسباب بناء الانسان وإعداده الاعداد السليم الذي يليق بحاملي الدعوات الربانية. ونستطيع أن نتلمس من خلال الآيات وسيرة المصطفى بعض مقاصدها:

أولاً: إظهار الولاء للمسلمين والبراءة من المشركين. فبالهجرة يظهر الولاء المطلق لهذا الدين وربط مصير المسلم المهاجر بالدعوة وأهلها، والبراءة من المشركين، ولذلك فإن أظهر علامات الولاء والبراء هي الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم. وذلك لقوله تعالى: (فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ). [النساء: ٨٩] قَالَ: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمُشْرِكِينَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِمَ قَالَ: «لَا تَرَاءَى نَارَهُمَا»^(١)

ثانياً: الهجرة علامة على حب الله ورسوله وتقديمه على حب الدنيا وملذاتها قال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [التوبة: ٢٤]

ثالثاً: ضرورة انفصال المسلم عن الجاهلية ومعتقداتها وعباداتها وأخلاقها حتى لا تفسده. فإنها لا تقبل من المسلم أن يكون هو في حاله وهي في حالها، فإذا كانت ظاهرة عليه فإما أن تقتله أو تعيده خادماً لها. قال تعالى: (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا) [الكهف: ٢٠]

فلذلك ذم الله تعالى القاعدين عن الهجرة وسأهم ظالمي أنفسهم وذلك لتكاسلهم عن الهجرة حباً بالأموال والاطمان وقال: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء ٩٧] وفي هذا إشارة كافية لمن يرغب في

(١) الطبراني، المعجم الكبير، (٢/ ٣٠٣)، رقم ٢٢٦٤، وقال الالباني: حسن، الصحيحة ٦٣٦

السكن في دار الكفر واستبدالها بدار الاسلام فإنه لا يأمن على دينه أو أبنائه في دار الكفر، فلا بدّ أن يتلخّ بأوساخ ذلك المجتمع مهما كان حريصا على دينه.

قال ابن حجر: ” فلا تجب الهجرة من بلد قد فتحه المسلمون أما قبل فتح البلد فمن به من المسلمين أحد ثلاثة الأول قادر على الهجرة منها لا يمكنه إظهار دينه ولا أداء واجباته فالهجرة منه واجبة الثاني قادر لكنه يمكنه إظهار دينه وأداء واجباته فمستحبة لتكثير المسلمين بها ومعونتهم وجهاد الكفار والأمن من غدرهم والراحة من رؤية المنكر بينهم الثالث عاجز يعذر من أسر أو مرض أو غيره فتجوز له الإقامة فإن حمل على نفسه وتكلف الخروج منها أجر“^(١)

رابعاً: من مكر أهل الباطل إخراج الرسل وأتباعهم ومن مكر الله تعالى بهم أن عملهم هذا سبب لإنزال العقوبات بهم فهم يأتون بأسباب هلاكهم ولا يشعرون. وإنزال النصر لا يمكن أن يكون والمجتمع المسلم مختلط بالمجتمع الجاهلي فلا تنزل العقوبة بالكفار رحمة بالمسلمين الذين معهم، لذلك لم يعاقب الله تعالى مشركي قريش وبعض المسلمين بين أظهرهم، بالرغم من تقصيرهم بالهجرة ووجود معذورين منهم قال تعالى: (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمُ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَوْ تَزَيَّلُوا الْعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [الفتح: ٢٥]، [لو (تَزَيَّلُوا) أي لو تميّزوا بافتراق، تباينوا وتفرّقوا].

خامساً: إقامة الحياة الاسلامية بكلّ تفاصيلها لا يمكن أن تكون الا بمجتمع إسلامي مؤمن بهذه العقيدة شرعة ومنهاجا. فهذا المجتمع الاسلامي تتحقّق مقاصد الشريعة بأحسن صورها وهي المقاصد الضرورية في حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، فإذا كان المجتمع غير مؤمن بدين الله كثرت الانتهاكات لهذه المقاصد.

لكلّ هذه الاسباب والحكم التي علمناها وكثير غيرها لم نعلمها أمر الله تعالى بالهجرة.

(١) فتح الباري، (ج٦/ ص ١٩٠)

ومدح الله المهاجرين ومدح من أعانهم على الهجرة من الانصار في كثير من الآيات القرآنية وقال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: الآية ١٠٠]، ووعدهم جميعا بالمغفرة والرحمة (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الانفال: ٧٤]

**** قال تعالى: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [النحل: ٤١]**

عَنْ مُجَاشِعِ بْنِ مَسْعُودِ الْبُهْرِيِّ، أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِابْنِ أُخِيهِ لِيُبَايِعَهُ عَلَى الْهِجْرَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا بَلَّ يُبَايِعُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ» قَالَ: «وَيَكُونُ مِنَ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ»^(١).

لقد انقطعت الهجرة بفتح مكة واقامة الدين فيها ومن فضل الله تعالى على من جاء بعد المهاجرين ان جعل بيعتهم على الاسلام ولهم اجر اتباعهم والسير في طريقهم.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٢).

أي أن المسلم الكامل في إيمانه ودينه هو من حسنت معاملته للناس ابتغاء مرضاة الله، فحافظ على حقوق خلقه، وكف أذاه وشره عن عباده، « والمهاجر الكامل الصادق في هجرته هو من ترك كل ما نهى الله عنه من المعاصي، سواء كانت من الأقوال الكريهة، أو الأفعال الذميمة.

(١) المسند، (ج ٣/ص ٤٦٨)، رقم ١٥٨٨٧، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨/ص ١٠٢)، رقم ٦٤٨٤

٣٤. شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ) [الانباء ٢٦-٢٨]

لقد تفضل الله تعالى على عبادة المؤمنين بشفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو صاحب الشفاعة الكبرى وحامل لواء الحمد والمقام المحمود له يوم القيامة. ولا ينكر شفاعة النبي الا أهل البدع والضلال. فالشفاعة ثابتة بنص الكتاب والسنة فمعتقد أهل السنة والجماعة أن الانبياء يشفعون، والشهداء يشفعون، والصالحين يشفعون، وأفراد من الامّة يشفعون، والقرآن والصيام يشفعان، وتبقى بقيّة لا تنالهم الشفاعة، فيخرجهم رب العالمين برحمته، ولا يبقى في النار الا الكفرة بعد خروج العصاة.

والنبي صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الشفاعة الكبرى يوم القيامة. عن ابن عمر رضي الله عنهما يقول: "إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًّا كُلُّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ يَا فُلَانٍ اشْفَعْ يَا فُلَانٍ اشْفَعْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمُحْمَدَ"^(١). ولا ينال الشفاعة الا من كان من أهلها الذين فيهم شروطها وهي:

أولاً: التوحيد شرط الشفاعة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا »^(٢)

فالتوحيد اهم اسباب الشفاعة واسعد الناس بالشفاعة من وحّد الله خالصا من قلبه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَ مِنْكَ »

(١) صحيح البخاري، (ج ٦ / ص ٨٦)، رقم ٤٧١٨

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ١١١)، رقم ٥١٢

لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ»^(١).

ثانيا: الاذن في الشافع والمشفوع له من الله: إن الله تعالى هو الذي يشفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي يشفع الناس بعضهم ببعض فهو الاول والاخر، وهي كرم منه عز وجل وهو الكريم لرفع منزلة الشافع أمام الخلائق بتجاوزه عن المشفوع له ولا تحصل الا بإذن الله (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [آية الكرسي]

ثالثا: رضاه عن المشفوع: كما قال تعالى: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) [الأنبياء: ٢٨]، والله تعالى لا يرضى من العمل إلا ما كان خالصا له، موافقا لشرعه. وهذه الشفاعة الثابتة، قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) [طه: ١٠٩]

وليس الناس هم الذين ينصبون شفعاء من أنفسهم وهذه شفاعة منفية قال تعالى (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبًا أُولُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ. قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [الزمر: ٤٣-٤٤]، عن أنس بن مالك قال حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ لَسْتُ هَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ هَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ هَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ هَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا هَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذِنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مُحَامِدُ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمُحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ وَسَلْ تُعْطَى وَاشْفَعْ تُشْفَعُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرَجَ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمُحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ وَسَلْ تُعْطَى وَاشْفَعْ تُشْفَعُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ

انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان فأخرجه فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرته ساجدا فيقول يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط وأشفع تُشفع فأقول يا رب أمي أمي فيقول انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبه خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل»^(١)

***عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»^(٢)

يقول ابن القيم^(٣): "في إجابة المؤذن خمس سنن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتمل حديث عبد الله بن عمرو على ثلاثة منها والرابعة أن يقول ما رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا. غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»^(٤)، والخامسة أن يدعو الله بعد إجابة المؤذن وصلاته على رسوله صلى الله عليه وسلم وسؤاله له الوسيلة لما في سنن أبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن عمرو أن رجلاً قال يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قُلْ كَمَا يَقُولُونَ فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَسَلْ تُعْطَهُ»^(٥). «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(٦). اللهم إنا نسألك شفاعة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١٤٦)، رقم ٧٥١٠

(٢) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٤)، رقم ٨٧٥

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، (ص: ٣٧٣)

(٤) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٤)، رقم ٨٧٧

(٥) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٢٠٧)، رقم، وقال الألباني: حسن صحيح

(٦) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٤٦)، رقم ٣٣٦٩

٣٥. حقوق النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [النور: ٥٦]

لقد أرسل الله تعالى رسوله محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين فقال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: ١٠٥]

ولقد فرض الله تعالى على هذه الأمة جملة من الحقوق والواجبات التي تثبت صدق شهادتهم بأن محمدا رسول الله التي تعني في مجملها: "طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر والا يعبد الله الا بما شرع". ولزاما على كل مسلم أن يعرف تلك الحقوق ويلتزم بها اعتقادا وقولا وعملا ويتعبد لله بها ليفوز برضى الله سبحانه وتعالى. ومن هذه الحقوق:

أولا: الايمان به وتصديقه فيما جاء به ولا يتم الايمان بالله من دون الايمان به ولا تحصل النجاة والسعادة من دون اتباعه، إذ هو الهادي للطريق إلى الله سبحانه، قال تعالى: (فَأْمِنُوا

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [التغابن: ٨]

ثانيا: وجوب محبته ﷺ: عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَا يُؤْمِنُ

أَحَدُكُمْ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١)

ثالثا: تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وإجلاله وتوقيره: قال تعالى: (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الأعراف:

١٥٧] قال البيهقي: "ولا خلاف في أن التعزير ها هنا التعظيم وقال تعالى: (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الفتح: ٩]، فأبان أن حق رسول

الله ﷺ في أمته أن يكون معززا موقرا مهيبا ولا يعامل بالاسترسال والمباسة كما يعامل الاكفاء بعضهم بعضا، وهذه منزلة فوق المحبة، لأنه ليس كل محب معظما... فحق علينا إذاً أن نحبه ونجله ونعظمه ونهيبه أكثر من إجلال كل عبد سيده وكل ولد والده، وبمثل

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٢)، رقم ١٥

هذا نطق الكتاب، ووردت أوامر الله جل ثناؤه^(١)

رابعاً: وجوب طاعته ﷺ والتحاكم إليه والرضا بحكمه: فمن آمن به وأحبّه وعظّمه وجب عليه طاعته ولا تتم طاعة الله تعالى الا بطاعته فجعل تعالى طاعة رسوله طاعة له، فقال: (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) وفي طاعته الهداية (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)، والرحمة (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) والتحاكم اليه والى شريعته علامة على صدق الايمان قال تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء: ٦٥]

خامساً: وجوب اتباعه وامتهال سنته والاقتراء بهديه في أقواله وأفعاله وأحواله، وهذا علامة على حبّ الله عزّ وجلّ (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [آل عمران: ٣١]، أي تدعون محبته وتريدون مودته (فَاتَّبِعُونِي) أي: اتبعوا شريعتي وستي (يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)، وحبه منة عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم وذلك قوله: (وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، قال صلى الله عليه وسلم: «... فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢) وقال ﷺ «فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٣)

قال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الأنفال: ٣٣]، الرسول ﷺ هو الامان الأعظم ما عاش وما دامت سنته باقية فهو باق فإذا أميتت سنته فانتظر البلاء والفتن.

سادساً: الصلاة عليه والتسليم عليه كلما جرى ذكره قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦] عَنْ أَنَسِ

(١) البيهقي، شعب الايمان، (ج ١ / ص ٥٢٧)

(٢) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٣٢٩)، رقم ٤٦٠٩، وقال الألباني: صحيح

(٣) صحيح البخاري، (ج ٧ / ص ٢)، رقم ٥٠٦٣

بِنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ »^(١). اللهم صل على محمد وآل محمد.

من عرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم حق المعرفة احبه ومن احبه طلب مرافقته في الجنة كما في حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال كنت ابيت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي « سل » فقلت أسألك مرافقتك في الجنة. قال « أو غير ذلك » قلت هو ذلك. قال « فأعني على نفسك بكثرة السجود »^(٢)

وبعد ان سأله اعرابي ناقة يركبها وأعزها يجلبها رغب النبي صلى الله عليه وسلم محبيه على سؤال مرافقته في الجنة، قال ﷺ: « أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟ قالوا: يا رسول الله وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: « إن موسى عليه السلام لما سار ببني إسرائيل من مضر ضلوا الطريق فقال: ما هذا؟ فقال علماءهم: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا مؤثقا من الله أن لا نخرج من مضر حتى ننقل عظامه معنا قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قال: عجوز من بني إسرائيل فبعث إليها فاتته فقال: ذليني على قبر يوسف قالت: حتى تعطيني حكمي قال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة فكره أن يعطيها ذلك فأوحى الله إليه: أن أعطيها حكمها فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء فقالت: أنصبوا هذا الماء فأنصبوه فقالت: احتفروا فاحتفروا فاستخرجوا عظام يوسف فلما أقلوها إلى الأرض وإذا الطريق مثل ضوء النهار »^(٣)، أي كونوا مثل هذه العجوز ذات المهمة العالية التي تطلب اعلى المراتب، وهي مرافقة موسى عليه السلام في الجنة ولم تطلب الدنيا الفانية، مثل طلب الاعرابي الذي لم يكن همه الا ناقة يركبها او اعزها يجلبها.

(١) المسند، (ج ٣ / ص ١٠٢)، ١٢٠١٧، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح اسناد حسن

(٢) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٥٢) رقم ١١٢٢

(٣) الألباني، التعليقات الحسان، (ج ٢ / ص ١٤٥)، رقم ٧٢١، وقال: صحيح لغيره، [العرب يطلقون العظام ويريدون البدن كله، لأن الله حرم على الأرض ان تأكل اجساد الأنبياء]

* عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ »^(١)

ومن علامات ذلك كمال الطاعة، وتمام المتابعة، قال ابن رجب رحمه الله : "فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه، أو جب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى ما يرضي الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك، فإن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله، مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة"^(٢)

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّاعَةِ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ: « وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا » قَالَ لَا شَيْءَ إِلَّا أَنِّي أَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قَالَ أَنَسٌ فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرِحْنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ قَالَ أَنَسٌ فَأَنَا أَحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ^(٣)

وفي هذا الحديث بشارة للمحيين الصادقين الذين يعملون على قدر استطاعتهم وقصرت بهم أعمالهم عن اللحاق بنبيهم والصالحين من أمته، فالله يتفضل عليهم برحمته بإدخالهم مع من يحبون من عباده الصالحين. اللهم ارزقنا حبك وحب نبيك وأهل بيته وصحابته والصالحين من أمته وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٢)، رقم ١٦

(٢) جامع العلوم والحكم، (ج ٢ / ص ٣٩٦)

(٣) صحيح البخاري، (ج ٥ / ص ١٢)، رقم ٣٦٨٨

٣٦. حقوق أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا). [الاحزاب: ٣٢-٣٣]

لم تخف منزلة أهل بيت النبي ﷺ على أي مسلم يشهد بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا، فهم جمعوا بين شرف القربى وشرف الصحبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فهم أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرًا وحسبًا ونسبًا ويكفي هذه المنزلة في معرفة حقوقهم وعلو قدرهم عند المسلمين.

روى البخاري في صحيحه أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه: "والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب إليّ أن أصل من قرابتي" (١).

فمن هم أهل البيت؟ أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم هم الذين وردوا في حديث زيد بن أرقم الذي رواه مسلم والذي خطب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديث فقال: "أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي؟ قال له حصين: ومن أهل بيته؟ يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقیل، وآل جعفر، وآل عباس قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم (٢).

(١) صحيح البخاري، (ج ٥ / ص ٩٠)، رقم ٤٠٣٥

(٢) صحيح مسلم، (ج ٧ / ص ١٢٢)، رقم ٦٣٧٨

إذن هم الذين حرّمت عليهم الصدقة، وبهذا القول قال جمهور العلماء. وهم أزواجه وذريّته، وكلّ مسلمٍ ومسلمةٍ من نَسَلِ عبدِ المطلب، وهم بنو هاشم بن عبد مناف.

والدليل على أنّ زوجات الرجل من أهل بيته قول الله تعالى حاكيا قول الملائكة عن إبراهيم وزوجته: (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) [هود: ٧٣]، ومن المعلوم أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكن معه الا زوجته.

وقول الله تعالى عن موسى: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) [القصص: ٢٩] وليس مع موسى الا زوجته.

وفي حديث الافك الذي رواه البخاريّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي آذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي»^(١) والمقصود في هذا الحديث عائشة رضي الله عنها.

ودخول عليّ وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم في الآية دلّت عليه السُّنَّةُ في حديث عائشة الذي رواه مسلم قالت عائشة: «خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مَرَحَلٌ، مِنْ شَعْرِ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)»^(٢)

وخير القول كلام الله تعالى في زوجات النبي ﷺ: (النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) [الاحزاب: ٦]، هذا القول الكريم، يسمعه المؤمن فيمتلئ قلبه حبا لأمهاته وفخرا بهن وإعظاما وإجلالا لمن شارك الرسول صلى الله عليه وسلم في ضرائه

(١) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ١٧٣)، رقم ٢٦٦١

(٢) صحيح مسلم، (ج ٧ / ص ١٣٠)، رقم ٦٤١٤

وسرائه، وصبرن معه على شظف العيش ومشاق الدعوة وتبليغ الرسالة.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «شرف الله تعالى ازواج النبي صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن امهات المؤمنين اي: في وجوب التعظيم والمبرة والاجلال وحرمة النكاح على الرجال وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الامهات»^(١)

قال ابن قدامة المقدسي: «ومن السنة الترضي عن ازواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم امهات المؤمنين المطهرات المبرآت من كل سوء افضلهن خديجة بنت خويلد وعائشة الصديقة بنت الصديق التي برأها الله في كتابه زوج النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة فمن قذفها بها برأها الله منه فقد كفر بالله العظيم»^(٢)

اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ايثارا منهن لذلك على الدنيا وزينتها فأعد الله لهن على ذلك ثوابا جزيلا واجرا عظيما قال تعالى: (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) [الاحزاب: ٢٨ - ٢٩]

عقيدة أهل السنة والجماعة وسطٌ بين الافراط والتفريط، والغلوّ والجفاء في جميع مسائل الاعتقاد، ومن ذلك عقيدتهم في آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنهم يتولّونهم جميعا قرابته وذريته وزوجاته، يُحبّونهم، ويثنون عليهم، ويُزولونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والانصاف، ويرون أنّ شرف فضل النسب تابع لشرف الايمان، ومن جمع الله له بينهما فقد جمع له بين الحُسنيين، ومن لم يوفق للإيمان، فإن شرف النسب لا يفيدُه شيئا، وقد قال الله عزّ وجلّ: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)، قال ﷺ: « وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »^(٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٤ / ص ١٢٣)

(٢) لمعة الاعتقاد، ص ٢٩

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٧١)، رقم ٧٠٢٨، ينظر، العباد، عبد المحسن، فضل اهل البيت

قال الشافعي:

يا آل بيت رسول الله حبكم.... فَرَضَ مِنَ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ أَنْزَلَهُ
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم.... مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لَا صَلَاةَ لَهُ
** قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ

وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الاحزاب: ٥٦]

عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه، أنهم قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نَصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ
عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ
مَجِيدٌ»^(١)

حب آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وازواجه وذريته والصلاة عليهم واجب
على كل مسلم، لأمر النبي ﷺ عن ابن عباس، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا
يَعْزُدُكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ، وَأَحِبُّوا لِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي»^(٢)

فإن من محبة الله وطاعته محبة رسوله وطاعته، ومن محبة رسوله وطاعته محبة من أحبه
الرسول وطاعة من أمر الرسول بطاعته. فالذي يدعي حب الله ورسوله إن لم يعمل وفق
أمر الله ورسوله فهو كاذب في دعواه، فالمشهود من كل محب ان يرضي من أحب، فنجد
من يحب إنسانا يسعى بكل جهوده ليرضيه ويعمل بما يريد حتى يرضى، واکبر برهان على
المحبة اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) [آل عمران: ٣١-٣٢]

وعلو مكانتهم عند اهل السنة، (ج ١ / ص ١٣)

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٤٦)، رقم ٣٣٦٩

(٢) الحاكم، المستدرك، (ج ٣ / ص ١٦٢)، رقم ٤٧١٦، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح

٣٧. الحسن بن علي رضي الله عنه السيد الذي جمع كلمة الامة

قال تعالى: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) [الشورى: ٢٣]

الامة الاسلامية امة ولودها القابلية على إنجاب الرجال وصنع القادة لأنها مبنية على عقيدة ربانية أساسها العلم واليقين والاخلاص والصدق والمحبة والانقياد والقبول، منزلة بوحى من الله على سيد ولد آدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

من هؤلاء القادة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الحسن بن علي رضي الله عنه، رجل تربى على عين النبي ﷺ منذ أول يوم من ولادته، حيث سماه النبي ﷺ حسنا. فهو اسم على مسمى فهو يحمل معاني هذا الاسم بكل تفاصيلها، ويحمل صفات من سماه خلقاً وخلقاً، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: "صَلَّى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعَصْرَ، ثُمَّ خَرَجَ يَمْشِي، فَرَأَى الْحَسَنَ يَلْعَبُ مَعَ الصَّبِيَّانِ، فَحَمَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، وَقَالَ: يَا بِي، شَبِيهُ بِالنَّبِيِّ لَا شَبِيهُ بِعَلِيِّ وَعَلِيٌّ يَضْحَكُ" (١)

وصفه النبي ﷺ بالسيادة في الدنيا وفي الآخرة، عن أبي بكر، سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى الْمَنِيرِ وَالْحَسَنُ إِلَى جَنْبِهِ، يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ مَرَّةً وَإِلَيْهِ مَرَّةً، وَيَقُولُ: «ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (٢). وقوله، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» (٣)

وأى شرف أعظم من شرف من سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيّدا؟ والسيد من ساد يسود إذا فاق قومه في محامد الخصال حتى قدموه على أنفسهم، واعترفوا له بالفضل،

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٨٧)، رقم ٣٥٤٢

(٢) صحيح البخاري، (ج ٥ / ص ٢٦)، رقم ٣٧٤٦

(٣) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٦٥٦)، رقم ٣٧٦٨، وقال: حسن صحيح

وملاكه بذل الندى، وكفّ الاذى، واحتمال العظام، وأصالة الرأي، وفصاحة اللسان. والسيد الحليم وقالوا السيد التقى وقال قوم السيد الكريم على ربه.

والسيد في اصطلاح الشرع من يقوم بإصلاح حال الناس في دنياهم وأخراهم معا. وقد كان الحسنُ جامعا لخصال السؤدد الشرعيّ، فهو السيد بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ تخصّ البشر فهو سيد في دينه وورعه وخلقه وتواضعه وكرمه وحلمه وعفوه وتسامحه.

ومما يشهد بذلك وأبرز دليل على سيادته رضي الله عنه يتمثل بتنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فلم يكن قرار الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما حدثا عابرا ولا قرارا آنيا خاضعا لهوى النفوس والمصالح الشخصية، ولكن كان قرارا تاريخيا نابعا من عقيدة صادقة انبنى عليها تصوّر كامل للحياة الاسلاميّة وتفصيلها، وتقديم مصلحة الامة ووحدها على ما تريده النفس وتمواه من حبّ الدنيا والسلطان، ويمكن أن نلمح من خلال هذا الصلح ظهور معجزتين للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: المعجزة الاولى: وصف النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بالسيد، «ابني هذا سيّد، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» تحقّق هذا الحديث في أسمى صورته في الامام الحسن عليه السلام حيث ثبتت له السيادة قولا وعملا، وحسبك من ذلك أن الله تعالى أصلح به بين فئتين من المؤمنين بتنازله عن حقّه بالخلافة لجمع كلمة الامة وإعلاء رايها من جديد بعد أن كبت كبوتها الاولى بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

والمعجزة الثانية: إنّ خلافته تمام الثلاثين سنة التي ذكرها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الحديث المروي عن سفيّنة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «خِلافةُ النبوة ثلاثون سنة، ثمّ يؤتي الله الملك من يشاء، أو ملكه من يشاء»^(١)

قال ابن كثير رحمه الله: "وهكذا وقع سواء فإنّ أبا بكر رضي الله عنه كانت خلافته

(١) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٣٤٣)، رقم ٤٦٤٩، وقال الالباني: حسن صحيح

سنتين وأربعة أشهر الا عشر ليال وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة الا اثنا عشر يوما وكانت خلافة علي بن أبي طالب خمس سنين الا شهرين، قلت: وتكمل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحو من ستة أشهر حتى نزل عنها معاوية عام أربعين من الهجرة^(١)

من ذلك يظهر حرص أهل بيت النبي على العمل بالسنة وفي أحلك الظروف، عند الغضب والرضا وعند المصائب والشدائد، وحرصهم على وحدة المسلمين وألفتهم فالحسن بن علي رضي الله عنه علم من أعلام النبوة، وتركه الملك وهو بيده وحقه لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين ومصالحة الأمة، حالة لم يشهد لها التاريخ مثيلا لأنها معجزة من معجزات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمعجزات قليلا ما تتكرر. فمن أراد الاقتداء بآل البيت فها هي أقوالهم وأفعالهم.

****عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُوقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ، فَانْصَرَفَ فَانْصَرَفْتُ، فَقَالَ: «أَيْنَ لُكْعٌ -ثَلَاثًا- ادْعُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ». فَقَامَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَمْشِي وَفِي عُنُقِهِ السَّخَابُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَقَالَ الْحَسَنُ بِيَدِهِ هَكَذَا، فَالْتَزَمَهُ { وفي الرواية الاخرى عن أبي هريرة أيضا فَجَاءَ يَشْتَدُّ حَتَّى عَانَقَهُ }، وَقَبَّلَهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ، وَأَحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ» وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، بَعْدَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ^(٢). { لكع : الصغير، السخاب: قلادة تتخذ من قرنفل وطيب ونحوه }**

اوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله، وحب اهل بيت النبي من الدين، وحبهم من حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، اللهم انا نشهدك على حبا لنبيك واهل بيته ونبغض من يبغضهم، فتقبل منا وادخلنا برحمتك في عبادك الصالحين يا ارحم الراحمين.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج٦ / ص ٢٢٠)

(٢) صحيح البخاري، (ج٧ / ص ١٥٩)، رقم ٥٨٨٤

٣٨. شواهد الحق بين الجفاء والغلو في استشهاد

الحسين رضي الله عنه

قال تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) [الأحزاب ٢٣].

عندما تضعف الامم أو تنتكس تستذكر بطولات رجالها فتصحو وتنهض، يموت الرجال ليقى الاسلام وتحيا القلوب بالعقيدة والسنة، وينعم الناس وتخضر الارض بدين الرحمة ونبي الرحمة، ولا تنازل عن أي أمر من أوامر الشريعة أو تعدي حدودها. كان الحسين رضي الله عنه من أولئك الرجال الذين تربوا على العقيدة الصحيحة والعمل بالسنة تحت كنف النبي صلى الله عليه وسلم، وقد شرق الناس وغربوا بعد الملحمة البطولية التي استشهاد فيها الحسين ومن معه فمن الناس من انساق وراء العاطفة فأخذته إلى المغالاة فيه حتى عبده من دون الله ومنهم من حكمته الظروف السياسية حتى عاداه وتبرأ منه، ومن بين هؤلاء وهؤلاء من بقي ملتزما بالأحكام الشرعية لم يتأثر بالعواطف ولم يلتفت إلى السياسة فأعطى الحسين حقه وسار على طريقه وتبرأ من قتلته ولم يحكم عليهم بهوى النفس والمصلحة الخاصة. فلماذا خرج الحسين إلى العراق ومن المسؤول عن قتله ومن قتل معه وما هو موقف أهل السنة من قتله؟

السؤال الأول: لماذا خرج الحسين إلى العراق؟

كان خروج الحسين رضي الله عنه أمرا مقدورا من الله سبحانه وتعالى لحكمة هو يعلمها هذا الخروج كان الدافع له أسباب كثيرة منها:

أولا: نقض شروط الصلح الذي تم بين الحسن بن علي رضي الله عنهما وبين معاوية رضي الله عنه والتي نص فيها على جعل الامر شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية وبعد تولية يزيد نقض هذا الشرط ولم يعد في عنق الحسين بيعة توجب عليه السمع والطاعة ليزيد^(١).

(١) الصلابي، الدولة الاموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، (ج٢/ ص ١٣٣)

ثانيا: تتابع الكتب من أهل الكوفة يطلبون منه القدوم ليكونوا له أنصارا. من الاسباب التي دفعت الحسين رضي الله عنه للخروج إلى الكوفة. وشعور الحسين رضي الله عنه بالخطر عليه في مكة بعد رفضه بيعة يزيد فهو يعلم أنّ يزيد لم يتركه حتى يبيع سواء كان راضيا أو كارها، فلذلك خرج من مكة حتى لا تستحلّ بدمه فقال لابن عباس عندما نصحه بعدم الخروج: «لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحبّ إليّ من أن أقتل بمكة وتستحلّ بي»^(١).

السؤال الثاني: من المسؤول عن قتل الحسين رضي الله عنه؟

أولا: الذي ولي قتل الحسين سنان بن أنس النخعيّ والذي حرّض الجيش عليه وحمل بهم عليه شمر بن ذي الجوشن. وعمر بن سعد الذي تولّى قيادة الكتيبة التي اعترضت الحسين. ثانيا: عبيد الله بن زياد والي العراق الذي أرسله يزيد بن معاوية. حيث يتحمّل المسؤولية بكلّ دقائقها لأنّه هو الذي رفض اقتراحات الحسين رضي الله عنه لمنع القتال ودرء الفتنة ومنع الحسين من الرجوع أو الذهاب إلى يزيد وأصرّ على طلب النزول على حكمه أو القتال.

ثالثا: أهل الكوفة: فهم الذين دعوا الحسين رضي الله عنه لينصروه ونقضوا العهود وقتلوه. قال المسعودي: «وكان جميع من حضر مقتل الحسين من العساكر وحاربه وتولى قتله من أهل الكوفة خاصّة، لم يحضرهم شاميّ». ودعوة الحسين عليهم قبل قتله تؤكّد مسؤوليتهم عن قتله. قال المسعودي: «فلما كثرت العساكر على الحسين أيقن أنّه لا محيص له، فقال: اللهم احكم بيننا وبين قوم دَعَوْنَا لينصرونا ثمّ هم يقتلوننا، فلم يزل يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه»^(٢).

رابعا: يزيد بن معاوية: يتحمّل المسؤولية الكاملة عن مقتل الحسين رضي الله عنه بالرغم من إنكاره الظاهر لمقتله لأنّ الجيوش كانت تحت قيادته وتصدر عن أمره. إنّ

(١) الطبراني، (ج ٣ / ص ١١٩)، رقم ٢٨٥٩
 (٢) المسعودي، مروج الذهب، (ج ١ / ص ٣٧٤)

مقتل الحسين رضي الله عنه سيظل وصمة عار ونقطة سوداء في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

السؤال الثالث: من الذي قُتل مع الحسين رضي الله عنه من آل بيته؟

قال الحسن البصري: «أصيب مع الحسين ستة عشر رجلا من أهل بيته، ما على وجه الارض يومئذ أهل بيت لهم شبيهون»^(١).

فمن أولاد علي رضي الله عنه جعفر والحسين والعبّاس ومحمد وعثمان وأبو بكر ومن أولاد الحسين علي الاكبر وعبد الله وأبو بكر.

ومن أولاد أخيه الحسن ثلاثة عبد الله والقاسم وأبو بكر.

وقتل مسلم بن عقيل في الكوفة قبل وصول الحسين .

وأسر عليّ بن الحسين زين العابدين وعمر بن الحسين^(٢)

السؤال الرابع: ما هو موقف الصحابة من قتل الحسين رضي الله عنه؟

لم يسجّل التاريخ موقفا واحدا لأيّ صحابيّ رضي بقتل الحسين رضي الله عنه حتى من الذين بايعوا يزيد ورضوا به خليفة بل نصح الكثير من الصحابة رضي الله عنهم الحسين رضي الله عنه بعدم الخروج وأشفقوا عليه وأنكروا مقتله.

السؤال الخامس: ما هو موقف أهل السنة من مقتل الحسين رضي الله عنه؟

لا بدّ من التفريق بين موقف أهل السنة والجماعة وموقف النواصب الذين نصبوا العدا لأهل البيت عليهم السلام، حيث يسعى البعض إلى الخلط بين الموقفين وإصاق تهمة العدا لأهل البيت بأهل السنة والجماعة لتنفير الناس منهم وعدم أتباع منهجهم الصحيح في الاقتداء برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

(١) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، (ج١ / ص ٢٣٥)

(٢) ينظر، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج٣ / ص ٣٤٣)، ابن كثير، البداية والنهاية، (ج٨ / ص ٢٠٥-٢١٢)

ولا بدّ أن يعلم المسلم أنّ النواصب فرقة ظهرت واندثرت ولا يوجد اليوم من يقول بقولها على حدّ علمنا. وموقف أهل السنّة يتبيّن من خلال علمائهم الافذاذ الذين عرفوا الحقّ واتبعوه وانقادوا للأوامر الشرعيّة بعيدا عن العاطفة وبعيدا عن أهل الالهواء ومصالح السياسة.

يتبيّن ذلك من قول الامام أحمد بن حنبل الذي عليه معتقد أهل السنّة قال صالح بن أحمد بن حنبل: "قلت لأبي: إن قوما يقولون: إنهم يحبون يزيد. قال: يا بني وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟ فقلت: يا أبت فلماذا لا تلعنه؟ قال: يا بني ومتى رأيت أباك يلعن أحدا؟، وروي عنه قيل له: أتكتب الحديث عن يزيد بن معاوية؟ فقال: لا، ولا كرامة أوليس هو الذي فعل بأهل المدينة ما فعل؟" (١)

*** عَنْ يَعْلَى بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ» (٢)

وعند البخاريّ عن ابن أبي نُعمٍ، قَالَ: كُنْتُ شَاهِدًا لِابْنِ عُمَرَ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ دَمِ الْبَعُوضِ، فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، قَالَ: انظُرُوا إِلَى هَذَا، يَسْأَلُنِي عَنْ دَمِ الْبَعُوضِ، وَقَدْ قَتَلُوا ابْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «هُمَا رِيحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا» (٣)

ونحن نقول: اللهم إنا نبرأ إليك من قتل الحسين ومن أعان على قتل الحسين ومن رضي بقتل الحسين ولا نقول الا ما قاله نبيك محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما مات ولده إبراهيم، «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ» (٤)، فنقول إنا لفقداك لمحزونون أبا عبد الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنا في مصيبتنا واخلف لنا خيرا منها.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (ج ٣ / ص ٤١٢)

(٢) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٦٨٥)، رقم ٣٧٧٥، وقال: حديث حسن

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٧)، رقم ٥٩٩٤

(٤) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٨٣)، رقم ١٣٠٣

٣٩. حقوق صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) [الفتح: ٢٩]

صحابه النبي صلى الله عليه وسلم ومنهم آل بيته هم خير الناس على الاطلاق وصفوة هذه الامة بعد رسولها، وأن الامة بعدهم لا يبلغوا مراتبهم ولا يدانوهم في الفضل وذلك لأن الله تعالى شهد لهم في آيات كثيرة بالإيمان والعدالة والرضا عنهم وخاطبهم بقوله: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران: ١١٠]

الصحابي: هو من لقي النبي مؤمناً به ومات على ذلك.

وأفضل الصحابة المهاجرين والانصار وقد شهد الله تعالى لهم بالإيمان وزكاهم ووعدهم بالمغفرة والجنة بقوله: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الأنفال: ٧٤]

وأخبر أنه رضي عنهم ورضوا عنه في أكثر من آية ووعدهم جنات تجري من تحتها الانهار قال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: ١٠٠]، وهذا دليل على أن المهاجرين والانصار لم يرتدوا بعد النبي كما يزعم البعض، لأنه ليس من المعقول أن يقول الله تعالى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ)، وهو يعلم أنهم سيرتدون فهذا طعن في علم الله تعالى وهو العليم الحكيم الذي أخبر أنه علم بواطنهم وقال: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

الشَّجَرَةَ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) [الفتح: ١٨]
 وأضاف الله تعالى الذين آمنوا وهاجروا بعد هؤلاء إلى المهاجرين والانصار فقال
 تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) [الأنفال ٧٥]
 وجعل الله تعالى منزلة من آمن قبل الفتح أعظم درجة من الذين آمنوا من بعد الفتح
 ووعد الجميع بالجنة فقال تعالى: (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ
 أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ) [الحديد: ١٠]

وقد يلتبس الامر على بعض الناس ويظنون أن في الصحابة منافقين لأن الله تعالى ذكر
 النفاق والمنافقين في كثير من الآيات.

نقول: إن النفاق ظهر في المدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم في بعض اهل
 المدينة وبعض الأعراب فقال تعالى: (وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ
 الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
 عَظِيمٍ) [التوبة: ١٠١]، وقال تعالى (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [التوبة: ٩٧]

وليس في المهاجرين من مكة الى المدينة ولا في الانصار الذين آوهم منافقون لأن
 الله عز وجل اطلع على بواطنهم وزكاهم فقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
 وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [البقرة: ٢١٨]
 وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من سب أصحابه وبين فضلهم على من جاء
 بعدهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَسُبُّوا
 أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١)

عدالة الصحابة مقررة عقلا كما هي مقررة شرعا فلا يعقل أن هؤلاء الناس الذين

بذلوا المهج والاموال في سبيل نصره هذا الدين وإيصاله إلى أقصى بقاع الارض أن يكونوا مرتدين عنه غير مؤمنين به. هذا لا يقوله عاقل فمن ترك الايمان بعقيدة يستحيل أن يقوم بنصرتها ويموت من أجل ذلك.

قال المنصور بالله: "لولا ثقل موازينهم في الشرف والدين ما تبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومالوا عن إلف دين الآباء، والأتراب والقرباء إلى أمرٍ شاقٍّ على القلوب، ثقيل على النفوس، لا سيّما وهم في ذلك الزمان أهل الأنفة العظيمة والحمية الكبيرة، يرون أن يقتل جميعهم وتستأصل شأفتهم حذراً من أيسر عار يلم بساحتهم أو ينسب إلى قرابتهم، ولا أعظم عاراً عليهم من الاعتراف بضلال الآباء، وكفرهم، وتفضيل الأنعام السائمة عليهم، فلولا صدقهم في الإسلام ومعرفتهم لصدق الرسول - عليه السلام - ما لانت عرائكهم لذلك ولا سلكوا في مذلات المسالك"^(١)

ومّا يدلّ على صحّة ذلك ويوضّحه: أنّ أكثرهم تساهلاً في أمر الدين: من يتجاسر على الإقدام على الكبائر، لا سيّما معصية الزنا، فقد علمنا أنّ جماعة من أهل الإسلام في ذلك العصر من رجال ونساء وقعوا في ذلك فهم فيما يظهر لنا أكثر أهل ذلك الزمان تساهلاً في الوقوع في المعاصي، وذلك دليل خفة الأمانة ونقصان الديانة، لكننا نظرنا في حالهم فوجدناهم فعلوا ما لا يفعله المتأخرون إلا أهل الورع الشحيح، والخوف العظيم، ومن يُضرب بصلاحه المثل، ويتقرّب بحبه إلى الله عزّ وجلّ، وذلك أنّهم بذلوا أرواحهم في مرضاة ربّ العالمين، وليس يفعل هذا إلا من يحقّ له منصب الإمامة في أهل التقوى واليقين، وذلك كثير في أخبارهم، مشهور الوقوع في زمانهم.

من ذلك حديث المرأة التي زنت فجاءت النبيّ - صلى الله عليه وسلم - مقرّة بذنباها، سائلة للنبيّ - صلى الله عليه وسلم - أن يقيم الحدّ عليها وحديث ما عز بطوله الذي قال

(١) ابن الوزير، الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم (ج ١/ ص

اني زينت فأقم علي كتاب الله.

فانظر إلى عزم هذه الصحابية - رضي الله عنها - على أصعب قتلة على النفوس، وأوجع ميتة للقلوب، وبقاء عزمها على ذلك هذه المدة الطويلة، ومطالبتها في ذلك غير مكرهة ولا متوانية، وهذا - أيضاً - وهي من النساء الموصوفات بنقصان العقول والأديان، فكيف برجالهم رضي الله عنهم!؟.

فأخبرني على الإنصاف: من في زماننا، وقبل زماننا من أهل الديانة قد سار إلى الموت نشيطاً، وأتى إلى ولاية الأمر مقرراً بذنبه، مشتاقاً إلى لقاء ربه، باذلاً في مرضاة الله لروحه، ممكناً للولاية والقضاة من الحكم بقتله؟

وهذه الأشياء تنبه الغافل، وتقوي بصيرة العاقل، وإلا ففي قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]. كفاية وغنية، مع ما عضدها من شهادة المصطفى - عليه السلام - بأنهم خير القرون وبأن غيرهم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، إلى أمثال ذلك من مناقبهم الشريفة ومراتبهم المنيفة^(١)

*** قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [الحشر ٨-١٠]

«عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن جده علي بن الحسين رضي الله عنه، أنه جاءه رجل فقال له: يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما تقول في عثمان؟ فقال له:

(١) ينظر، الروض الباسم، (ج ١ / ص ١١٠)

يا أخي أنت من قوم قال الله فيهم: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ) قال لا قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ)، قال لا قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن من الإسلام وهي قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) [الحشر: ١٠]»^(١)

وافضلهم العشرة المبشرين بالجنة عن عبد الرحمن بن عوف، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»^(٢).

أهل السنة والجماعة متفقون على ان أفضل هذه الأمة: أبو بكر ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين ثم علي أمير المؤمنين، ثم هؤلاء الستة تكمله العشرة المبشرين بالجنة من سيد العالمين وخاتم النبيين، فاهل بدر، فاهل بيعة الرضوان، فاهل أحد، فباقي الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

قال ابن رجب: "أفضل الأعمال: سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء أهل الأهواء والبدع التي تقتضي الطعن على سلف الأمة. وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم. ونصيحتهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه"^(٣) اللهم إنا نقول كما أمرتنا وعلمتنا (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم).

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٨ / ص ٣١)

(٢) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٦٤٧)، رقم ٣٧٤٧، وقال الالباني: صحيح

(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي، (ج ٢ / ص ٣٩٦)

٤٠. الولاء والبراء

قال تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [المجادلة: ٢٢]

لقد أولى الاسلام عناية كبيرة لمسألة الولاء والبراء وقطع الصلات بين المسلمين والكفار حفاظا على الإيـمان وصيانة للشخصية الاسلامية من التميع والاندثار نتيجة اختلاط المسلم بالأمم الأخرى.

الولاء شرعاً هو: حُبُّ الله تعالى ورسوله ودين الاسلام والمسلمين، ونُصرةُ الله تعالى ورسوله ودين الاسلام والمسلمين.

والبراء هو: بُغْضُ الطواغيت التي تُعبدُ من دون الله تعالى من الاصنام المادية والمعنوية: كالاهواء والآراء، وبُغْضُ الكفر والكافرين بجميع مللهم، ومعاداة ذلك كُلِّه.

والولاء والبراء معتقد قلبي مرتبط بالإيمان فكلما زاد الايمان في قلب العبد زاد الولاء لله ورسوله والمؤمنين وزاد البراء من أعداء الله ورسوله وكلما نقص الايمان نقص من الولاء والبراء بقدره. قال تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فلا مودة بين المسلم وأعداء الدين الا بانسلاخ الايمان من القلب، قال تعالى (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [المائدة: ٨١]

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: الْمُوَالَاةُ فِي اللَّهِ وَالْمُعَادَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ»^(١)

قال شيخ الاسلام: « فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا

(١) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ١ / ص ٤٤٤)، رقم ٢٥٣٩

يجتمع الإيثار واتخاذهم أولياء في القلب. ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء، ما فعل الإيثار الواجب من الإيثار بالله والنبي وما أنزل إليه»^(١) وعلى هذا الأساس تبنى العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين بكل ملهم وقد جاءت الأدلة متظاهرة من الكتاب والسنة في تفصيل ذلك: فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) [الممتحنة: ١]. وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [المائدة: ٥١] فمتولاهم منهم .

ونهى الإسلام عن التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم والاستئناس بسنتهم وأتباع أهواءهم فقال تعالى: (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) [المائدة: ٤٨]، لأن بغضهم في القلب يوجب كراهة التشبه بهم في هديهم الظاهر أو مشاركتهم في أعيادهم أو إعانتهم عليها أو تهنتهم بها أو قبول دعواتهم والاهداء لهم فيها، لأن هذا كله يؤدي إلى مودتهم وموالاتهم لذلك سد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الباب ونفّر المسلمين منه، عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ »^(٢) وقال: « ليس منا من تشبه بغيرنا لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع وتسليم النصارى الإشارة بالأكف »^(٣)

وذلك لأن التشبه بهم يؤدي إلى اضمحلال في شخصية المسلم وشعوره بالنقص والذلة، وعدم رغبته في منهج الله وشرعه والتنكر للإسلام وأهله والافتداء بالكفر وأهله ويكون ذلك سببا لحبهم والثقة المطلقة بهم والولاء لهم.

وحذر القرآن من سلوك طرق اليهود والنصارى في التفرق والاختلاف قال تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

(١) مجموع الفتاوى، (ج ٧ / ص ١٧)

(٢) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٧٨)، رقم ٤٠٣٣، قال الالباني: حسن صحيح

(٣) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ٢ / ص ٩٥٦)، رقم ٥٤٣٤، قال الالباني: حسن

[عَظِيمٌ] (آل عمران ١٠٥) وحذر من طرق المشركين في التحزب وقال تعالى: (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) [الروم: ٣١-٣٢] (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [الأنعام: ١٥٩] بين سبحانه وتعالى أن رسوله بريء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، كما فعل أهل الكتاب، فهو يحذر من صنيعهم، وينهى عن سلوك طريقهم، فمن اتبع سنتهم في هذا التفريق، فالرسول بريء منه كما هو بريء من أولئك المفرقين من سالفى الأمم، فعلى فالمراد من هذه الآية: الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة، وأن لا يتفرقوا في الدين ظنا منهم ان ذلك من الدين فليس الأمر كما يظنون، فإن الأمة لا يرضى الله عنها الا بالاعتصام بكتابه والاجتماع على دينه وان الوطن لا يرقى إلا بتعاون كل المقيمين فيه لإحيائه، فالتفرق والعصبية تورث الشحناء والبغضاء بينهم وتؤدي الى هلاكهم وسيطرة الامم الاخرى عليهم.

*** قال تعالى: (لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [المتحنة: ٨]

هناك فرق بين البرّ والموادّة فالنهى واقع على التويّي والمحبة لأجل الدين، والامر بالإحسان والبرّ واقع على الاحسان لأجل القرابة أو لأجل الجيرة أو الإنسانية على وجه لا يُجَلّ بدين الانسان، لحديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، قالت: قَدِمْتُ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمَّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ»^(١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل عمّه أبا طالب وعمّه العباس لأتهم لم يقاتلونه في الدين ولا يصل عمّه أبا لهب لأنه كان يجاربه.

اللهمّ إنا نسألك حبّك وحبّ من يحبّك وحبّا يبلغنا حبّك.

٤١. معرفة دين الاسلام بأدلته الشرعية

قال تعالى: (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

[آل عمران: ٨٥]

من الاصول التي يجب على العبد معرفتها والعلم بها معرفة دين الاسلام بأدلته الشرعية. قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) [البقرة: ٢٠٨]، كونوا على ملة واحدة، واجتمعوا على الاسلام واثبتوا عليه. فالسلم هنا بمعنى الاسلام وهو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وهو ثلاث مراتب: الاسلام، والايمان، والاحسان. وكل مرتبة لها أركان.

المرتبة الاولى: الاسلام

فأركان الاسلام خمسة: كما في حديث جبريل عليه السلام «الاسلام أن تشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»^(١)

فدليل الشهادة: قوله تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) [آل عمران: ١٨]

ومعناها: لا معبود بحق الا الله، وحد النفي من الاثبات (لا إله) نافيا جميع ما يعبد من دون الله (الا الله) مثبتا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه.

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله: قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [التوبة: ١٢٨] (محمداً رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) [الفتح: ٢٩]

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر والا يعبد الله الا بما شرع.

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٢٨)، رقم ١٠٢.

ودليل الصلاة، والزكاة: قوله تعالى: (وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) [البينة: ٥]

ودليل الصيام: قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٣]

ودليل الحج: قوله تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ

فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) [آل عمران: ٩٧]

المرتبة الثانية: الايمان

وأركانه ستة: كما في حديث جبريل « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »، والدليل على هذه الأركان الستة: قوله تعالى: (لَيْسَ

الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) [البقرة: ١٧٧]

ودليل القدر: قوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر: ٤٩]

والايمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وقوة الايمان في القلب تدفع

الجوارح للعمل عن أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الايان بضعٌ

وسبعون أو بضعٌ وستون شعبة فأفضلها قول لا إله الا الله وأدناها إماطة الأذى عن

الطريق والحياء شعبة من الايان»^(١)

المرتبة الثالثة: الإحسان

وله ركن واحد، كما في حديث جبريل: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه

يراك»^(٢)، والدليل قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) [النحل:

١٢٨] وقوله تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبِكَ فِي

السَّاجِدِينَ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠]

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٦٣)، رقم ٣٥

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٩) رقم ٥٠، صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٢٨)، رقم ١٠٢

والمراد بالإحسان خمسة أقوال: أحدها: أنه أداء الفرائض، والثاني: العفو. رواه الضحّاك عن ابن عبّاس. والثالث: الاخلاص، والرابع: أن تعبد الله كأنك تراه، والخامس: أن تكون السريرة أحسن من العلانية.

ومن وصل الى درجة الإحسان كان قلبه في اعلى درجات الاخلاص واعماله في اعلى درجات الاتقان فالعمل باوامر الملوك وهم لا ينظرون اليك يختلف عن العمل وانت امامهم فكيف اذا اعتقد العبد ان ملك الملوك ناظر اليه ومطلع على قلبه؟

هذا هو الإسلام والإيمان والإحسان فالمسلم في ثلاث حصون تحيط به فمن خرج من دائرة الإحسان بقي في الإيمان والإسلام ومن خرج من دائرة الإيمان في بعض الاحيان بقي في دائرة الإسلام وهو على خير كثير وبين الخلق منازل لا يعلمها الا الله.

*** قال تعالى: (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) [آل عمران: ١٩٣]

كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ. اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحِينَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مُفْتُونِينَ»^(١)

عن أبي هريرة، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»^(٢)

(١) الادب المفرد، ص ٢٤٣، رقم ٦٩٩، وقال الالباني: صحيح

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٨١)، رقم ٧٠٧٨

٤٢. الموت

قال تعالى: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [الجمعة: ٨]

الموت هو الزائر الذي ينتظره كل حي ونسيه الكثير من الناس، وهو نهاية الحياة الدنيا الذي تساوى فيه خيار الناس وشرارهم أغنياؤهم وفقراؤهم سادتهم وعبيدهم فقَالَ سُبْحَانَهُ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) [الانبيا: ٣٥]، يفر منه الناس فيلاقيهم قال تعالى: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [الجمعة: ٨] قال تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) [الزمر: ٤٢] وقال في آية أخرى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) [السجدة: ١١] وقال (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ) [الأنعام: ٦١]

قال القاسمي: ”المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى فإذا حضر أجل العبد، أمر الله ملك الموت بقبض روحه، وملك الموت أعوان من الملائكة، يأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده. فإذا وصلت إلى الحلقوم، تولى قبضها ملك الموت نفسه“^(١)

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإكثار من ذكر الموت فقال: «أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَٰذِمِ اللَّذَاتِ»^(٢) [هازم اللذات: قاطعها] وذلك لما في ذكره من دافع للعمل بطاعة الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْفِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ يَبْضُ الْوُجُوهُ، كَأَنَّ وُجُوهُهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ ٣، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا

(١) القاسمي، محاسن التأويل، (ج ٤ / ص ٣٨٧)

(٢) صحيح ابن حبان، (ج ٧ / ص ٢٦١)، رقم ٢٩٩٥، قال الألباني: حسن صحيح

(٣) الحنوط: هو ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة .

مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرَ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا
 النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ». قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ
 مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا
 فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مَسْكٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ
 الْأَرْضِ» قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، الْأَقَالُوا: مَا هَذَا
 الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا،
 حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَنْفِثُونَ لَهُ، فَيُنْفِثُ لَهُمْ فَيَشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى
 السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي
 فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتَهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتَهُمْ تَارَةً
 أُخْرَى». قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟
 فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ
 الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟
 فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيَنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي،
 فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا،
 وَطَيِّبِهَا، وَيُنْفَسِحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ،
 طَيِّبُ الرِّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟
 فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى
 أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي». قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالِ مِنَ
 الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ،
 ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْحَبِيبَةُ، أَخْرِجِي إِلَى
 سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: «فَتَفْرُقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَرِعُهَا كَمَا يَنْتَرِعُ السَّقُودُ مِنَ الصُّوفِ
 الْمُبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ،

وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِيْفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، الْأَقَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْحَيِّثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بِنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْحِيَاطِ} [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "اَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا". ثُمَّ قَرَأَ: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ، فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) [الحج: ٣١] "فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِيهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرَشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرُ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْحَيِّثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ" (١)

عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ لَيْسَ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حُضِرَ جَاءَهُ الْبَشِيرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ جَاءَهُ بِهَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ أَوْ مَا يَلْقَاهُ مِنَ الشَّرِّ فَكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (٢)

(١) المسند، (ج ٤ / ص ٢٨٧)، رقم ١٨٥٥٧، صحيح الجامع الصغير، (ج ١ / ص ٣٤٦)،

رقم ١٦٧٦، وقال الالباني: صحيح

(٢) المسند، (ج ٣ / ص ١٠٧) رقم ١٢١٦٦، شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط

*** قال تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) [ق: ١٩]

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْبَسُ؟ قَالَ: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أَوْلَيْكَ الْأَكْيَاسُ»^(١)، وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقْنُوا مَوْتَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢) وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣) وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»^(٤). وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ مَلِكُ الْمَوْتِ إِلَى نُوحٍ، فَقَالَ: يَا أَطْوَلَ النَّبِيِّينَ عَمْرًا كَيْفَ وَجَدْتَ الدُّنْيَا وَلذتها؟ قَالَ: كَرَجَلٍ دَخَلَ بَيْتًا لَهُ بَابَانِ، فَقَامَ وَسَطَ الْبَيْتِ هَنِيةً، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ الْآخِرِ.

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخرّبتم آخرتكم فأنتم تكرهون الانتقال من العمران إلى الخراب.

الشيخين

(١) سنن ابن ماجه (ج ٢ / ص ١٤٢٣)، رقم ٤٢٥٩، وقال الألباني: حسن

(٢) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ٣٧)، رقم ٢١٦٢

(٣) سنن أبي داود، (ج ٣ / ص ١٥٩)، رقم ٣١١٨، وقال الألباني: صحيح

(٤) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ٥٣)، رقم ٢٢٤٢

٤٣. عذاب القبر

قال تعالى: (يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) [إبراهيم: ٢٧]

القبر أول منازل الآخرة، عن هانئ مولى عثمان قال: كَانَ عُمَانُ، إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ بَكِيِّ حَتَّى يُبَلَّ لِحَيْتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تُذَكِّرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَلَا تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلَ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ. قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْطَحُ مِنْهُ» (١)

وعذاب القبر هو عذاب البرزخ ينال الكافر والمنافق والمؤمن العاصي، سواء دفن أم لم يدفن فلو أكلته الطيور والسباع أو أحرق حتى صار رماداً وذري في الرياح أو صُلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور.

وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع العلماء وعند اليهود أيضاً وتسمعه البهائم كما قال النبي ﷺ ويشهد به حالها عند مرورها بالمقابر ونفورها من سماعه، ولا ينكره إلا معاند للنصوص الصحيحة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان.

ففي الكتاب: قوله تعالى: (يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ (٢) وقال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة، قالوا عذاب القبر (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) [غافر: ٤٦]، قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا.

وفي السنة: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٥٥٣)، رقم ٢٣٠٨، وقال الالباني: حسن

(٢) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٩٨)، رقم ١٣٦٩

قَالَ: « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(١)

وعلى ذلك إجماع من يعتدّ بقوله من أهل العلم، قال القرطبي: "إنّ الايمان به واجب، والتصديق به لازم حسبما أخبر به الصادق، وأنّ الله تعالى يجيي العبد المكلف في قبره بردّ الحياة إليه ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه ليعقل ما يسأل عنه وما يجيب به ويفهم ما أتاه من ربّه وما أعدّ له في قبره من كرامة وهوان، وهذا هو مذهب أهل السنّة والذي عليه الجماعة من أهل الملة"^(٢)

وثابت عند اليهود بشهادة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عَجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُمَا، وَلَمْ أَنْعِمَ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا، فَخَرَجْتَا، وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَجُوزَيْنِ، وَذَكَرْتُ لَهُ، فَقَالَ: « صَدَقْتَا، إِنَّهُنَّ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا » فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلَاةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ^(٣)

قال ابن القيم: "قال بعض أهل العلم ولهذا السبب يذهب الناس بدواهم إذا مغلّت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين كالاسماعيلية والنصيرية والقرامطة من بني عبيد وغيرهم الذين بأرض مصر والشام فإن أصحاب الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصارى قال فإذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعا وحرارة تذهب بالمغل"^(٤)

ما الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور؟ اولاً: يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه . وثانياً: الذنوب ومنها الافساد بين الناس بالغيبة والنميمة وترك

(١) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٩٩)، رقم ١٣٧٩

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ٢٠ / ص ١٧٣)

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٧٨)، رقم ٦٣٦٦

(٤) الروح، (ص: ٥٣)، {المغل: وجع البطن}، لسان العرب، (ج ٦ / ص ٤٢٤١)

الطهارة الواجبة والاستبراء من البول واكل اموال المسلمين بالباطل والغلول وهو السرقة من الغنيمة والأموال العامة، وأكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل .
ومما ينجي من عذاب القبر تجنب الذنوب والتوبة منها ومن انفعها التوبة كل ليلة قبل ان ينام فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ تدارك ما فاته وندم عليه

ومما ينجي من عذاب القبر القرآن فهو شفيع للعبد من العذاب عن أبي هريرة، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ سُورَةَ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّىٰ عُفِّرَ لَهُ: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»^(١) وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «سُورَةُ تَبَارَكَ هِيَ الْمُنِيعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(٢)

قال ابن عباس رضى الله عنهما لرجل اقرأ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير احفظها وعلمها أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له إلى ربها أن ينجيها من عذاب النار إذا كانت في جوفه وينجي الله بها صاحبها من عذاب القبر.

* عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فِيهِ أَقْبَرٌ وَهُوَ عَلَى بَعْلَتِهِ فَحَادَتْ بِهِ وَكَادَتْ أَنْ تُلْقِيَهُ فَقَالَ: «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبَرِ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْمٌ هَلَكُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ، ثُمَّ قَالَ لَنَا تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ قُلْنَا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، ثُمَّ قَالَ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ فَقُلْنَا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، ثُمَّ قَالَ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَقُلْنَا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ثُمَّ قَالَ تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْمُحْيَا وَالْمُتَاتِ وَالْمَمَاتِ»^(٣)

(١) سنن ابن ماجه (ج ٢ / ص ١٢٤٤)، رقم ٣٧٨٦، وقال الالباني: صحيح

(٢) الالباني، السلسلة الصحيحة، (ج ٣ / ص ١٣١)، رقم ١١٤٠

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٦٠)، ٧٣٩٢، المسند، (ج ٥ / ص ١٩٠)، رقم ٢١٧٠١

٤٤. الإيمان باليوم الآخر

قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) [الزمر: ٦٨]

من أركان الإيمان التي لا يقبل إيمان العبد إلا بها الإيمان باليوم الآخر فلا بد أن يعتقد المسلم بيوم يرجع فيه الناس إلى الله فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته قال تعالى: (وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [البقرة: ٢٨١]

يأمر الله تعالى اسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث فتخرج كل روح إلى جسدها قال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) [الزمر: ٦٨-٧٠]

يفزع الناس من قبورهم مذعورين من الخوف والناس مؤمنين وكافرين فالكافرين يكون عليهم ذلك اليوم شديد غير هين قال تعالى: (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) [المدثر: ٨-١٠]

ومؤمنين لا يحزنهم الفزع قال تعالى: (لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) [الأنبياء: ١٠٣]

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»^(١)، من خير او شر، فمن كان في عبادة الله عز وجل فمات فإنه يحشر على ما مات عليه من عبادة الله تلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم في المحرم حين مات على احرامه «انه يبعث يوم القيامة ملبيا»، والشهيد يبعث واوداجه تشخب دما تشهد له بالقتل في سبيل الله، ومن مات

(١) صحيح مسلم، (ج٨، ص١٦٥)، رقم ٧٤١٣

في السجود ساجدا والصائم رائحة فمه اطيب من ريح المسك والسكران قدحه بيده
وصاحب المزمار مزماره بيده.

يبدأ اليوم الآخر بقيام الناس من قبورهم مهطعين لدعوة الحق وقد نزلت ملائكة
السموات فأحاطت بهم وقد جاء الله وقد نصب كرسيه لفصل القضاء وقد أشرقت
الأرض بنوره ووضع الكتاب وجيء بالنبیین والشهداء وقد نصب الميزان وتطايرت
الصحف واجتمعت الخصوم وتعلقت كل غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كذب
وكثر العطاش وقل الوارد ونصب الجسر للعبور ولز الناس إليه وقسمت الانوار دون
ظلمته للعبور عليه والنار يحطم بعضها بعضها تحته والمتساقطون فيها أضعاف أضعاف
الناجين^(١) ففي الحديث أن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: « تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُونَ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ »^(٢)

وتدنو الشمس من الرؤوس بمقدار ميل كما في حديث المقداد عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال: « تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ »
والناس يلجمهم العرق على قدر أعمالهم « فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ
مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِنْجَامًا » قَالَ وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ^(٣)

ثم يلوح حوض النبي صلى الله عليه وسلم للناظرين، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ
اللَّهِ مَا آيَةُ الْحَوْضِ قَالَ « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا نَبِيَّتَهُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ
وَكَوَاكِبِهَا إِلَّا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ آيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخَرَ مَا عَلَيْهِ

(١) ينظر، مدارج السالكين، (ج ١ / ص ١٢٣)

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٠٩)، رقم ٦٥٢٧

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٥٨)، رقم ٧٣٨٥

يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ عَرَضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ» (١). فيتدافع إليه الناس والملائكة يزودون كل من بدل في دين الاسلام وأحدث فيه وبدل سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسنن الجاهلية «الأيذاء من رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم الا هلم. فيقال إتهم قد بدلوا بعدك. فأقول سحقا سحقا» (٢)

وينصب الميزان ثم يأذن الله سبحانه وتعالى بالحساب الذي سوف يكون على المثقال والذرة، قال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [الأنبياء: ٤٧]

ثم يدفع الناس إلى الصراط وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبُو مَالِكٍ، عَنْ رَبِيعٍ عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتَحَ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ أَذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ» قَالَ: «فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُومُ فَيُؤَذِّنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَّتِي الصَّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوْلَاكُمْ كَالْبُرْقِ» قَالَ: قُلْتُ: بِأَيِّ أُنْتِ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَّ الْبُرْقِ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبُرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرَّ

(١) صحيح مسلم، (ج ٧ / ص ٦٩)، رقم ٦١٢٩

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ١٥٠)، رقم ٦٠٧

الرَّيْحِ، ثُمَّ كَمَرَ الطَّيْرَ، وَشَدَّ الرَّجَالَ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَاهُمْ وَنَبِيكُم قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا « قَالَ: » وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِيْبٌ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخِذٍ مِنْ أَمْرَتٍ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ » وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيْفًا^(١). { كشد الرجال: بكسر الراء وفتح الجيم أي كعدو الرجال الأقوياء المبالغين في عدوهم، والشد هو العدو المبالغ }

*** قال تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) [البقرة: ٤٨]

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»^(٢)
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ»^(٣)

اللهم ربنا اصلح لنا احوالنا واعمالنا واقوالنا، اللهم ارزقنا حسن الاستعداد ليوم العرض، وخير أيامنا يوم نلقاك، واجعل خير اعمالنا خواتيمها، ولا تفضحنا بها على رؤوس الاشهاد يوم القيامة انك واسع المغفرة والعفو والستر على الزلات.

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ١٢٩)، رقم ٥٠٣

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١١١)، رقم ٦٥٣٥

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١١١)، رقم ٦٥٣٤

٤٥. الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والرسل

قال تعالى: (أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) [البقرة: ٢٨٥]

من أركان الإيمان الإيـمان بالملائكة والكتب المنزلة من الله تعالى والإيمان بالأنبياء قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة، بقوله: (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) [النساء: ١٣٦]. وقال صلى الله عليه وسلم، في حديث جبريل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». ولم يؤمن بها حقيقة الايمان الا الرسل واتباعهم.

الإيمان بالملائكة: الملائكة مخلوقون من النور، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة. ميسرون للطاعات، معصومون من المعاصي مسخرون بإذن الله في شؤون الخلق وتدبير الكون، وحفظ العباد، وكتابة أعمالهم، أمناء على الوحي في حفظه وتبليغه^(١). عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(٢)

وهم أصناف كثيرة، منهم الموكّلون بحمل العرش، ومنهم خزنة الجنة والنار، ومنهم الموكّلون بحفظ أعمال العباد ومنهم من هو موكل بقبض الأرواح. ونؤمن بهم على العموم وبمن سمى الله ورسله منهم كجبريل وميكائيل ومالك خازن النار وإسرافيل الموكّل بالنفخ في الصور، وهاروت وماروت.

(١) ابن باديس، العقائد الاسلامية، ص: ٩٨

(٢) صحيح مسلم، (ج٨/ ص٢٢٦)، رقم ٧٦٨٧

الإيمان بالكتب المنزلة من الله: نؤمن بجميع كتب الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام فمنها التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم وموسى وغيرها مما لم نعلمه على سبيل التفصيل فكلها من عند الله وكل ما فيها حق قال تعالى: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ) [الشورى: ١٥]

وحفظ الله القرآن من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل فبقي كما أنزله الله إلى يوم القيامة فهو كله حق من عند الله ولم يحفظ غيره من الكتب قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: ٩]، وهو مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ) [المائدة: ٤٨] مصدقا لهذه الكتب وأمينا عليها.

الإيمان بالرسول: وهم كل من أوحى إليه وأمر بالتبليغ أمّا من أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبي فقط وليس برسول فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. والإيمان بهم هو التصديق الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولا منهم يدعواهم إلى عبادة الله وحده والكفر بما يعبد من دونه قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر: ٢٤]، وهم حجة الله على خلقه قال تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) [النساء: ١٦٥]، والرسول بشر مخلوقون وهم عبيد لله ليس لهم من خصائص الربوبية والالوهية شيء، عَنْ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ »^(١)

بعض هؤلاء الرسل قص الله علينا من أخبارهم وبعضهم لم يقصص علينا من

أخبارهم، قال تعالى: (مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) [غافر: ٧٨] المذكور من الأنبياء في القرآن خمسة وعشرون نبياً، وجميعهم صادقون مصدقون هداة مهتدون، أيدهم الله تعالى بالمعجزات وفضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات. وإنيهم متفقون على أصل العبادة لقوله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل: ٣٦] ولكل واحد منهم شريعة من الله نسخت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

*** قال تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: ١٤٣]

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغْتُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيُدْعَى وَأُمَّتُهُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغْتَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيٌّ، فَأَخْبَرَنَا: أَنَّ الرَّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)، قَالَ: «يَقُولُ: عَدْلًا» (١)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقَالُ لِأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغْتُمْ فَيَقُولُونَ مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) « وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ» (٢)

(١) المسند، (ج ٣ / ص ٥٨)، رقم ١١٥٧٥، شعيب الأرنؤوط: اسناده صحيح على شرط الشيخين

(٢) صحيح البخاري، (ج ٦ / ص ٢١)، رقم ٤٤٨٧

٤٦. الإيمان بالقدر

قال تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ. وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ. وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ)

[القمر: ٤٩-٥٣]

القدر هو قدرة الله تعالى وعلمه ومشيتته وخلقه، وإن الله جل ثناؤه قدّر المقادير كلها قبل أن يخلق السماوات والأرض قال الله عز وجل: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ). فأخبر أن كل شيء خلقه إنما هو بحسب ما قدره قبل أن يخلقه فجرى الخلق على ما قدر، وجرى القدر على ما علم. عن ابن عباس، قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَحْفَظْكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَأَعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١)

والقدر والإيمان به ركن من أركان الإيمان التي لا يقبل الله تعالى الإيمان الا بها وهذا ما عليه صحابة النبي صلى الله عليه وسلم عن ابن يعمر قال: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّا نَسَافِرُ فِي الْأَفَاقِ فَتَلْقَى قَوْمًا يَقُولُونَ لَا قَدَرَ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «إِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ مِنْهُمْ بَرِيءٌ وَأَنْتُمْ مِنْهُ بَرَاءٌ ثَلَاثًا»^(٢)

قال الخلال: "وسألت أبا عبد الله عن الإيمان بالقدر؟ قال: نؤمن به، ونعلم أن ما أصابنا لم يكن يخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا، وأن الله قدر كل شيء من الخير والشر، فهو سابق في اللوح المحفوظ، الشقاء والسعادة مكتوبان على ابن آدم قبل أن يخلق، ونحن

(١) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٢٤٨)، رقم ٢٥١٦ وقال: هذا حيث حسن صحيح.

(٢) المسند، (ج ١ / ص ٥٢)، رقم ٣٧٤، قال شعيب الأرنؤوط: اسناده صحيح على شرط مسلم

في أصلا ب الآباء" (١)

والإيمان بالقدر أربع مراتب التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر (٢)
المرتبة الأولى: العلم: وهو العلم السابق فإن الله تعالى قد علم أفعال العباد قبل أن
يخلقهم قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (وإنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا).

المرتبة الثانية وهي مرتبة الكتابة : قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ
الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [الأنبياء: ١٠٥]، فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من
السماء لا تختص بزبور داود، والذكر أم الكتاب الذي عند الله، والأرض الدنيا، وعباده
الصالحون أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ « كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ » (٣)

المرتبة الثالثة: وهي مرتبة المشيئة: وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل وجميع
الكتب المنزلة والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ
لم يكن قال تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) وقال: (وَلَوْ شَاءَ
رَبُّكَ لَأَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر وهي مرتبة خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه
وإيجادها وهذا أمر متفق عليه بين الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم وعليه اتفقت
الكتب الالهية والفطر والعقول قال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) وخلقته شامل
لكل المخلوقات وصفاتها وما يصدر عنها من أقوال وأفعال وآثار وقال تعالى: (وَخَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان: ٢] (٤)

كل المقادير مقدره من الله تعالى بحكمة وعدل وينبغي للمؤمن أن لا يعترض على ما

(١) الخلال، السنة، (ج ٣ / ص ٥٣٧)

(٢) ابن القيم، شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، (ج ١ / ص ٥٢)

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٥١)، رقم ٦٩١٩

(٤) ينظر، ابن القيم، شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، (ج ١ / ص ٤٩)

قدره الله عز وجل، جاء في الأثر "قال موسى عليه السلام يا رب أرني عدلك قال اذهب إلى مكان كذا ففعل فوجد عينا وشجرة فجلس تحتها مستخفيا فجاء فارس فشرب من العين ونسي كيسا فيه ألف دينار فجاء صبي فأخذه ثم جاء رجل أعمى فتوضأ من العين فتذكر الفارس كيسه فرجع وسأل الاعمى فقال ما وجدته فضربه فقتله فتعجب موسى عليه السلام من ذلك فأوحى الله إليه اعلم أن الصبي قد أخذ حقه لأن الفارس قد أخذ من والد الصبي ألف دينار وأما الاعمى فإنه قتل أبا الفارس فأوصلت إلى كل ذي حق حقه" (١)

**** قال تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ**

أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) [الحديد: ٢٢]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ آخِرٌ أَحْرَضَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» (٢)

من كمال الايمان الاستسلام للقضاء وعدم الاعتراض عليه، والعبد مأمور عند المصائب بالصبر والاسترجاع والتوبة. وقول «لو» لا يجدي عليه إلا الحزن والتحسر مع ما يخاف عليه من المعاندة للقدر الذي لا يكاد يسلم منها أحد الا ما شاء الله.

ومن ثمرات الإيـان بالقدر اطمئنان القلب وسكون النفس عند مواجهة مشاق الحياة والثبات عند مواجهة الأزمات واستشعار قول الله تعالى: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) [التوبة: ٥١] وقول الرسول ﷺ: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك» فكل المقادير مقدرة من لدن عليم حكيم خبير رؤوف رحيم فالؤمن لا يتسخط ولكن يرضى ويسلم لقدر الله. اللهم أنت ربنا العليم الحكيم ونحن عبيدك لا حول ولا قوة لنا الا بك.

(١) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفايس، (ج ٢ / ص ٥١)

(٢) صحيح مسلم، (ج ٤ / ص ٢٠٥٢)، رقم ٢٦٦٤

٤٧. الإحسان

قال تعالى: (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة: ١٩٥]

الله سبحانه وتعالى هو المحسن، والإحسان صفة وهو يحب المحسنين ومن صفات الإحسان البرّ الرحيم الودود، ولقد وصف الله تعالى نفسه في كتابه بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه وهما الرحمة والمغفرة فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته ويعفو عن زلاتهم ويهب لهم ذنوبهم ولا يؤاخذهم بها بمغفرته فقال تعالى: (وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) (١)

وجعل سبحانه وتعالى مشهد الإحسان أعلى درجات الدين والقرب من الله، كما جاء في حديث جبريل عندما سأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَاتَّهُ بِرَأْيِكَ» (٢)

وهو مشهد المراقبة، وهذا المشهد ينشأ من كمال الإيمان بأسماء الله وصفاته حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سماواته، مستويا على عرشه، يتكلم بأمره ونهيه، ويدبر أمر الخليقة، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فحفظ العبد من القرب من الله على قدر حظّه من مقام الإحسان، (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ). فهو أصل أعمال القلوب كلها فإنه يوجب الحياء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذلّ له.

وأمر سبحانه وتعالى بالإحسان، فقال عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) [النحل: ٩٠]، وكتب الإحسان على كل شيء في حديث شداد بن أوس، أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا

(١) بدائع الفوائد، (ج ١ / ص ٨٠)

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٩)، رقم ٥٠

الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحَدِّدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرْخِ ذَبِيحَتَهُ»^(١)

فالإحسان داخل في كل الأعمال وأهل الإحسان أعمالهم كلها بإحسان، ومن شواهدة:

- الإحسان في العبادة: "وهي أن تعبد الله كأنك تراه، يشير إلى أن العبد يعبد الله على هذه الصفة، وهي استحضار قرب، وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبه والتعظيم، ويوجب أيضا النصح في العبادة، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها"^(٢)

ومنها: "الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرا، وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبا، والبخل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرا، وأنكدهم عيشا، وأعظمهم همما وغما"^(٣)

ومن الإحسان إلى الخلق: الإحسان إلى الوالدين والقراة واليتامى والمساكين والجيران والصاحب وابن السبيل وما ملكت أيانكم، قال الله تعالى: (وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) [النساء: ٣٦] وأفرض الإحسان هو الإحسان إلى الوالدين وبرهما وفعل الجميل معها وفعل ما يسرهما ويدخل فيه الإحسان إلى صديقتها كما جاء في حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَبْرَ الْبِرِّ صَلَّةُ الْوَالِدِ أَهْلَ وَدَّ أَبِيهِ»^(٤)

الإحسان إلى البنات: عن عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: جَاءَنِي امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ تَسْأَلْنِي، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: «مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ

(١) صحيح مسلم، (ج ٦ / ص ٧٢)، رقم ٥١٦٧

(٢) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، (ج ١ / ص ١٢٦)

(٣) زاد المعاد، (ج ٢ / ص ٢٤)

(٤) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٦)، رقم ٦٦٧٨

البنات شيئاً، فأحسن إليهنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(١)
 الإحسان إلى الجيران : قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ
 ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا
 يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) [النساء: ٣٦]، عَنْ أَبِي شَرِيحٍ الْخَزَاعِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :
 «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لَيْسَ كُنْتَ»^(٢)

- الإحسان إلى البهائم: عَنْ سَهْلِ بْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ
 ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا وَكُلُّوهَا صَالِحَةً»^(٣)
 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ
 يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ
 الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأُ خَفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِي،
 ثُمَّ رَقِي، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَنَا فِي الْبَهَائِمِ
 أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(٤)

** قال تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) [الرحمن: ٦٠]

عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نُودُوا بِأَهْلِ الْجَنَّةِ
 إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا لَمْ تَرَوْهُ فَقَالُوا وَمَا هُوَ أَلَمْ يُبَيِّنْ وَجُوهَنَا وَيَزَحِزِحَنَا عَنِ النَّارِ
 وَيُدْخِلُنَا الْجَنَّةَ قَالَ فَيُكْشِفُ الْحِجَابَ قَالَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ
 إِلَيْهِمْ مِنْهُ»، ثُمَّ قَرَأَ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَقَالَ مَرَّةً إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ^(٥)

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٧)، رقم ٥٩٩٥

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٥٠)، رقم ١٨٥

(٣) سنن أبي داود، (ج ٢ / ص ٣٢٨)، رقم ٢٥٥٠، قال الألباني: صحيح

(٤) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ١١١)، رقم ٢٣٦٣

(٥) المسند، (ج ٦ / ص ١٥)، رقم ٢٣٩٧٠، شعيب الأرنؤوط: اسناده صحيح على شرط

٤٨. الصلاة

قال تعالى: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [التوبة ١١]

الصلاة أعظم عبادة في الاسلام بعد شهادة أن لا إله الا الله وأن محمدًا رسول الله، العبادة التي فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّته من فوق سبع سموات لعظيم قدرها، والتي إن قبلت قبل سائر عمل العبد وإن رُدَّت ردَّ سائر عمله.

وفرضت على الأنبياء من أول ما بعثوا فقال تعالى لإبراهيم (وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) [الحج: ٢٦] وقال تبارك وتعالى مخاطبا موسى بكلماته ليس بينه وبينه ترجمان (إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [طه: ١٤]، وعيسى حين تكلم في المهد قال: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) [مريم: ٣١]، إسماعيل وإسحق ويعقوب قال تعالى فيهم: (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) [الأنبياء: ٧٣]. وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكد عليه ربه بإقامة الصلاة في كثير من الآيات فقال تعالى: (فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا) [النساء: ١٠٣]

الصلاة العبادة التي وصف الله تعالى أهلها أنهم أهل الإيمان ووعدهم بالمغفرة والجنة فقال تعالى: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الأنفال ٣-٤].

ووصفهم بأنهم أهل التجارة الربحة فقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) [فاطر: ٢٩]

الصلاة هي العبادة التي من ضيعتها فقد خان عهد الله ورَسُولُهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(١) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا حظ في الاسلام لمن ترك الصلاة». وقال علي رضي الله عنه: «من لم يصل فهو كافر». وقال عبد الله بن مسعود «من لم يصل فلا دين له».

العبادة التي أوعدها الله من ضييعها بعبي وهو واد في جهنم فقال تعالى: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا) [مريم: ٥٩]، وأوعده بسقر من لم يكن من أهلها فقال تعالى: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) [المزمل: ٤٢-٤٣] وحرمتهم من كل شفاعة يوم القيامة (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) [المزمل ٤٨]، وأوعده المتكاسل عنها بويل فقال تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) [الماعون ٤-٥].

عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله»^(٢)

الصلاة العبادة التي ضييعها الناس فضاغوا، أمة لا تقيم الصلاة انعدم عندها تعظيم الله والخوف منه فاستحوذ عليها الشيطان وأنساها ذكر الله فانتشرت فيها الفواحش والمنكرات، تنتعم بنعم الله وتكفر ولا تشكر فلا ترجو رحمة من الله ولا تطلب حفظا من الله ولا تطلب نصرا ولا عزا من الله فهي أمة ذليلة لا قيمة لها لأنها فقدت عبوديتها لله وصلتها به وأصبحت محاربة من الله ورسوله يقتل بعضها بعضا وسلط عليها أعداؤها وأصبحت دماؤها مهدورة ولا ذمة لهم عند الله ولا عند رسوله، وما كثر القتل في المسلمين الا لأثم استهانوا بحرمات الله وبفرائضه، فلا عصمة لدمائهم عند الله، حتى يعودوا إلى دينهم تائبين إلى ربهم مستغفرين له سائلين عفوه ورضاه.

(١) سنن ابن ماجه، (ج ١ / ص ٣٤٢)، رقم ١٠٧٩، وقال الالباني: صحيح

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٤)، رقم ٢٥

قال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [البقرة: ١١٤]، فان عمارة المسجد كما تكون ببنائه وإصلاحه تكون أيضا بحضوره ولزومه قال تعالى: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ) [التوبة: ١٨] فجعل حضور المساجد عمارة لها فالمقصود من بناء المسجد إنما هو الذكر والعبادة فيه فما دام لم يترتب عليه هذا المقصود من بنائه صار كأنه هُدم وخرَّب أو لم يبن من أصله. فالعقوبة الخزي والهوان في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

فما خربت بيوت الناس وأزيلت النعم إلا بترك الصلاة وتخريب بيوت الله من العبادة. فالصلاة عمود الدين فمن حفظها حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، فكل مستخف بالصلاة مستهين بها هو مستخف بالإسلام مستهين به. فإن مما لا يختلف فيه المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر وأن إثمه أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الاموال ومن إثم الزنا والسرقه وشرب الخمر وأنه معرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة.

قال الامام أحمد: "وإنما حظهم من الاسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورجبتهم في الاسلام على قدر رغبتهم في الصلاة، فاعرف نفسك يا عبد الله، واعلم أن حظك من الاسلام وقدر الاسلام عندك بقدر حظك من الصلاة وقدرها عندك. واحذر أن تلقى الله عز وجل ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الاسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك" (١)

* * * عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «الْأَذْلُكُمْ عَلَىٰ مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ» قَالُوا بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمْ الرَّبَاطُ» (٢)

(١) ينظر، ابن القيم، الصلاة وأحكام تاركها ص: ٣٤

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ١٥١)، رقم ٦١٠

بهن ترفع الدرجات وتمحى الخطايا وأئمة المسلمين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم متفقون على إقامة الصلوات الخمس في المساجد وهي من أعظم العبادات وأجل القربات وهن من سنن الهدى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيَحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سُنْنَ الْهُدَى وَإِيَّهِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحَسِّنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمُدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ وَلَقَدْ رَأَيْتَنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومٌ النَّفَاقِ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يَقَامَ فِي الصَّفِّ »^(١)

وكان اشد شيء على نفوسهم ترك صلاة واحدة عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الَّذِي تَفْوُتُهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ، كَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»^(٢). (ووتر: سلب وترك بلا أهل ولا مال). وذكر أن حاتما الزاهد فاتته الجماعة مرة، فعزاه بعض أصحابه، فبكى وقال: لو مات لي ابن واحد لعزاني نصف أهل بلخ، والآن قد فاتني جماعة فما عزاني إلا بعض أصحابي، وإنه لو مات لي الابناء جميعا، لكان أهون علي من فوات هذه الجماعة. هكذا كانوا ينظرون لترك الصلاة، فأين من يقتدي بهم ويتبع آثارهم، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

صلواتك صلتك بربك، شاهد ايمانك، عمود دينك، الحاجز بينك وبين الكفر والشرك، اول ما تسأل عنه يوم القيامة، فيها نجاتك من النار ودخولك الجنة، ان اقمته اقامت الدين وان أضعتها أضعت الدين.

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٢٤)، رقم ١٥٢٠

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١١٥)، رقم ٥٥٢

٤٩. شروط وأركان الصلاة

قال تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) [البقرة: ٤٣]

لقد أمر الله تعالى بإقامة الصلاة وخصّها بالذكر في كثير من الآيات لفضلها، وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها، داعية لإقامة غيرها من العبادات وقال تعالى: (أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) [العنكبوت: ٤٥]

وإقامة الصلاة تمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع، والإقبال على الله تعالى فيها. وقد يصلي المسلم سنين طويلة وكأنّه لم يصل وهو لا يعلم ذلك لإخلاله بشرط من شروطها أو ركن من أركانها، ولتكبره أو حيائه من التعلم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ أَرْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ فَرَجِعْ فَصَلِّ ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ فَقَالَ وَعَلَيْكَ السَّلَامُ فَارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي التَّيِّبَةِ بَعْدَهَا عَلَّمَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الوُضُوءَ ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»^(١)

ولا يمكن لأحد أن يقيم الصلاة الا إذا اقتدى بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(٢) وقد بين العلماء شروط وأركان الصلاة بالتفصيل، والشروط هي التي تكون قبل الصلاة أما الأركان فهي داخل الصلاة.

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٥٢)، رقم ٧٥٧

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٢٨)، رقم ٦٣١

وشروط صحّة الصلاة: الطهارة وتشمل طهارة البدن من الحدثين وطهارة البدن والثوب والمكان من الخبث ودخول الوقت وستر العورة واستقبال القبلة.

أمّا النية: النية وهي العزم على فعل العبادة تقرّباً إلى الله تعالى وبالنية تتميّز العبادات عن العادات وتتميّز العبادات بعضها عن بعض، وتتميّز الصلاة أهي ظهر أم عصر أو سنة. ولا تصحّ الصلاة الا بالنية باتّفاق الأئمة الأربعة لقوله صلى الله عليه وسلّم: «إنّما الأعمال بالنيّات». أمّا كون النية شرطاً أو ركناً فعدّها الحنابلة والحنفية شرطاً وقال الشافعية والمالكية ركناً. ولا يترتب على هذا الخلاف شيء فالنية لازمة في الصلاة فلو تركت بطلت الصلاة باتّفاق المذاهب لا فرق في ذلك بين كونها شرطاً في صحّتها أو جزءاً من أجزائها. ومحلّها القلب ولا يشترط التلفّظ بها على الراجح من الأقوال.

وأركان الصلاة أربعة عشر: القيام مع القدرة، وتكبيرة الإحرام، وقراءة الفاتحة، والركوع، والرفع منه، والسجود على الأعضاء السبعة والاعتدال منه، والجلسة بين السجدين، والطمأنينة في جميع الأركان، والترتيب والتشهد الأخير، والجلوس له، والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلّم، والتسليمتان. {الأعضاء السبعة: الجبهة والأنف - هذا عضو - والكفين يعني: اليدين يبسطهما ويمدهما إلى القبلة يعني: أطراف أصابعه ضاماً بعضها إلى بعض. والركبتين. وأطراف القدمين يعني: على أصابع القدمين باسطة لها على الأرض، يعني: أطراف الأصابع على الأرض معتمداً عليها وأطرافها إلى القبلة، هكذا فعل النبي صلى الله عليه وسلّم}

والواجبات ثمانية: جميع التكبيرات غير تكبيرة الإحرام. وقول «سبحان ربّي العظيم في الركوع»، وقول «سمع الله لمن حمده» للإمام والمنفرد، وقول «ربّنا ولك الحمد» للكّل، وقول: «سبحان ربّي الأعلى» في السجود، وقول: «ربّ اغفر لي» بين السجدين، والتشهد الاوّل والجلوس له.

فالأركان ما سقط منها سهواً أو عمداً بطلت الصلاة بتركه. والواجبات ما سقط منها

عمدا بطلت الصلاة بتركه، وسهوا جبره السجود للسهو، والله أعلم.

وسجود السهو سجدتان اثنتان متتاليتان عاديتان، فيها ذكْرُ كحالهما في الصلاة وبينهما جلوس، ولهما تكبير عند الخفض وعند الرفع كالحال في الصلاة، يعقبهما جلوس يسير، ثم تسليم عن اليمين وعن الشمال دون تشهدٍ، ويؤتى بهما قبل التسليم من الصلاة فهذا هو الأصل، ويجوز أن يؤتى بهما بعد التسليم.

ويسن الإستغفار بعد الصلاة كما جاء في الحديث عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا أَنْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». قَالَ الْوَلِيدُ فَقُلْتُ لِأَوْزَاعِي كَيْفَ اسْتِغْفَرُ قَالَ تَقُولُ اسْتَغْفِرُ اللَّهُ اسْتَغْفِرُ اللَّهُ^(١)

*** قال تعالى: (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [الحج: ٣٤-٣٥]

المصلون قليل ومقيموا الصلاة أقل القليل فكن من هذا الأقل تفز بخير الدنيا والآخرة عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعَاهَا ثَمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا»^(٢). وهذا من رحمة الله بالعباد حتى لا يردّ صلاتهم عليهم.

اجتهد في إقامة الصلاة واطلب العون من الله على اقامتها وقبولها وقل (ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم) (وتب علينا انك انت التواب الرحيم) [البقرة: ١٢٧-١٢٨] اللهم اجعلنا من الذين يقيمون الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها إنك سميع الدعاء.

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٩٤)، رقم ١٣٦٢

(٢) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٢١١)، رقم ٧٩٦، وقال الالباني: حسن

٥٠. أسرار الصلاة

قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) [البقرة: ٤٥].
 الصلاة قرّة عيون المحبّين، ولذّة أرواح الموحّدين، وعلامة صدق الصادقين،
 ونزّهة المشتاقين للوقوف بين يدي رب العالمين، هداهم إليها وعرفهم بها، وأهداها إليهم
 على يد رسوله الصادق الأمين، رحمة بهم وإكراما لهم لينالوا بها شرف كرامته والفوز
 بقربه ومناجاته، ومحبّته والأنس به، لا لحاجة منه إليهم، بل منّة منه وتفصّلا عليهم.
 الوقوف بين يدي الملوك يحتاج إلى نظافة الظاهر والباطن، فبالوضوء يتطهّر العبد
 ويقدم على ربّه طاهر البدن من الأوساخ طاهر القلب بالتوبة من الذنوب والمعاصي
 فقد قرن تعالى بين حبه والتوبة والطهارة في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
 الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة: ٢٢٢]، فشرع له بعد الفراغ من الوضوء أن يتشهد ثم يقول: ”اللهم
 اجعلني من التّوّابين واجعلني من المتطهّرين“ فإنّه بالشهادة يتطهّر من الشرك، وبالتوبة
 يتطهّر من الذنوب، وبالماء يتطهّر من الأوساخ الظاهرة^(١)
 عبوديّة التكبير «الله أكبر»: ويستقبل العبد - بيت ربّه - بوجهه ويستقبل الله عزّ وجلّ
 بقلبه رافعا يديه مكبّرا معلنا أنّ الله تعالى أكبر من كلّ شيء قولاً بلسانه وشهادة بقلبه.
 عبوديّة الاستفتاح: ثمّ يستفتح صلاته بدعاء الاستفتاح الذي هو ثناء على الله وتعظيم
 له وقد يقرن بالدعاء والاستغفار فإذا قال: «سبحانك اللهمّ وبحمدك» أو قال «وجّهت
 وجهي للذي فطر السموات والأرض» فقد أثنى على الله تعالى بما هو أهله وأتى بالتحية
 والثناء الذي يُخاطب به الملك عند الدخول عليه تعظيما له وتمجيذا ومقدّمة بين يدي
 حاجته مستحضرا عظمة خالقه خارجا من غفلته.
 عبوديّة الاستعاذة والقراءة: وشرع له أن يستعيذ به من الشيطان لحرصه على خذلان

(١) ينظر، ابن القيم، اسرار الصلاة، ص ٨ وما بعدها

العبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقامات العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته.
 ثم يتلو كلام ربّه ويقف عند كل آية من الفاتحة وقفة يسيرة، ينتظر جواب ربّه له،
 وكأنّه يسمعه وهو يقول: «حمدني عبدي» إذا قال: (الحمد لله ربّ العالمين).
 فإذا قال: (الرّحمن الرّحيم) وقف لحظة ينتظر قوله: «أثنى عليّ عبدي».
 فإذا قال: (مالك يوم الدين) انتظر قوله: «مجّدني عبدي».
 فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين) انتظر قوله تعالى: «هذا بيني وبين عبدي».
 فإذا قال: (اهدنا الصّراط المستقيم) انتظر قوله: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».
 وشرع له التأمين في آخر هذا الدعاء تفاعلاً بإجابته وحصوله وطابعا عليه وتحقيقا له
 ولهذا اشتدّ حسد اليهود للمسلمين عليه حين سمعوههم يجهرون به في صلاتهم.

عبودية الركوع والرفع منه: ثم شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعاً
 لعظمته واستكانة لهيبته وتذللاً لعزّته. فيحنى له صلبه ويضع له قامته وينكس له رأسه
 ويكبّرّه مُعظّمًا له ناطقاً بتسبيحه (سبحان ربّي العظيم)، فإنّ الخضوع وصف العبد
 والعظمة وصف الربّ وكلّما استولى على قلبه تعظيم الربّ وقوى خرج من تعظيم
 الخلق، ثم يرفع منه مؤكداً عبوديته قائلاً «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِْلْءُ
 مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ، بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمُجْدِ أَحَقُّ مَا قَال الْعَبْدُ، وَكُنَّا لَكَ عَبْدًا، اللَّهُمَّ لَا
 مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَّ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»

عبودية السجود: ثم شرع له أن يكبّر ويدنو ويخرّ ساجداً، ويُعطي في سجوده كلّ
 عضو من أعضائه حظّه من العبوديّة، ويضع أشرف ما فيه وهو وجهه بالأرض معفراً
 ناصيته بالتراب بين يدي ربّه ساجداً له راغماً أنفه خاضعاً له بقلبه وجوارحه، متذللاً
 لعظمة ربّه خاضعاً لعزّته، منيباً إليه، مستكيناً ذلاً وخضوعاً وانكساراً.

وقد طابق قلبه في ذلك حال جسده، فسجد القلب للربّ كما سجد الجسد بين يدي
 الله وقد سجد معه أنفه ووجهه ويده وركبته ورجلاه قائلاً (سبحان ربّي الأعلى) فهذا

العبد هو القريب المقرب فهو أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

الاستغفار بين السجدين: وشرع للعبد إذا رفع رأسه من السجود أن يجثو بين يدي الله تعالى، ويكرّر الاستغفار في هذه الجلسة فيقول: « رب اغفر لي، رب اغفر لي » أو « اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، واهدني، وارزقني »، ويكثر من الرغبة فيها إلى ربه، معتذرا من ذنبه ومما كان من نفسه، هذه الخمس كلمات، قد جمعت خير الدنيا والآخرة فإن العبد محتاج بل مضطر إلى تحصيل مصالحه في الدنيا وفي الآخرة، ودفع المضار عنه في الدنيا والآخرة، وقد تضمن هذا الدعاء ذلك كله.

عبودية الجلوس للتشهد وقوله «التحيات لله والصلوات والطيبات»

تعارفت الأمم على تحية خاصة عند ملاقة الملوك والأمراء وتحية عامة عند ملاقة بعضهم بعضا. فكانوا يجيئون الملوك بالسجود والركوع والخضوع والتذلل ورفع اليدين والدعاء بدوام الحياة ودوام الملك مثل أدام الله أيامك وأطال الله بقاءك. وكل هذه التحايا للملوك تدور حول شيء فقده الملوك ولا قدرة لهم عليه وهو دوام الحياة ودوام الملك، والله تعالى هو الحي القيوم، أما التحية العامة فقد اختلف الناس فيها على اختلاف عقائدهم ومشاربهم، وكل التحايا غير تحية الإسلام فيها نوع من الاستعباد والخضوع لغير الله والتذلل بيديه الداني للعالي، والفقير للغني فلذلك نهى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذا أن يسجد له عندما أراد أن يصنع مثل أهل اليمن الذين يسجدون لملوكهم. ثم جاء الله بالإسلام ومحى كل رسم من رسوم الوثنية، وألغيت سنن الجاهلية التي فيها الخضوع والذل والعبودية لغير الله تعالى، وجعل التحيات التي فيها تعظيم وتذلل كلها لله واقتصر على السلام بين المسلمين وجعله النبي صلى الله عليه وسلم سنة الإسلام، وأمر المسلمين بإفشائه، وهو ما جاء في دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ثم عطف عليها الصلوات بلفظ الجمع والتعريف ليشمل ذلك كلما أطلق عليه لفظ الصلاة خصوصا وعموما فكلها لله ولا تنبغي الا له فالتحيات له ملكا والصلوات له

عبودية واستحقاقا، فالتحيات لا تكون إلا لله، والصلوات لا تنبغي إلا له.

ثم عطف عليها بالطيبات، وهذا يتناول أمرين: الوصف والملك.

فالطيبات له وصفا فإنه سبحانه طيب، وكلامه طيب، وفعله كله طيب ولا يصدر منه الا طيب ولا يضاف إليه الا الطيب ولا يصعد إليه الا الطيب. وكل طيب مضاف إليه فالكلمات الطيبات لله وحده فإنها تتضمن تسيحه وتحميده وتكبيره وتمجيده والثناء عليه بآلائه وأوصافه فهذه الكلمات الطيبات التي يثنى عليه بها ومعانيها له وحده لا شريك له كسبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. وكسبحان الله والحمد لله، ولا إله الا الله، والله أكبر. وسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، وكل طيب له وعنده ومنه وإليه، وهو طيب لا يقبل الا طيبا، وهو إله الطيبين وربهم، والطيبون هم جيرانه في دار كرامته، (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [النحل: ٣٢]

عبودية التسليم على الأنبياء والصالحين

ثم شرع له أن يسلم على سائر عباد الله الصالحين، (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ) [النمل: ٥٩]، وكأنه امتثال له فهذه تحية المخلوق بعد تحية الخالق يتساوى فيها الملائكة والأنبياء والصالحون والملوك والأمراء والفقراء، وقدم فيها أولى الخلق بها وهو النبي صلى الله عليه وسلم، الذي نالت أمته على يده كل خير، وعلى نفسه، وبعده على سائر عباد الله الصالحين، وأخصهم بهذه التحية الأنبياء والملائكة، ثم أتباع الانبياء وكل عبد صالح في السماء والأرض.

عبودية الصلاة على النبي: ثم أذن الله تعالى للعبد أن يسأل حاجته وشرع له أن يتوسل قبلها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنها من أعظم الوسائل بين يدي الدعاء. فجاءت التحيات على ذلك، أولها حمد لله، والثناء عليه ثم الصلاة على رسوله ثم الدعاء آخر الصلاة، وأذن النبي صلى الله عليه وسلم للمصلي بعد الصلاة عليه أن يتخير من

المسألة ما يشاء.

عبودية التسليم: «وتحليلها التسليم» أي: صار المصلي بالتسليم محلّ له ما حرّم عليه فيها بالتكبير، من الكلام والأفعال الخارجة عن كلام الصلاة وأفعالها. وبالتسليم يكون العبد قد استسلم لحكم ربّه الدينيّ الأمرّي، ورضي بحكمه الكونيّ القدرّي.

اعلم أنّ لكلّ عمل ثمرة يجنيها العبد، فثمرة الصيام تطهير النفس وثمره الزكاة تطهير المال وثمره الحج مغفرة الذنوب وثمره الصلاة اقبال العبد على الله وإقبال الربّ سبحانه وتعالى على عبده، وهذه نعمة عظيمة تقر بها العيون وتطمئن بها القلوب، وتغفر بها الذنوب وتكثر بها العطايا والهبات من ملك الملوك علام الغيوب، فالعبد لو حمد ربّه على قدر أنفاسه على هذه النعمة كان ما يجب عليه من الحمد عليها فوق ذلك، وأضعاف أضعافه ولو أتى العبد بكل ما يقدر عليه من الطاعات ظاهراً وباطناً، فالذي ينبغي لربه فوق ذلك وأضعاف أضعافه شكراً له فكيف بباقي النعم، سبحانه اللهم وبحمدك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وصلى الله وسلم على من قال « وَجَعَلْتَ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(١)

*** قال تعالى: (فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ. رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ. لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [النور: ٣٦-٣٨]

من تمام العبودية الذهاب للمسجد: عن عثمان بن عفان، قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ فَأَسْبَغَ الوُضُوءَ، ثُمَّ مَشَى إِلَى الصَّلَاةِ الْمُكْتُوبَةِ، فَصَلَّاهَا مَعَ النَّاسِ أَوْ مَعَ الْجَمَاعَةِ أَوْ فِي الْمَسْجِدِ غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ»^(٢).

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (ج ١/ ص ٥٩٤)، رقم ٣٠٩٨، وقال الألباني: صحيح

(٢) صحيح مسلم، (ج ١/ ص ١٤٣)، رقم ٥٧١

من عادة الناس إذا أراد أحدهم أن يعتذر لأحد أو يسأله حاجة فإنه يذهب إلى بيته ولا يعتذر له ويسأله من بعيد. فالذهاب إلى بيت الملك وطلب مغفرته وشفوه وسؤاله وتكليمه عن قرب خير من أن ترسل له رسالة، فوقوف العبد على باب الملك والتذلل والانكسار له معتذرا من خطاياهم وزلله مستمطرا سحائب جوده وكرمه ورحمته، يستدعي عطف سيده عليه وإقباله عليه وقبول اعتذاره، وإذا وقف المذنبون جميعا ببابه رجالا ونساء صغارا وكبارا كان ذلك أقرب لقبول اعتذارهم وإجابة سؤالهم، اقصد بيت ربك ووقف مع المذنبين، أو اجمع عيالك في بيتك وتضرع معهم لله واطلب مغفرته ورحمته وقل ربّي ها أنا وعيالي بين يديك تائبين مستغفرين سائلين فلا تردنا خائبين، انظر إلى السائلين على أبواب المساجد امرأة تأتي بأطفالها أو بزوجها المريض على عربة لتستعطف الناس، وأنت لا تقف مع عيالك أمام ربك لتستجلب رحمته. أوقف الطفل والعجوز والمريض واسأل ما تشاء فإنك مقبلٌ على رب رحيم دعاك للسؤال ووعدك بالإجابة، الناس تقف على أبواب الملوك أياما حتى تدخل عليهم، وربك جعل لك خمس أوقات في اليوم يقبل بها عليك ويسمعك ويعطيك، وأنت يا مغبون ضيقت الفرص من يدك وشغلت نفسك بسؤال العبيد مثلك والتذلل لهم، أقبل على ربك وأرخ نفسك واقتد بنبيك صلى الله عليه وسلم القائل: « يَا بَلَاءُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرْحَنًا بِهَا »^(١)

فأرخ نفسك بالصلاة فلا راحة للعبد الا بصلته لربه، أد الفرائض وتجب الى الله بالنوافل، واخلص النية، واصبر على الطاعة، حتى تصل الى دار القرار، فلا قرار للقلب حتى يصل الى وليه ومعبوده.

اللهم ارحنا بالصلاة وكفر بها سيئاتنا واجعلها ربيع قلوبنا وجلاء همومنا وغمومنا واجعلها نورا لنا على الصراط يوم القيامة بفضلِكَ يا كريم.

(١) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٤٥٣)، قال الالباني: صحيح ينظر ابن القيم، اسرار الصلاة

٥١. الخشوع في الصلاة

قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) [المؤمنون ١-٢].
 لقد وصف الله تعالى المؤمنين الذين يرثون الفردوس بعدة صفات ثلاث منها
 في الصلاة، وهي الدوام والمحافظة والخشوع، فقال تعالى: (الذين هم في صلاتهم
 خاشعون). (والذين هم على صلواتهم يحافظون). (الذين هم على صلاتهم دائمون).
 قال الطبري: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) والذين هم على أوقات صلاتهم
 يحافظون، فلا يضيّعونها ولا يشتغلون عنها حتى تفوتهم، ولكنهم يراعونها حتى يؤدوها
 فيها، وقال (عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ): إلا الذين يطيعون الله بأداء ما افترض عليهم من
 الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيّعون منها شيئاً^(١)

أما الخشوع فيها فهو من المطالب الشرعية التي لا غنى للعبد عنها، وأصل الخشوع هو
 لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقة فإذا خشع القلب تبعه خشوع
 جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له كما قال صلى الله عليه وسلم: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ
 مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)^(٢)،
 فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر والرأس والوجه وسائر الأعضاء وما ينشأ عنها
 حتى الكلام^(٣)

واول ما يرفع من العلم الخشوع، خشوع القلوب والجوارح، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ
 كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فَشَخَّصَ بَبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ «هَذَا أَوْانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ
 حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ». فَقَالَ زِيَادُ بْنُ أَبِي نَصَارٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يُخْتَلَسُ
 مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنَقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا. فَقَالَ «تَكَلَّتْ أُمَّكَ يَا زِيَادُ

(١) جامع البيان، (ج ١٩ / ص ١٢، ج ٢٣ / ص ٦١١)

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ٢٠)، رقم ٥٢ .

(٣) تفسير ابن رجب، (ج ٢ / ص ٨)

إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَذِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ». قَالَ جُبَيْرٌ فَلَقِيْتُ عَبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قَالَ قُلْتُ أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ. قَالَ صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِنْ شِئْتَ لِأَحَدْتَنِكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ الْجُمُعَةِ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا^(١). فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن العلم عند أهل الكتابين من قبلنا موجودٌ بأيديهم ولا ينتفعون بشيءٍ منه لما فقدوا المقصود منه، وهو وصوله إلى قلوبهم، حتى يجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم، وإنما هو على ألسنتهم تقوم به الحجة عليهم. وخشوع الصلاة له ظاهر وباطن فاذا كان في الظاهر دون القلب فهو خشوع النفاق عن أبي الدرداء قال: استعيذوا بالله من خشوع النفاق قيل له وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع.

قال الالوسي: "خاشعون ظاهرا وباطنا والخشوع في الظاهر انتكاس الرأس والنظر إلى موضع السجود وإلى ما بين يديه وترك الالتفات والطمأنينة في الأركان ونحو ذلك والخشوع في الباطن سكون النفس عن الخواطر والهواجس الدنيوية بالكلية أو ترك الاسترسال معها وحضور القلب لمعاني القراءة والأذكار ومراقبة السر بترك الالتفات إلى المكنونات واستغراق الروح في بحر المحبة"^(٢)

يقول شيخ الاسلام^(٣): والذي يعين على ذلك شيئان: قوة المقتضي، وضعف الشاغل. أما الأول: فاجتهاد العبد في أن يعقل ما يقوله ويفعله، ويتدبر القراءة والذكر والدعاء، ويستحضر أنه مناج الله تعالى، كأنه يراه، فإن المصلي إذا كان قائما فإنما يناجي ربه. والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ثم كلما ذاق العبد

(١) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٣١)، رقم ٢٦٥٣، وقال الالباني: صحيح

(٢) الالوسي، روح المعاني، (ج ١٨ / ص ٧٣)

(٣) الفتاوى الكبرى، (ج ٢ / ص ٢٢٢)

حلاوة الصلاة كان انجذابه إليها أكد، وهذا يكون بحسب قوة الإيمان.
وأما زوال العارض: فهو الاجتهاد في دفع ما يشغل القلب من تفكر الإنسان فيما لا يعنيه، وتدبر الجواذب التي تجذب القلب عن مقصود الصلاة، وهذا في كل عبد بحسبه، فإن كثرة الوسواس بحسب كثرة الشبهات والشهوات، وتعليق القلب بالمحجوبات التي ينصرف القلب إلى طلبها، والمكروهات التي ينصرف القلب إلى دفعها.

يقول ابن رجب: "والخشوع الحاصل في القلب إنما هو من معرفة الله عز وجل ومعرفة عظمته وجلاله وكماله فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع وتتفاوت القلوب في الخشوع بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له... فمن خاشع لقوة مطالعته لقرب الله من عبده واطلاعه على سره وضميره المقتضي للاستحياء من الله ومراقبته في الحركات والسكنات، ومن خاشع لمطالعته لجلال الله وعظمته وكبريائه المقتضي لهيبته، ومن خاشع لمطالعته لكماله وجماله المقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقاءه ورؤيته، ومن خاشع لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضي للخوف منه وهو سبحانه وتعالى جابر القلوب المنكسرة لأجله وهو سبحانه وتعالى يتقرب ممن يناجيه في الصلاة ومن يعفر له وجهه في التراب بالسجود"^(١)

قال تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [الحديد: ١٦]، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَوْتَبْنَا بِهِذِهِ الْآيَةِ إِلَّا أَرْبَعَ سِنِينَ . فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يَعَاتِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» . فليعاتب بعضنا بعضا ولنعاتب انفسنا على فقدان الخشوع من القلوب.

يقول ابن القيم: "الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك

(١) تفسير ابن رجب، (ج ٢ / ص ١١)

وتعالى الذي هو روحها ولبها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه" (١) وقد علق سبحانه وتعالى الفلاح بخشوع المصلي في صلاته، فمن فاته خشوع الصلاة لم يكن من اهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً، بل لا يظهر الخشوع قط الا مع الطمأنينة، وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً، وكلما قل خشوعه اشتدت عجلته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا اقبال على العبودية، ولا معرفة حقيقة العبودية" (٢)

* * * عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ اللَّهُ قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَظَرَّ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ « إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُصَامُونَ فِي رُؤْيِيهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا ثُمَّ قَرَأُ: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ [ق: ٣٩]، قَالَ إِسْمَاعِيلُ افْعَلُوا لَا تَفُوتَنكُمْ» (٣)

فروية الله سبحانه وتعالى في الآخرة متوقفة على أداء صلاة الفجر وصلاة العصر. فإذا أردت أخي المسلم أن تكون من أهل هذه الآية (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) [القيامة: ٢٢-٢٣]، من الوارثين للفردوس الأعلى عليك أن تجعل محور حياتك كلها الصلاة وكل أعمالك خارج أوقات الصلاة فلا تجعل الصلاة عند فراغك من العمل ولكن اجعل عمل الدنيا بعد أداء الصلاة، وادعو بهذا الدعاء، (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ . رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) [إبراهيم: ٤٠-٤١]

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص ١٠

(٢) الصلاة وحكم تاركها، ص ١٤٠

(٣) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١١٥)، رقم ٥٥٤

٥٢. الزكاة

قال تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [البقرة: ١١٠].

لقد أمر الله تعالى بالزكاة وفرضها على الأمم من قبلنا وقرنها مع الصلاة في كثير من الآيات وجعلها سبب أخوة الدين فقال تعالى: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [التوبة: ١١]. فلا تتم أخوة الدين إلا بالصلاة والزكاة، ومن جحد وجوبها ممن عاش بين المسلمين فإنه كافر لأنه مكذب بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأجمع الصحابة على قتال مانعي الزكاة واعتبروهم مرتدين عن الإسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبيّن الرسول صلى الله عليه وسلم أنها ركن من الأركان التي بُني عليها الإسلام، ففي صحيح البخاري: عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(١)

وتوعد الله تعالى تاركها بالعذاب الشديد يوم القيامة فقال تعالى: (يَوْمَ يُجْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُرُونَ) [التوبة: ٣٥]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ »^(٢)

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١١)، رقم ٨

(٢) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ٧٠)، رقم ٢٣٣٩

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَا لَّا فَلَـمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَفْرَعًا، لَهُ زَيْبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَنْزُكَ» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: (وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) (١)

والزكاة في اللغة النماء والتطهير، فالمال ينمي بها من حيث لا يرى وهي مطهرة لمؤديها من الذنوب، قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) [التوبة: ١٠٣] وهي شاهد لصدق الإيمان عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا» (٢).

وهي سبب لنزول الخيرات وقيل ينمي أجرها عند الله تعالى، قالوا: ومنعها سبب لمنع نزول الرحمة من السماء. ففي الحديث: «وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبِهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا» (٣)، فالأمة التي لا تؤدِّي الزكاة لا كرامة لها ويصبح حال البهائم أفضل منها بحيث تمطر رحمة ببهائمها لا رحمة بها.

الزكاة من اهم اسباب الرحمة في الدنيا والآخرة لقول النبي صلى الله عليه وسلم «ارحموا تُرحموا واغفروا يغفر الله لكم» (٤) فهي سبب للتراحم بين الناس ونزول الرحمة عليهم لأنّها تقوي الرابطة الاجتماعية بين المسلمين وتنقي المجتمع من كثير من الأمراض الاجتماعية والأخلاق السيئة فهي تحارب البخل والفقر والحسد والسرقه فالغني يخرج فيها من البخل والشح الى العطاء والكرم والفقير يخرج فيها من الفقر وذلل السؤال والحسد لأخيه الغني،

(١) صحيح البخاري، (ج ٦ / ص ٣٩)، رقم ٤٤٦٥

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ١٤٠)، رقم ٥٥٦

(٣) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٣٣٢)، رقم ٤٠١٩، وقال الالباني: حسن

(٤) الأدب المفرد، (ص: ١٣٨)، رقم ٣٨٠ وقال الألباني: صحيح

وتردع السارق عن السرقة إذا وجد عنده ما يكفيه وهذه الأمراض إذا انتشرت في الأمة عصفت بإخوتها وتوادها وتراحمها وأمنها وسادت فيها الفوضى وأصبح التنافس على الدنيا بطرق غير مشروعة مما يؤدي إلى تفكك المجتمع وهلاك الأمة واستحواذ الأمم الأخرى عليها، ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد.

**قال تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[النور: ٥٦]

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ إِنَّهُ يَسْمَعُ خَفَقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِهِ وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِهِ وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ فَيُؤْتَى مِنْ قَبْلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قَبِلي مَدْخُلُ ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَيَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قَبِلي مَدْخُلُ ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قَبِلي مَدْخُلُ ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قَبْلِ رِجْلَيْهِ فَتَقُولُ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ -: مَا قَبِلي مَدْخُلُ ...» (١)

أيها المسلمون: ما قيمة الأموال التي تبخلون بزكاتها، وما فائدتها، وثمرتها لغيركم في الدنيا، ونقمة عليكم في الآخرة، إنكم لا تطيقون الصبر على وهج نار الدنيا، فكيف تصبرون على نار الآخرة. فاتقوا الله عباد الله واتقوا النار ولو بشق تمرة، وأدوا الزكاة طيبة بها نفوسكم.

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسَنَا تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا» (٢)

(١) الألباني، التعليقات الحسان، (ج ٥ / ص ٩٥)، رقم ٣١٠٣، وقال: حسن

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٨١)، رقم ٧٠٨١

٥٣. الاستعداد لشهر الصوم

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٣]

لقد أولى الإسلام أهميّة بالغة للوقت فهو رأس مال المسلم للوصول الى رضا الله والجنة، فأقسم الله تعالى بالزمن وقال عزّ وجلّ (وَالصُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) (وَالعَصْرِ)، وفي ذلك إشارة إلى أهميّة الوقت في حياة البشريّة كلّها والمسلمين خصوصاً، فاعلم الأحكام الشرعيّة مرتبطة بأوقات محدّدة كالصلاة والزكاة والصيام والحجّ والرضاع والطلاق والأضحية والسفر. وقد غفل كثير من المسلمين في زماننا عن أهميّة الوقت في حياتهم فضيّعوا أوقاتهم فيما لا ينفعهم حتى أن أحدهم يقول لصاحبه {تعال نضيع وقتنا} فما أشدّ غفلتهم.

قال الحسن البصريّ رحمه الله: "يا ابن آدم، إنّما أنت أيام فإذا ذهب يوم ذهب بعضك. وقال: أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم أشدّ منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم" (١). فالعاقل ابن وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلّها فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبداً قال الشافعيّ: صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين: "الوقت كالسيف فإن لم تقطعه قطعك ونفسك إن أشغلتها بالحقّ والباطل" (٢)

وشهر رمضان أفضل أوقات المسلم فهو شهر مبارك تفتح فيه ابواب السماء، ومن بركته فيه ليلة خير من ألف شهر، ومن حرم الفضل فيه لا يناله في غيره، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُّبَارَكٌ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ وَتُغْلَقُ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ لَلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ» (٣)

(١) السلیمان، موارد الظمآن لدروس الزمان، (ج ٤/ ص ٦٢٦)

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، (ص: ١٠٩)

(٣) مشكاة المصابيح (ج ١/ ص ٦١٢)، رقم ١٩٦٢، وقال الالباني: صحيح

شهر المغفرة والرحمة والعتق من النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِذَا كَانَ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلِّسَتِ الشَّيَاطِينُ»^(١) ومن لم يغفر له في رمضان باعده الله في النار. قال صلى الله عليه وسلم: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْتُ: آمِينَ قَالَ: وَمَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْتُ: آمِينَ فَقَالَ: وَمَنْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْتُ: آمِينَ فَقُلْتُ: آمِينَ»^(٢)

فالمسلم في رمضان يحتاج إلى تقسيم وقته واستغلال كل دقيقة في طاعة تقربه من ربه فأهل الخير يستعدون للقرب من الله وأهل الشر يستعدون لإبعادهم من ربهم فمن سدده الباري عز وجل أهمه كيف يحافظ على نعمة الوقت لتظهر بركة التوفيق الرباني في عمله، وعلى المسلم أن يتخذ خطوات يستعد فيها للدخول في رحمة الله.

أولاً: اغلاق ابواب الشر وابعاد كل ما يجرح الصيام ويقلل من قدسيته وتنظيف البيت من القنوات الفضائية الساقطة ومسحها من التلفاز قبل دخول الشهر الفضيل والاقتصار على القنوات الدينية التي تذكر المسلم بربه وترغبه بالطاعة وتنفره من المعصية، وهجر الأنترنت نهائياً في هذا الشهر لأن نظرة واحدة محرمة قد تفسد عليك صيامك فالنظرة سهم من سهام ابليس. هل من المعقول ان يمسك المسلم عن الطعام المباح الحلال ولا يمسك عن النظر الحرام والكلام الحرام.

ثانياً: إصدار أمر باعتقال النفس الأمارة بالسوء ووضعها في سجن الطاعة، والابتعاد عن كل ما يلهي عن ذكر الله والاقتراب من الذين يذكرونك بالله تعالى، وإيقاف هدر الوقت في الملهيات والأسواق والجلوس على الأبواب وفي الطرقات واستغلال وتدارك الضائع منه في الطاعات، وحاول أن تقنع عائلتك بهذا القرار بتذكيرهم بفضل هذه

(١) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ١٢١)، رقم ٢٥٤٨

(٢) الالباني، صحيح الترغيب والترهيب، (ج ١ / ص ٢٤١)، رقم ٩٩٦، وقال: صحيح لغيره

الأوقات وخسارة من لم يستغلها في الطاعات.

ثالثا: قراءة القرآن قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا مٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(١) لا بد للمسلم والمسلمة من وقت يقرأ فيه القرآن يحده ويلزم نفسه به وعلى الأقل يقرأ في كل يوم جزء حتى يختم القرآن في هذا الشهر المبارك والجزء مقسم إلى حزبين وكل حزب إلى أربعة أرباع فلو قرأ المسلم قبل الصلاة ربعا وبعد الصلاة ربعا لأكمل في أربع صلوات جزءا كاملا والربع لا يتجاوز خمس دقائق في الأكثر. كان السلف يهجون حلق التحديث والتعليم في رمضان ليتفرغوا لقراءة القرآن والنظر فيه. ألا نستطيع أن نلزم أنفسنا على هجر مجالس اللغو ونتفرغ للقرآن والقرب من الله.

رابعا: أوقات الإفطار وقبل الأذان بدقائق لحظات ثمينة ودقائق غالية من أفضل الأوقات للدعاء وسؤال الله سبحانه وتعالى وهي من أوقات الاستجابة والعباد صائم مقبل على الله منكسرة نفسه ومع ذلك يغفل كثير من الناس عن هذه اللحظات فاحرص أخي المسلم على استغلال هذه اللحظات برفع الأيدي والأكف والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى الذي يقول: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) [غافر: ٦٠]، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ لَا تُرَدُّ دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ»^(٢)

خامسا: أوقات السحر من أفضل الأوقات للدعاء والتوبة والاستغفار قال تعالى عن أهلها: (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) أَي مَا يَنَامُونَ (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) [الذاريات: ١٧-١٨]، أوقات يقرب فيها الرب سبحانه وتعالى من عباده كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُنزَلُ رَبُّنَا

(١) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ١٧٥)، رقم ٢٩١٠، وقال الألباني: صحيح

(٢) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ١ / ص ٥٨٢)، رقم ٣٠٣٢، وقال الألباني: حسن

تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلُّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْتَمِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَاسْتَجِبْ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيهِ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» وفي مسلم: «هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ، هَلْ مِنْ تَائِبٍ هَلْ مِنْ سَائِلٍ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجَرَ الْفَجْرُ»^(١)

سادسا: الوقت بعد صلاة الفجر من الأوقات المباركة فإنه وقت غنيمة وهو أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصّة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطرّ. عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ» قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَامَّةٌ، تَامَّةٌ»^(٢)

*عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا كَانَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، صُفِدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَنَادَى مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَاللَّهُ عُتْقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ»^(٣)

ربّ العالمين الرحمن الرحيم يدعوك ليغفر لك ويرحمك ويعتقك من النار ويدخلك الجنة فلا تضيع هذه الفرصة من يدك قال صلى الله عليه وسلم «النَّاسُ غَادِيَانِ فَمُبْتَاغٍ نَفْسُهُ فَمَعْتَقُهَا وَبَائِعُ نَفْسِهِ فَمَوْبِقُهَا»^(٤) واعلم أنّ الموفق من وفقه الله تعالى والمخذول من خذله الله تعالى. اللهم انا نسالك مغفرتك ورحمتك وفضلك واحسانك والعتق من النار والفوز بالجنة لا اله الا انت العزيز الغفار.

(١) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٥٣)، رقم ١١٤٥، صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٧٦) رقم ١٨١٣

(٢) سنن الترمذي، (ج ٢ / ص ٤٨١)، رقم ٥٨٦، وقال الالباني: حسن

(٣) سنن ابن ماجه، (ج ١ / ص ٥٢٦)، رقم ١٦٤٢، وقال الالباني: صحيح

(٤) الألباني، التعليقات الحسان، (ج ٦ / ص ٤٨٣)، رقم ٤٤٩٧، وقال: صحيح

٥٤. صيام رمضان

قال تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) [البقرة: ١٨٥]

إن من فضل الله على عباده وإحسانه إليهم أن يسر لهم الأسباب التي ترفع في درجاتهم وتجعلهم قريبين منه، فاختار شهر رمضان من بين الشهور يكفر الله فيه الذنوب ويقل العثرات ويرفع الدرجات، عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »^(١)، وفيه ليلة القدر التي اختارها على جميع الليالي، فيها تغفر الذنوب وتجاب الدعوات.

أمر الله تعالى عباده بالصوم واختصه لنفسه وهو تعالى يجزي به وجعله جنة من النار، ولخلوف فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك، وجعل للصائم فرحتان فرحة في الدنيا وفرحة في الآخرة قال صلى الله عليه وسلم: « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَىٰ بِهِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثُ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْخَبُ فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمُسْكِ وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ »^(٢)

[فلا يرفث: المراد بالرفث هنا الكلام الفاحش، ولا يجهل: أي لا يفعل شيئاً من أفعال

أهل الجهل كالصياح والسفه ونحو ذلك، لخلوف فم الصائم: هو تغير رائحة الفم] فالصوم لا يقع فيه الرياء كما يقع في غيره، وأما غيره من العبادات فقد اطلع عليها بعض الناس، المراد بقوله وأنا أجزي به أي انفراد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته . والصيام من اسباب دخول الجنة عن أبي أمامة قال قلت يا رسول الله أخبرني بعمل

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٦)، رقم ٣٨

(٢) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ١٥٧)، رقم ٢٧٦٢

يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ قَالَ: «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَا عِدَلَ لَهُ أَوْ قَالَ لَا مِثْلَ لَهُ»^(١)

ومن تكريم الله تعالى للصائمين أن جعلهم من ذوي الامتيازات الخاصة يوم القيامة فجعل لهم بابا خاصا بهم يدخلون منه إلى الجنة لا يدخل منه غيرهم.

عَنْ سَهْلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَقُومُونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ فَإِذَا دَخَلُوا أَغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»^(٢).

ورغب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصيام في غير رمضان ليزيد من حسنات أمته ويبياعدهم من النار، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»^(٣). وسئلت عائشة عن صيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان يتحرى صيام الاثنين والخميس.

وأذن النبي صلى الله عليه وسلم بالصيام عن الميت الذي عليه صوم كأن يكون أظفر من رمضان ومات ولم يقضه أو عليه كفارة ولم يؤدبها أو عليه نذر صوم، فأمر وليه بالصيام عنه حتى يؤدب دينه، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»^(٤)

فالصيام فرض من الله خالصا له، نجاة من النار، باب من أبواب الجنة، فيا خسارة من لم يصم رمضان والتدب بشهوته وقدم مرضاة نفسه على مرضاة الله فذلك هو الخسران المبين. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرَتْ

(١) المسند، (ج ٥ / ص ٢٦٤)، رقم ٢٢٣٣٠، تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات

(٢) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ٢٥)، رقم ١٨٩٦

(٣) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ٢٦)، رقم ٢٨٤٠

(٤) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ٣٥)، رقم ١٩٥٢

عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانَ فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكَبِيرَ فَلَمْ يُدْخِلْهُ الْجَنَّةَ قَالَ رَبِيعِي وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَدْ قَالَ أَوْ أَحَدَهُمَا»^(١). شقي عبد أدرك رمضان فانسلخ منه ولم يغفر له، وسعد عبد صام رمضان ايماناً واحتساباً راجياً ثواب ربه، منتظراً فرحة عند لقاءه.

***عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ أَنَّ إِعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَائِرَ الرَّأْسِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فَقَالَ «الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إِلَّا أَنْ تَطْوَعَ شَيْئًا» فَقَالَ أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ قَالَ «شَهْرَ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطْوَعَ شَيْئًا» قَالَ أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ قَالَ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَالَ وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لَا أَتَطْوَعُ شَيْئًا وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ»^(٢).

فرمضان فرصة للتغيير وكسر القلوب وإعادتها لطاعة ربها وإصلاح النفوس وتطهيرها من الشهوات، والابانة إلى الله تعالى والاعتذار له وطلب مغفرته وهو الغفور الرحيم (إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد: ١١]، اللهم اعنا على الصيام والقيام واجعلنا من المخلصين الصائمين القائمين

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ»^(٣)

(١) المسند، (ج ٢ / ص ٢٥٤)، رقم ٧٤٤٤، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا اسناد حسن

(٢) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ٢٣)، رقم ٦٩٥٦

(٣) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٣٦٨)، رقم ٣٢٣٤، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن

٥٥. التقوى

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [الحشر ١٨].

الحمد لله الذي أوصى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ) [النساء: ١٣١]، وجعل خير زاد المسلم في سفره إلى الله تعالى والدار الآخرة التقوى، فقال تعالى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) [البقرة: ١٩٧]

وجعل الله تعالى الصوم سببا لحصول التقوى، والتقوى هي: أن تجعل بينك وبين محارم الله وقاية، أي: حاجزاً، والصيام حاجز عن المعاصي وقاية من النار قَالَ عَثْمَانُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الصَّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ، كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ»^(١) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الأحماس: حدثنا عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقا ذا شوك؟ قال نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وشمرت، قال كعب: وذلك التقوى.

وأجمل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه التقوى بـاربع كلمات فقال: "التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل".

قال الغزالي رحمه الله: "التقوى كنز عزيز فإن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وعلق نفيس وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وملك عظيم فخيرات الدنيا جمعت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى وكل خير وسعادة في الدارين تحت هذه اللفظة فلا تنس نصيبك منها"^(٢)

أهل التقوى هم ملوك الدنيا والآخرة فالعاقبة للتقوى وأهلها وما تفاضل الناس عند الله

(١) سنن ابن ماجه، (ج ١ / ص ٥٢٥)، رقم ١٦٣٩، وقال الالباني: صحيح

(٢) المناوي، فيض القدير، (ج ٦ / ص ٢٧)

تعالى في الدنيا والآخرة الا بالتقوى فهي الصفة التي ترفع صاحبها أعلى المنازل وأكرمها عند الله قال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات: ١٣]
فلا قيمة للإنسان بحسب ولا نسب ولا شهادة ولا منصب الا إذا اقترن ذلك بالتقوى. ولو لم يكن في فضل التقوى إلا قول الله تعالى (والله يحب المتقين) [آل عمران:

٧٦]، لكفى بذلك شرفاً أن يتسابق الناس لنيل هذه المنزلة عند الله تعالى والفوز بها.
— ومن فضائل التقوى أتمها سببٌ لنيل معية الله الخاصة، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) [النحل: ٦] (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [البقرة: ١٩٤]

— أتمها سبب لتيسير أمور العبد وخروجه من المأزق ورزقه من حيث لا يحتسب، قال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق: ٢-٤]

— التقوى هي أفضل ضمان لمستقبل أولادك بعد موتك قال تعالى: (وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ) [النساء: ٩]

— التقوى والصبر أمضى سلاح للمؤمن للأمن من كيد عدوه ومكره قال تعالى: (وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَاتَّقُوا لَآ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) [آل عمران: ١٢٠]

— التقوى سبب للتمييز بين الحق والباطل وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [الانفال: ٢٩]

— التقوى وصية الله ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين وعلى قدر كمال التوحيد في القلب تكون التقوى، فالتقوى في حقيقتها وجوهرها تنبني على استحضار القلب لعظمة الله تعالى واستشعار هيئته وجلاله وكبريائه والخشية لمقامه والخوف من حسابه وعقابه. فكلما كان التوحيد كاملاً في قلبك كلما كانت التقوى على قدره، وكلما ضعف التوحيد في قلبك قلّت التقوى وتجرات على محارم الله وانتهاكها، فما الذي يمنعك

من الكفر والشرك والرياء والنفاق، هي عظمة الله في قلبك، فهو الملك القدوس السلام العزيز الجبار المتكبر فتسبح الله تعالى وتقول سبحان الله عما يشركون فهو المستحق للعبادة وحده. وما الذي يمنعك من الغش والخداع والبخل والفحش والسب واللعن وبذيء الكلام، هو استشعار أسماء الله وصفاته في قلبك. فهو الرقيب السميع البصير، فتخاف الله وتستحيي أن يراك حيث منعك أو أن يفقدك حيث أمرك.

**** قال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) [المائدة: ٧]**

أمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بالمواظبة على التقوى، ثم أعلمهم انه يعلم ما في صدورهم من الأسرار والخواطر، وقد نهى رسولنا صلى الله عليه وسلم عن الاعمال التي توقع البغضاء والشحناء بين العباد، وأمرنا ان نكون عباد الله اخوانا، ونهانا عن ظلم اخواننا وخذلانهم واحتقارهم، وأخبرنا ان التقوى في القلوب فقال صلى الله عليه وسلم: « لا تَحَاسَدُوا وَلا تَنَاجَشُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَدَابَرُوا وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَحْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا»، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ « بِحَسَبِ امْرِيٍّ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ»^(١)

التقوى محلها القلب وهي تعظيم الله ومحبته وخوفه ورجاؤه وخشيته والرغبة فيما عنده تظهر على الجوارح قولاً وعملاً وحالاً فأكرم الناس عند الله اتقاهم له كن من أهل التقوى تفر في الدنيا والآخرة. «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالعَفَاةَ وَالعَنَى»^(٢)

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٠)، رقم ٦٧٠٦

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٨١)، رقم ٧٠٧٩، ينظر، العتيبي، التقوى، (ج ١ / ص ١٤)

٥٦. علامات التقوى

قال تعالى: (ألم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [البقرة: ١-٤]

ذكرت التقوى بأكثر من (١٥٠ آية) في القرآن ومن يتدبر آيات التقوى وأحاديثها يجد أن خير ثمراتها حب الله ومعيته للمتقين، وأنها سبب لرحمة الله للعبد ومنجاة له من العقوبات التي تحل بالعاصين في الدنيا، ومن العذاب المقيم في الآخرة. في الدنيا: قال تعالى: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [النمل: ٥٢-٥٣]، وقال تعالى: (قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ١٥٦].

في الآخرة: قال تعالى: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا. ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) [مريم: ٧١-٧٢]

فكيف يكون العبد من المتقين؟

أولاً: السير على صراط الله المستقيم وذلك بالعمل بالكتاب والسنة بفهم الجيل الأول واجتناب السبل التي تخرج عن الصراط المستقيم التي استحدثت بالأهواء والآراء والأفكار، قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [الانعام: ١٥٣]

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: « وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ » ثُمَّ تَلَا: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ] [الانعام: ١٥٣] (١)

ثانيا: تعظيم شعائر الله وتعظيم حرمانه: قال تعالى (ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) [الحج: ٣٢]، وشعائر الله، معالم حدود الله، وأمره ونهيهِ وفرائضه. فتعظيم الأمر يدل على تعظيم الأمر، وذلك علامة على التقوى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الَّذِي تَقُوتهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ، كَأَنَّهَا وَتَرَاهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ» (٢) [سُلب أهله وماله فأصبح بلا مال ولا أهل]، وهذا من تعظيم قدر الصلاة. والصلاة في المسجد من أكبر شعائر الدين وعلاماته.

ثالثا: إحسان العمل: أي إقامة الأوامر الشرعية على أحسن الوجوه قال تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) [النحل: ٣٠]، وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) [الكهف: ٣٠]، وقال تعالى: (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [المالك: ٢]، قال الفضيل: “أخلصه وأصوبه، وقال: والخالص إذا كان لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة”. قال طلق بن حبيب: “التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله” (٣)، يكون الباعث على العمل هو الإيثار فقط، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيَابًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» (٤)

رابعا: الإحسان الى الخلق: وصف الله المتقين بمعاملة الخلق بالإحسان إليهم، بالإنفاق

(١) الألباني، التعليقات الحسان، (ج ١ / ص ١٤٦)، وقال: حسن صحيح

(٢) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١١٥)، رقم ٥٥٢

(٣) ابن رجب، تفسير ابن رجب، (ج ٢ / ص ٤٩٠) (ج ١ / ص ٣٦٢)

(٤) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٦)، رقم ٣٨

وكظم الغيظ والعفو عنهم، قال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]... فالإنفاق في السراء والضراء يقتضي غاية الإحسان بالمال من الكثرة والقلة، وكظم الغيظ والعفو عن الناس يقتضي عدم المقابلة على السيئة من قول وفعل وذلك يتضمن إيانة القول واجتناب الفحش والإغلاظ في المقال، ولو كان مباحاً، وهذا نهاية الإحسان فلهذا قال تعالى: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .. فجمع بين وصفهم ببذل الندى واحتمال الأذى، وهذا هو غاية حسن الخلق الذي وصى به النبي - صلى الله عليه وسلم لمعاذ^(١)

**** قال تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . هُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [يونس: ٦٢-٦٤]**

أولياء الله الذين من عاداهم فقد بارز الله بالمحاربة، وأخص صفاتهم الإيمان والتقوى قَالَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغِيظُهُمُ الْآنبيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى » قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ، قَالَ «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَىٰ غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنْ وُجِّهَهُمْ لِنُورٍ وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ » وَقَرَأَ هَذِهِ آيَةَ (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ^(٢)

كل من آمن بالله واتقاه كان من أولياء الله، وكل من علم دين الله وعمل به فهو من أولياء الله قال الامام مالك: والحب في الله هو حب أولياء الله، وهم الأتقياء العلماء بالله، المعلمون لدين الله العاملون به.

(١) تفسير ابن رجب، (ج ١ / ص ٥٦٠)

(٢) سنن أبي داود، (ج ٣ / ص ٣١١)، رقم ٣٥٢٩، وقال الألباني: صحيح

٥٧. عيد الفطر

قال تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [البقرة: ١٨٥]

لقد تفضّل الله تعالى بيوم العيد على عباده وأبدلهم بأعياد الجاهليّة عيدين سنّهما لهم نبيّه صلى الله عليه وسلّم عيد الفطر وعيد الأضحى. عَنْ أَنَسٍ قَالَ: ” قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَلَا أَهْلَ الْمَدِينَةَ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهَا فَقَالَ قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ يَوْمَانِ تَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَاِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبَدَلَكُمْ يَوْمَيْنِ خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْفِطْرِ وَيَوْمَ النَّحْرِ“^(١)

فمهما تعدّدت الأعياد الباطلة ومهما زخرت أسماؤها فلا عيد للمسلمين غير هذين العيدين لأنّ الله تعالى هو الذي اختارهما لهم رحمة بهم فمن اتّخذ أعيادا أخرى هذا يعني أنّه غير راضٍ باختيار الله تعالى وهدى النبيّ صلى الله عليه وسلّم، (وما كان المؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورَسُولُهُ أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا) [الأحزاب: ٣٦]. فاختر ما شئت وارض بما شئت فإنّما الإسلام واختيار الله تعالى وإمّا الجاهليّة وأعيادها.

في عيد الفطر أمر الله تعالى بعد الانتهاء من الصيام بالتكبير والشكر، فقال عزّ وجلّ: (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، فتكبير الله تعالى يعني تعظيمه بقولنا الله أكبر، وما أسهل تعظيمه باللسان وما أصعبه في القلوب، فلا يتمّ تعظيمه في القلوب إلا إذا كنّا عبيدا لله تعالى. فقدنا تعظيمه في القلوب بعدما انفرط عقد عبوديتنا لله واجتماعنا على حبه والاعتصام به وأصبحنا عبيدا لشياطين الإنس والجنّ عبيدا للهوى تتقاذفنا أمواج الشبهات والشهوات يمينا وشمالا لإخراجنا من دين الله، وإخراجنا من رحمة الله تعالى، وإخراجنا من السير خلف النبيّ صلى الله عليه وسلّم.

(١) المسند، (ج ٣ / ص ١٠٣)، رقم ١٢٠٢٥، اسناده صحيح رجاله رجال الشيخين

وأصبحنا نسير خلف فلان وفلان ويوم القيامة ينطبق على الكثير منا قول الله تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) [الفرقان ٢٧-٢٩]

كثير من الناس أصبح عبدا للشيطانه وهواه فبعضهم أصبح عبدا للشياطين الكفر ومنهم من أصبح عبدا للشياطين الأحزاب والفرق والجماعات المارقة من الدين الذين يدعون المسلمين لقتل بعضهم بعضا. أصبحت كل جماعة عندها ربُّ تسبَّح بحمده وتأتمر بأمره في معصية الله، والله تعالى يقول: (أَأَرْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [يوسف: ٣٩-٤٠]

في العيد نحن بحاجة إلى العودة إلى العبودية الحقيقية لله نعود منيبين إلى الله وإلى دين الإسلام الحق الذي أنزله الله رحمة للعالمين، قال تعالى: (وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) [الزمر: ٥٤]

نقول للذين رضوا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا في رمضان لا تنقضوا عهدكم مع الله ولا تقطعوا صلحتكم به، (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا) [النحل: ٩١-٩٢] وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده مع الله ومع الناس . امرأة بمكة كانت تسمى ربيعة الحمقاء، كانت إذا غزلت الشعر والكتان أبرمته وأحكمته نقضته، ثم غزلته مجددا.

نذكر أخواتنا المسلمات أن المرأة لا قيمة لها إلا بالإسلام ولا كرامة لها إلا بالإسلام ولا عفة لها من دون حجاب، واعلمي أن الأوامر لك أنت يا مسلمة كما هي لنساء النبي صلى الله عليه وسلم وبناته لا فرق في ذلك بين عائشة، وحفصة، وشفية، وأم حبيبة، وفاطمة، ورقية، وزينب، وأم كلثوم، الأمر واحد وهو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ

وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [الأحزاب: ٥٩]

عباد الله: ما أجمل الطاعة إذا أتبعنا بطاعة ما أجمل الحسنة تتبعها حسنة بعدها، ما أحسن الاحسان يليه الاحسان، والمعروف يليه المعروف والخير يليه الخير، قال تعالى: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) [محمد: ١٧]، وقال تعالى: (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا) [مريم: ٧٦] قال العلماء: إن من علامة قبول الحسنة أن تُتلى بشكر صادق على التوفيق لها وبعمل صالح مماثل لها.

فيا إخوتي في الله الذين أكرمكم الله بأنواع الطاعات وتقرّبتم إلى الله في أيام رمضان ولياليه بأنواع القربات، تسبّحون الليل والنهار صياما وصلاةً وتلاوةً وبرًا وصلّةً وإحسانا واستغفارا وذكرًا، واصلوا سيركم إلى الله، تعاهدوا زرعكم.

فمن زرع الحبوب وما سقاها تأوّه نادما يوم الحصاد

ولا يكون آخر عهدكم بالطاعة والإحسان ما قدّمتموه في شهر رمضان بل صلوا ذلك وأديموه وتذكروا أنّكم عبيد الله في رمضان وفي غير رمضان فلا عزّ لكم إلا بهذه العبوديّة . كما قال القاضي عياض

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَفَخْرًا ... وَكِدْتُ بِأَحْمِصِي أَطَأَ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي ... وَأَنْ أُرْسَلْتَ أَحْمَدِي نَبِيًّا

اللهم إنّ عبادك خرجوا إلى هذا المكان يرجون ثوابك وفضلك ويخافون عذابك، اللهم حقّق لنا ما نرجو وأمّننا مما نخاف، اللهم تقبّل منّا واغفر لنا وارحمنا، اللهم انصرنا على عدوّنا واجمع كلمتنا على الحقّ، ويسرنا ليسرى، وجنّبنا العسرى، واغفر لنا في الآخرة والأولى إنّك جواد كريم.

٥٨. بناء البيت

قال تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) [الحج: ٢٦-٢٧]

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ^(١)، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ^(٢)، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسَقَاءَ فِيهِ مَاءً، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا أَبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا هَذَا الْوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذْنٌ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهِؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: (رَبِّ اني أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) [إبراهيم: ٣٧] - حَتَّى بَلَغَ - (يَشْكُرُونَ)

وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصِّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ

(١) المنطق: وَهُوَ النَّطَاقُ، وَالْجَمْعُ: مَنَاطِقٌ وَهُوَ أَنْ تَلْبَسَ الْمَرْأَةُ ثَوْبَهَا، ثُمَّ تَشُدُّ وَسَطَهَا بِشَيْءٍ، وَتَرْفَعُ وَسَطَ ثَوْبِهَا، وَتُرْسِلُهُ عَلَى الْأَسْفَلِ عِنْدَ مُعَانَاةِ الْأَشْغَالِ لئَلَّا تُعَثِّرَ فِي ذَيْلِهَا. الزبيدي: تاج العروس (ج ٢٦ / ص ٤٢٣)، وكانت ثياب النساء طويلة تسحب خلف المرأة على الأرض فتترك اثرا وليس كثياب النساء في أيامنا هذه، فاتخذت ام اسماعيل المنطق حتى ترفع طرف ثوبها عن الأرض لتعفي أثرها عن سارة.

(٢) (دَوْحَةٌ) هِيَ الشَّجَرَةُ الْعَظِيمَةُ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَتْ، تَاجِ الْعُرُوسِ (ج ١ / ص ٥٥)

الوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطْتُ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْوَادِي رَفَعْتَ طَرْفَ دِرْعِمَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعِي الْإِنْسَانَ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزْتَ الْوَادِي، ثُمَّ أَتَيْتِ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا [ص: ١٤٣]، فَفَعَلْتَ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَذَلِكَ سَعِي النَّاسِ بَيْنَهُمَا» فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ صَه^(١) - تُرِيدُ نَفْسَهَا -، ثُمَّ تَسَعَعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ اسْمَعْتُ أَنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ^(٢)، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقْبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءَ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ^(٣) وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَرَحِمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا» قَالَ: فَشَرِبْتُ وَارْضَعْتُ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الْعِلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُوفُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَتَزَلُّوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا^(٤)، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لِعَهْدُنَا بِهِذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَارْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ^(٥) فَإِذَا هُمُ بِالْمَاءِ، فَارْجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَانَ»^(٦) فَتَزَلُّوا وَارْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَتَزَلُّوا مَعَهُمْ، حَتَّى

(١) (صه، كلمة زجر للمتكلم أي اسكت)، تسكت نفسها، تاج العروس (ج ٣٦ / ص ٤٢٨)

(٢) الغواث، بالفتح، كالغيث، من الاغاثة، لسان العرب (ج ٢ / ص ١٧٤)

(٣) تُحَوِّضُهُ أَي تَجْعَلُهُ حَوْضًا يَجْتَمِعُ فِيهِ الْمَاءُ. لسان العرب (ج ٧ / ص ١٤١)

(٤) عَائِفًا عَلَى الْمَاءِ أَي حَائِمًا لِيَجِدَ فُرْصَةً فَيَشْرَبُ، لسان العرب (ج ٩ / ص ٢٦٠)

(٥) فَارْسَلُوا جَرِيًّا أَي رَسُولًا، لسان العرب (ج ١٤ / ص ١٤٢)

(٦) أَلْفَى أَي وَجَدَ ذَلِكَ الْحَيَّ الْجُرْهُمِيَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ فَأَنْسَتَ بِهِمْ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِي وَحْشَةٍ وَحْدَهَا.

إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلٌ أَبِيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهَ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَّتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ نَحْنُ بَشَرٌ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَانَتْهُ أُنْسٌ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشِنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ غَيْرَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَلِكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، الْحَقِي بِأَهْلِكَ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنْتُ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ اللَّحْمُ، قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لَا يَحُلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بَعْدَ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُؤَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثَبِّتْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنْتُ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشِنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكَ بِشَيْءٍ، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَلِكَ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْرَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَالِدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينِنِي؟ قَالَ: وَأَعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَذَا

الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ بَيْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة: ١٢٧]، قَالَ: فَجَعَلَا بَيْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(١)

*** قال تعالى: (وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ

رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [البقرة: ٤٩]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(٢)

يقول شيخ الاسلام: "فالسفر الى هذه المساجد الثلاثة للصلاة فيها والدعاء والذكر والقراءة والاعتكاف من الاعمال الصالحة وما سوى هذه المساجد لا يشرع السفر اليها باتفاق أهل العلم"^(٣)

المسجد الحرام قبلة المسلمين ومن المساجد التي تشد إليها الرحال، وفيه تضاعف الأجور وهذا من فضل الله على الناس. قال مجاهد: "تضاعف السيئات في مكة كما تضاعف الحسنات وسئل احمد رضي الله عنه هل تكتب السيئة أكثر من واحدة؟ فقال: لا الا بمكة لتعظيم البلد"^(٤)

قال ابن القيم: "فالسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه أكد منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصي الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه"^(٥)

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٤٢)، رقم ٣٣٦٤

(٢) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٦٠)، رقم ١١٨٩

(٣) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، (ج ٢ / ص ٣٤٠)

(٤) الاحكام الشرعية والمنح المرعية، (ج ١ / ص ٩٩)، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١ / ص ١٤٠)

(٥) زاد المعاد، (ج ١ / ص ٥٢)

٥٩. حج البيت

قال تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) [آل عمران ٩٦-٩٧]

لقد أمر الله تعالى إبراهيم ببناء بيته في الأرض بعدما بين له مكانه فقال تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) [الحج: ٢٦].

وهو أول مسجد وضع للناس في الأرض، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلُ، قَالَ «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ «ثُمَّ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى» قُلْتُ كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا قَالَ «أَرْبَعُونَ سَنَةً» ثُمَّ قَالَ حَيْثُمَا أَدْرَكْتَنكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ وَالْأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ^(١) وَأَوَّلُ أَمْرٍ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ (أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا)، فبدأ بأصل العبادة التي لا تقبل باقي العبادات إلا على أساسها، فالتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة فهو بيت الله وحده، وهذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

ثم قال تعالى: (وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) أضاف البيت إلى ذاته المقدسة تشريفاً له، وأمره بتطهيره من أقدار الشرك وأنجاس المشركين. وفيه إشارة إلى أن من إكرام الزائر تنظيف المنزل وأن ذلك يكون قبل نزول الزائر بالمكان. ومن إكرامه تعالى لمن صلى فيه أن جعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة. عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ^(٢)

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٦٢)، رقم ٣٤٢٥

(٢) المسند، (ج ٣ / ص ٣٩٧)، رقم ١٥٣٠٦، اسناده صحيح على شرط البخاري

ثم قال تعالى: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) [الحج: ٢٧]، أي ناد في الناس بالحج، داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، ونادى إبراهيم واستجاب من استجاب وتفاعس من تفاعس وبين الله تعالى المناسك لإبراهيم عليه السلام حتى إذا بدّل دين إبراهيم دين الحنفيّة السمحة وجاءت قريش والقبائل فوضعت أصنامها في بيت الله وطراً الشرك على العبادات، ثم رحم الله تعالى الناس ببعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي طهر بيت الله من الأوثان والأصنام وما ابتدعه المشركون من عبادات وأعاد المناسك إلى ما كانت عليه في زمن إبراهيم صلى الله عليه وسلم ونادى في الناس بالحج. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا». فَقَالَ رَجُلٌ أَكَلَّ عَامَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ - ثُمَّ قَالَ - ذُرُونِي مَا تَرَكَتْكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ» (١)

والحج من أفضل الأعمال بعد الإيمان والجهاد وجزاؤه مغفرة الذنوب والرجوع منها كيوم ولدته أمه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ قَالَ «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِيلَ ثُمَّ مَاذَا قَالَ حَجٌّ مَبْرُورٌ» (٢)

قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (٣)
فالْحَجُّ الْمَبْرُورُ يَمْحُو الذُّنُوبَ وَيَرْجِعُ بِهِ الْعَبْدَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ وَجَزَاؤُهُ الْجَنَّةُ.

(١) صحيح مسلم، (ج ٤ / ص ١٠٢)، رقم ٣٣٢١

(٢) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ١٣٣)، رقم ١٥١٩

(٣) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ١٣٣)، رقم ١٥٢١

*** قال تعالى: (وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ. وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ. وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِر. هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) [الفجر: ١-٥]

جعل الله تعالى لعباده مواسم يتقربون بها اليه من هذه المواسم أيام عشر ذي الحجة، فضلها الله تعالى على غيرها، لاجتماع أمهات العبادة فيها وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج والذكر وذبح الأضاحي، وجعل العمل فيها أفضل من العمل في غيرها حتى انه يفضل على الجهاد الذي هو أفضل الأعمال، عن ابن عباسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ » يَعْنِي أَيَّامَ الْعُشْرِ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ « وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ »^(١).

والله تعالى يدنو من عباده في يوم عرفة ويباهي بهم الملائكة ويعتقهم من النار قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ، أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ »^(٢) والمغفرة في يوم عرفة تفيض فتجاوز المكان فتشمل الصائمين من غير الحجاج في اقصى الأرض، وتتجاوز الزمان فيكفر الله تعالى به السنة التي قبله والتي بعده
عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، إِنِّي أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالَّتِي بَعْدَهُ»^(٣)

ولذلك يستحب اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم في صيام تسع ذي الحجة ويستحب ذبح الاضاحي، والدعاء والذكر لورود الأدلة الصحيحة بها.

(١) سنن أبي داود، (ج ٢ / ص ٣٠١)، رقم ٢٤٤٠، وقال الألباني: صحيح

(٢) صحيح مسلم، (ج ٤ / ص ١٠٧)، رقم ٣٣٥٤

(٣) سنن ابن ماجه، (ج ١ / ص ٥٥١)، رقم ١٧٣٠، وقال الألباني: صحيح

٦٠. يوم الحج الأكبر (عيد الأضحى)

قال تعالى: (وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) [التوبة: ٣]

إن للحج معاني وآثارا في النفوس إذا استشعرها المسلم أحس بمنة الله عليه أن جعل

الله له هذا اليوم عيدا سواء ذهب إلى الحج أم لم يذهب. ففي الصحيحين عن طارق بن شهاب قال: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِعُمَرَ: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أَنَّ عَلَيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة: ٣]، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا فَقَالَ عُمَرُ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ"^(١). وجاء ذلك عن سيدنا عليّ وابن عباس رضي الله عنهما.

فأكبر النعم على المسلمين يوم عرفة من هذه الأيام المباركة، نعمة إكمال الدين، وإتمام النعمة. وفي صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم التي قرّر فيها قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك ومنارات الجاهلية ومناسكهم، وحرّم فيها المحرّمات التي اتفقت الملل على تحريمها، ولم يحجّ معهم في ذلك العام مشرك.

ففي صحيح مسلم عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه محمد الباقر في روايته عن جابر بن عبد الله الأنصاري وصف لحجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا الحديث يتعبّد به كلّ طوائف المسلمين في كيفية حجّهم منذ خروجه إلى آخر المناسك، وبدلت فيه موازين الجاهلية الباطلة بموازين عدل الإسلام، ونقف عند بعض المواقف:

الموقف الأوّل: الإلهال بالحج وتوحيد المعبود: قال جابر: فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ... فَأَهْلًا بِالتَّوْحِيدِ «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِنِّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ». وَأَهْلًا النَّاسُ بِهَذَا

الَّذِي يُهْلُونَ بِهِ فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْهُ وَلَزِمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَلْيِيتَهُ. فَللتوحيد أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وهو أعظم أو أمر الله للعباد ولأجله أقيم هذا البيت منذ أول لحظة عرف الله مكانه لإبراهيم عليه السلام، وملّكه أمره ليقومه على هذا الأساس: (أن لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا)، وسورة الحجّ كلّها تتحدّث عن التوحيد والعبادة ونبذ الشرك بجميع صورته، وتنعى على أولئك الذين يعبدون غير الله تعالى، أو يدعون من دونه ما لا يضرّهم ولا ينفعهم، قال تعالى: (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) [الحجّ: ٣١].

الموقف الثاني - في سعيه بين الصفا والمروة: قال جابر في نفس الحديث فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال « لا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير لا إله الا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»، فهذا ذكر الله عز وجل وثناء عليه وتعظيم له، وإعلان أفراد العبادة له وحده لا شريك له. فكلمة (لا إله الا الله) هي كلمة التوحيد وفيها الفلاح في الدنيا والآخرة، والأحزاب هم كفار قريش، ومن وافقهم الذين تحزبوا، أي تجمعوا في غزوة الخندق، ونزل فيهم سورة الأحزاب، وفيه إشارة أعم من ذلك، وهي وعده تعالى بإعزاز دينه، وإهلاك عدوه، وهزيمة أحزاب الكفار وكل من يجارب الإسلام في جميع الأيام والمواطن.

الموقف الثالث: يوم عرفة: هدم عادات الجاهلية وعباداتها ومعاملاتها غير الموافقة لشرع الله. ففي حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هدم للشرك والوثنية وعبادة غير الله وتدمير لروابط الجاهلية وعاداتها ومعاملاتها وبناء المجتمع على أساس أخوة الإسلام - قال جابر فخطب الناس وقال « إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا الا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنْ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ

مُسْتَرَضِعًا فِي بَنِي سَعْدِ فَقَتَلْتَهُ هُدَيْلٌ وَرَبِا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رَبِّا أَضْعُ رَبِا نَا رَبِا عَبَّاسِ
بِنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَانَهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»

- ثم أوصى صلى الله عليه وسلم بالطرف الأضعف من المجتمع فقال: « فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُوشَكُمْ أَحَدًا تَكَرُّهُنَّ. فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ وَهَنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكَسَوْتُمُنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

- ثم أمر بالعاصم من الضلال فقال: « وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ» قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَادَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِضْبَعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(١). فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ فِي الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ.

والعجيب أن أمة محمد اليوم هجرت القرآن وعادت إلى التحزب والتصارع كما كان أهل الجاهلية من الكفار والمشركين بأمر من اليهود والنصارى خلافا لأمر الله الذي يقول: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) [الروم ٣٠-٣٢]

فأصبح الناس يتنقلون من أحزاب مهزومة إلى أحزاب أوعدها الله بالهزيمة مهما أخذت بأسباب البقاء فالله تعالى يقول: (أَمْ هُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ. جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ) [ص: ١٠-١١]، فليصعدوا في أسباب السموات التي توصل إليها، فلا بد أن يرجعوا صاغرين مهزومين، وهذا وعد الله الذي رأيتموه بأعينكم، كل الأحزاب تقاتت فأضحت عبراً أما لكم فيما مضى معتبر؟ أخي المسلم: الله تعالى يريد منكم أن تكونوا أمة واحدة تحت راية الإسلام عبيداً لله

تابعين لنبيّه متحابّين فيه تحلون ما أحل الله وتحرمون ما حرم الله، قال تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: ٩٢] أمة إسلامية تجمعها عقيدة واحدة لا أمة عربيّة واحدة ولا أمة كرديّة واحدة، تنبذ التفرق القائم على الحزبية والعشائرية والعنصرية قائمة على تقوى الله قال تعالى: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) أي: إنّ هذه شريعتكم شريعة واحدة ودينكم دين واحد، وربكم واحد فلا تفرّقوا في الدين. شعارها (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)، فلينتبه الغافلون السكارى الداعون إلى الفرقة والتحزب الذين زين لهم الشيطان أعمالهم وصدّهم عن السبيل وفرحوا بما أنتجت عقولهم السقيمة من الأفكار والأهواء والآراء، وليتداركوا أنفسهم قبل فوات الأوان قال تعالى: (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ) [المؤمنون ٥٢-٥٤]، وهذا تهديد للمعاندين ووعيد لهم، (فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ) أي في غيهم وضلالهم (حَتَّىٰ حِينٍ) أي إلى حين هلاكهم.

عيدك أيها المسلم في اغتنام مواسم الخيرات فيما يقربك من ربك ويرفع درجتك في الجنة، قال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) [آل عمران: ١٣٣]

عيدك أيها المسلم بالعودة إلى دينك وكتاب ربك واتباع سنّة نبيك وتجديد أخوة الإسلام، اغتنموا يومكم هذا لتجديد ما خلّق من إيمانكم، ولتجديد العهد بإسلامكم وإعادة ما فقد منه، وتجديد أخوتكم فألظّوا بشهادة التوحيد صادقة بها قلوبكم، صل من قطعك واعفُ عمن ظلمك وأحسن إلى من أساء إليك. وبر والديك وصل رحمك وأحسن إلى جارك عسى الله أن يرحمنا ويجمع شملنا وينزع الغلّ الذي ران على قلوبنا ويغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا. بارك الله فيكم وبارك عليكم وجعل أيامكم كلّها عيداً وطاعة ورحمة في الدنيا وجزاكم بها رحمة ومغفرة وجنة ونظرة إلى وجهه الكريم في الآخرة إنّ ربكم قريب مجيب.

٦١. صحّة المعاملات سبب لقبول الاعمال

قال تعالى: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: ١٨٨]

الشريعة الإسلامية بصورة عامة مبنية على العبادات والمعاملات والقاعدة العامة لتلك المعاملات هي اتباع العدل قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) [الحديد: ٢٥]، فأمر بالصدق في المعاملات والايفاء بالعهود والعقود وإقامة الموازين وعدم التطفيف فيها، ونهى عن المعاملات التي فيها غرر وغش وخداع وحيل وحلف، ونهى عن الرشوة، وهدايا العمال، وخيانة الأمانات، وأكل مال اليتيم، ليسود العدل وينحسر الظلم بين الناس.

وهيأ سبحانه وتعالى أسباب الرزق الحلال وأمر بالسعي في طلبه، وأحلّ الله البيع وحرّم الربا بكلّ صورته فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ) [البقرة ٢٧٨-٢٧٩]

وأمر تعالى بإنظار المدين المعسر او التصديق عليه بالدين فقال عز وجل: (وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢٨٠]

ورغب سبحانه وتعالى بالتجاوز عنه وجعل ذلك سببا للتجاوز عن الدائن يوم القيامة عن أبي هريرة أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا. فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ»^(١)

ومن اطلع على سيرة المصطفى ﷺ وجدها تقرّر مبادئ وأخلاق تعجز كلّ قوانين الأرض عن إقرارها، فأمر بالسباحة في البيع والشراء والقضاء، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ، قَالَ: « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى،

(١) صحيح مسلم، (ج ٥ / ص ٣٣)، رقم ٤٠٨١

وَإِذَا أَقْتَضَى»^(١) ونهى عن الحلف في البيع والشراء فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «الْحَلْفُ مَنْفَقَةٌ لِلْسَّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلدَّبْرَكَةِ»^(٢) ولقد جعل الله سبحانه وتعالى الكسب الحرام في المعاملات مع الناس مانعا من قبول كثير من الأعمال، وهذا أمر غفل عنه الكثير من الناس فتجدهم يتعبدون لله تعالى بالصلاة والزكاة والصيام والحجّ ومعاملاتهم غير شرعية تؤدي بهم إلى أكل الحرام وعدم قبول عباداتهم، فما ظنك بمن يصلي وثوبه حرام أو يصوم ويفطر على الحرام، أو يحجّ ونفقتة حرام، قال وهب بن الورد: «لو قمت مقام هذه السارية لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل في بطنك حلال أم حرام».

أولاً: الدعاء عن أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) [المؤمنون: ٥١] وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»^(٣)

قال ابن رجب: "وفي حديث أبي هريرة إشارة إلى أن العمل لا يزكو الا أن يكون بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله".

ثانياً: الصدقة: قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) [البقرة: ٢٦٧] أمر الله تعالى بالنفقة من الكسب الطيب، ونهى عن النفقة من الخبيث فان الصدقة لا تقبل إلا إذا كانت من الحلال عن أبي هريرة

(١) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ٥٧)، رقم ٢٠٧٦

(٢) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ٦٠)، رقم ٢٠٨٧

(٣) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ٨٥)، رقم ٢٣٩٣

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبِ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرِيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرِي أَحَدُكُمْ فُلُوهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ »^(١)

ثالثا: الصيام: بعد ذكر آيات الصيام جاء ذكر تحريم أكل أموال الناس بالباطل فكان إشارة إلى أن من امتثل أمر الله في اجتناب الطعام والشراب في نهار صومه فليمثل أمره في اجتناب أكل الأموال بالباطل، والعجيب أن بعض المكلفين بوظائف عامة يطلب منك رشوة بحجة أنه صائم ويريد فطوره منك فجعل من الصيام وسيلة لأكل الحرام، فهو يصوم عما أحل الله ويفطر على ما حرم الله فكيف تقبل عبادته ودعاؤه.

وحكم القاضي لا يحلل المال الحرام، فمن حُكِمَ له بباطل فكأنما أخذ قطعة من النار عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَخْنَبَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ فَمَنْ قَطَعْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّهَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ »^(٢)

* قال تعالى: (يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) [البقرة: ١٦٨]

أمر الله تعالى بالعمل والسعي في الرزق والرضا بالقليل من الحلال واجتناب الحرام والابتعاد عن المسألة قدر المستطاع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَذْهَبَ إِلَى الْجَبَلِ، فَيَحْتَطِبَ، ثُمَّ يَأْتِي بِهِ يَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعُهُ فَيَأْكُلُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، وَلَأَنْ يَأْخُذَ تِرَابًا فَيَجْعَلُهُ فِي فِيهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ فِي فِيهِ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ »^(٣)

اللهم لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ونسألك رزقا حلالا طيبا مباركا فيه.

(١) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ١٠٨)، رقم ١٤١٠

(٢) صحيح مسلم، (ج ٥ / ص ١٢٨)، رقم ٤٥٧٠

(٣) المسند، (ج ١٢ / ص ٤٥٩)، رقم ٧٤٨٢، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح

٦٢. الصبر

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[آل عمران: ٢٠٠]

لقد أمر الله تعالى بالصبر وذكره في القرآن في نحو تسعين موضعاً، وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان، كما قال عبدالله بن مسعود الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، والصبر: حبس النفس على المكروه وعقل اللسان عن الشكوى والجوارح عن المعصية وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: صبر الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه. وأمر الله تعالى أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به فقال تعالى: (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) [النحل: ١٢٧]، يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله، وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه، والتقرب إليه، لا لإظهاره قوة النفس، والاستحجاد إلى الخلق، وغير ذلك من الأعراض قال تعالى: (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) [المدثر: ٧]

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها، مقيماً بإقامتها، يتوجه معها أين توجهت ركائبها، وينزل معها أين استقلت مضاربها، فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أي قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها، وهو صبر الصديقين، ولذلك أثنى تعالى على الصابرين أحسن الثناء وضمن لهم أعظم الجزاء وجعل أجر غيرهم محسوباً وأجرهم بغير حساب فقال تعالى: (إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠]

وأخبر بمحبته لهم فقال تعالى: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) [آل عمران: ١٤٦]، فحاجة المحب لربه إلى الصبر ضرورة فأعظمهم محبة أشدهم صبراً، فالصبر والمحبة متلازمان، وعندما ادعى الناس المحبة امتحنهم بالمكاره فانخلعوا عن حقيقة المحبة ولم يثبت معه

إلا الصابرون، ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصةً محببته فقال تعالى عن نبيه أيوب: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا) ثم أثنى عليه فقال: (نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) [ص: ٤٤]

والصبر على ثلاث درجات: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله {أي أقدار الله} (١)

الدرجة الأولى: الصبر عن المعصية ويكون ذلك بأمرين:

- الخوف من حقوق الوعيد إبقاء على الإيمان وحذرا من الحرام. هناك تنافر بين المعصية والإيمان، فالمعصية تنقص الإيمان أو تذهب به أو تطفئ نوره، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَزِيْرِي الزَّانِي حِينَ يَزِيْرِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» (٢)

- الحياء من الرب تبارك وتعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ مَنْ اسْتَحَى مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظْ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى وَلْيَحْفَظْ الْبَطْنَ وَمَا وَعَى وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبَلَى وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ» (٣)

الدرجة الثانية: الصبر على الطاعة بثلاثة أشياء: دوام الطاعة أي المحافظة عليها والاخلاص فيها أي تكون لوجه الله، ووقوعها على العلم أي تكون على السنة، سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ: «أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ» (٤).

الدرجة الثالثة: الصبر على أقدار الله: ثلاثة أشياء تساعد على الصبر على البلاء:

- ملاحظة حسن الجزاء وشهود العوض يخفف حمل البلاء، قال تعالى: (وَلَنَجْزِيَنَّهُ

الَّذِينَ صَبَرُوا وَأَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [النحل: ٦٩]

(١) ينظر مدارج السالكين، (ج ٢ / ص ١٥٦ - ١٦١)

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٥٩)، رقم ٦٧٨٢

(٣) صحيح وضعيف الجامع، (ج ١ / ص ٨٧)، وقال الالباني: حسن

(٤) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٨٩)، رقم ١٨٦٤

-انتظار روح الفرج وقوة الرجاء وترقبه يخفف حمل المشقة، قال تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [الشرح: ٥-٦]

- تعداد نعم الله عليك يهون البلاء فهو بالنسبة لنعم الله كقطرة من بحر، قال تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [إبراهيم: ٣٤]

**** قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)**

لقد أحب الله الصابرين وبشرهم بنصره وصلواته عليهم ورحمته لهم وهدايته لهم وجعلهم أئمة يهدون بأمره ووعدهم بالنجاة من النار والفوز بالجنة (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) [الرعد: ٢٣-٢٤]

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١)

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الصبر فيقوم ناس فيقال لهم انطلقوا إلى الجنة فتقول الملائكة إلى أين قالوا إلى الجنة قالوا قبل الحساب قالوا نعم قالوا من أنتم قالوا نحن أهل الصبر قالوا كيف صبرتم قالوا صبرنا أنفسنا على طاعة الله وصبرنا أنفسنا عن معاصي الله تعالى وصبرناها على البلاء ونحن في الدنيا فتقول لهم الملائكة (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) وَقَالَ عُمَرُ وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ. وقيل: تجرّع الصبر فإن قتلك قتلك شهيداً وإن أحياك أحياك عزيزاً^(٢) فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ١٢٢)، رقم ١٤٦٩
 (٢) مدارج السالكين، (ج ٢ / ص ١٥٩)

٦٣. الشكر

قال تعالى: (وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [النحل: ٧٨]

لقد أمر الله بالشكر. ونهى عن ضده، وقال (وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا) [البقرة: ١٥٢] وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه وقال عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَّلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِ بِهِ) [النحل: ١٢٠-١٢١] وقال عن نوح عليه السلام (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) [الإسراء: ٣]

وجعله غاية خلقه وأمره، ووعده أهله بأحسن جزائه. وجعله سببا للمزيد من فضله، وحارسا وحافظا لنعمة فقال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) [إبراهيم: ٧] وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته فقال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) واشتق لهم اسما من أسمائه، وسمى نفسه شاكرا وشكورا وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه، وسماهم باسمه وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا، وإعادته للشاكر مشكورا. كقوله: (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا) ورضا الرب عن عبده به كقوله: (وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه كقوله: (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

وقيل: الشكر قيد النعم الموجودة وصيد النعم المفقودة، وشكر العامة: على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان، وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب. والفرق بين الحمد والشكر: أن الشكر يكون على الإحسان والنعم ويقع بالجوارح، والحمد على أسمائه وأوصافه، ويقع بالقلب واللسان فهو المشكور على نعمه وهو المحمود في أسمائه وصفاته.

يقول ابن القيم: "والشكر هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافا، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقيادا وطاعة. والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحب له، واعتراؤه بنعمته، وثنائه عليه بها، وأن لا يستعملها

فيما يكره، فهذه الخمس هي أساس الشكر وبنائوه عليها فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة وكل من تكلم في الشكر وحده فكلامه إليها يرجع وعليها يدور^(١) ولا يتم ذلك الا بشهود النعمة، وشهود المنعم، وحبّه لمن انعم عليه، وثنائوه عليه، وخضوعه له.

- شهود النعمة: اي معرفتها لأن شكره بحسب شهود النعمة، فكلمها كان أتم كان الشكر أكمل، فكثير من الناس لا يعرف النعم التي هو فيها، ولذلك ذكر الله تعالى عباده بنعمه في أكثر سور القرآن فقال تعالى في سورة إبراهيم: (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنَّ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [إبراهيم: ٣٤]

- شهود المنعم: وهو الاعتراف بالنعم أتمها من المنعم الحق وهو الله سبحانه وتعالى: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ) [النحل: ٥٣] لا تنظر إلى قلة العطيّة وانظر إلى من أعطاك، فعطايا الملوك لها قيمة فكيف بملك الملوك.

- حب المنعم: الاعتراف بالنعمة من المنعم يورث حبه، فالنفوس مجبولة على حب من يحسن إليها، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَعْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمِهِ» والله تعالى يعطي الكثير ويرضى بالقليل، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»^(٢)

- الشناء بها عليه: الشناء نوعان: عام، وخاص. فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك، والخاص: التحدث بنعمته، والإخبار بوصولها

إليه من جهته. كما قال تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) [الضحى: ١١]

وظهور أثرها عليه من شكرها قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»^(٣)، لا سيما في ملبسه ونفقته على نفسه وعياله عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي ثَوْبٍ دُونِ فَقَالَ «أَلَكِ مَالٌ» قَالَ نَعَمْ،

(١) ينظر مدارج السالكين، (ج ١ / ص ٤١) وما بعدها.

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٨٧)، رقم ٧١٠٨

(٣) سنن الترمذي، (٥ / ١٢٣)، رقم ٢٨١٩ وقال : حسن

قَالَ « مِنْ أَيِّ الْمَالِ » قَالَ قَدْ أَتَانِي اللَّهُ مِنَ الْإِبْلِ وَالْغَنَمِ وَالْحَيْلِ وَالرَّقِيقِ. قَالَ « فَإِذَا أَتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرْ أَثْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ »^(١)

- خضوع الشاكر للمشكور: باستعمالها في طاعته وعدم استخدامها في معصيته ولا يتم ذلك الا بعكوف القلب على محبة النعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه. قال الجنيد الشكر: « أن لا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه ». والا كان معرض لو عيد الله بالهلاك وزوال النعم، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) [إبراهيم ٢٨-٢٩] إعرف نعمتك حتى لا تسلب منك قال ذو النون المصري: من لم يعرف قدر النعم، سلبها من حيث لا يعلم، واعرف المنعم حتى تحبه وتعظمه، واشكره حتى تدوم نعمتك فبالشكر تدوم النعم. نحن نغرق في نعم المأكولات والمشروبات والملبوسات والكماليات والترفيات، وكثير مما نحن فيه من النعم لم يكن عند الملوك قبل مائة عام.

**** قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)**

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفْطَرَ رَجُلَاهُ قَالَتْ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(٢)

قال تعالى: (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [النمل: ٤٠] الشكر منفعته تعود على العبد، لا تعود على الله فهو الغني الحميد، ينعم عليك ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك، ثم يعيد إليك منفعة شكرك، ويجعله سببا لتوالي نعمه عليك في الدنيا، والجزاء عليه في الآخرة، وهذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه.

اللهم لك الحمد كله كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فانت المحمود اولا وآخرا وظاهرا وباطنا ولك الشكر كله كما تتابعت نعمك علينا وعلى الناس وانت الغفور الشكور اغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا في شكرك واعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

(١) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٩٠)، رقم ٤٠٦٥، وقال الالباني: صحيح

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٤١)، رقم ٧٣٠٤

٦٤. نموذج من جحود النعم (حفلات الأعراس)

قال تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) [النحل: ٧٢].

لقد شرع الخالق العظيم الزواج لغاية سامية وجعله نعمة من نعمه التي أنعم بها على بني البشر لكي تستمر خلافة الله في الأرض وتعمر بهذا الإنسان، وذكرهم بها في كتابه فقال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم: ٢١]، فجعل الله تعالى المودة والرحمة بين الزوجين حيث تنزل من أول لحظة قبول العقد من الزوجين وتزداد يوما بعد يوم لتشمل الأصهار فيما بينهم ثم تزداد بعد إنجاب الذرية.

هذه النعمة العظيمة مستحقة للشكر الكثير، ومن شكرها إقامة الوليمة في العرس حتى يجتمع فيها المسلمون، ويأكل منها اليتيم والفقير والمسكين فيزداد فرحهم بهذا الزواج، ويظهر التراحم، وتزداد العلاقات تماسكا بين المسلمين، ولذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة أنه كان يقول: «بِسَّسِ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى إِلَيْهِ الْأَعْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْمَسَاكِينُ فَمَنْ لَمْ يَأْتِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١)

هذه النعمة أفسدها الكثير من الناس من أول يوم وجحدوها بالمعاصي فيها ومنها:

- عرض الزوج زوجته وهي متبرجة على المدعوين حتى يتأملوا في مفاتها ويشموا طيبها والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: «أَيُّ امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ رَازِيَةٌ»^(٢). هذا يحصل في ليلة العرس قبل أن يتأملها زوجها ولو قلت له في غير ليلة العرس دعني أنظر إلى زوجتك وأسم طيبها لأقام الدنيا عليك ولم يقعدا. فيا لها من دياثة وجحود بهذه النعمة.

(١) صحيح مسلم، (ج ٤ / ص ١٥٣)، رقم ٣٥٩٤

(٢) المستدرک علی الصحیحین، (ج ٢ / ص ٤٣٠)، رقم ٣٤٩٧، وقال الذهبي: صحيح

- إقامة الحفلات التي فيها الاختلاط بين الرجال والنساء المتبرجات وتبدأ الموسيقى بالعزف والرقص رجالا ونساء مع الغناء الماجن الخليع، بالرغم من التشديد في النهي عن ذلك، قال تعالى: (وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) [لقمان: ٦]، قال ابن مسعود: هُوَ الحديث الغناء، والذي لا إله الا هو، يرددها ثلاث مرّات^(١). وقال: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل. يقول ابن القيم: "وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى"^(٢). وهذا واقع مشاهد فلا تكاد تجد محبا للغناء يحب القرآن، أو يستمع له، أو يتدبره، يقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّمَا مَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجْرَيْنِ: صَوْتُ عِنْدَ نَعْمَةٍ مَزْمَارُ شَيْطَانٍ وَلَعِبٌ، وَصَوْتُ عِنْدَ مُصِيبَةٍ خَمْشٌ وَجُوهٌ وَشَقُّ جُيُوبٍ وَرَنَّةُ شَيْطَانٍ»^(٣). ويظهر من ذلك شدة النهي وتأكيده، بتسميته صوت الغناء صوتا أحمق، ووصفه بالفجور، وسمّاه من مزامير الشيطان، وأخبر أنه سبب لحلول اللعنة في الدنيا والآخرة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة مزمارٌ عند نعمة، ورنةٌ عند مصيبة»^(٤).

هذه المعصية هي من أسباب نزول العقوبات القدرية من العزيز الجبار قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «في هذه الأمة خسفٌ ومسحٌ وقذف، قال رجل من المسلمين: يا رسول الله! متى ذلك؟ قال: «إذا ظهرت القيان والمعاذف، وشربت الخمر»^(٥) {القيان:

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، (ج ٢٠ / ص ١٢٧)

(٢) مدارج السالكين، (ج ١ / ص ٤٨٣)

(٣) صحيح الجامع الصغير، (ج ١ / ص ٤٦٩)، رقم ٥١٩٤، وقال الألباني: صحيح

(٤) صحيح الترغيب والترهيب (ج ٣ / ص ٣٨١)، رقم ٣٥٢٧ وقال الألباني: حسن

(٥) صحيح الترغيب والترهيب (ج ٢ / ص ٦٠٥)، رقم ٢٣٧٩، وقال الألباني: حسن لغيره

الجارية التي تغني . المعازف : آلة الغناء {

وظهرت القيان والمعازف وشربت الخمر، وفي ليلة واحدة يختلط النساء بالرجال، وتصدق الطبول ومزامير الشيطان، ويبدأ الغناء مع حلول آذان المغرب إعلانا للكفران بنعمة الزواج، وينبت النفاق في القلوب، وتحل اللعنة والعذاب المهين بكفران نعمة واحدة في ليلة واحدة. فأَيُّ جيل سينشأ للمتزوجين بعد هذه المعاصي؟ وأيُّ نعمة تدوم بعد هذا؟ ولقد رأينا عجا من قصص زوال النعم، وعندما كنا صغارا لا نعرف من الدين إلا قليلا حضرت عرسا وقد رأيت رجلا مقدا في قومه أعرفه بعينه ذا مال وجاه يحمل إحدى الراقصات ويرقص بها أمام الرجال والنساء ثم اختلى بأخرى غير مستح من الله ولا من الناس، وبعد أكثر من ثلاثين عاما والله لقد أزيلت نعمته كلها جاهه، وماله، وسلطانه، وصحته، ومات غريبا في آخر حياته بعيدا عن أولاده وأقرب الناس إليه. اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك.

** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: "إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ قَرْنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ"^(٢)

الحياء: صفة حميدة كانت من خلق النبي عليه الصلاة والسلام، حتى أنه كان أكثر حياء من العذراء في خدرها. فلنستح من الله فالحياء من شيم الأشراف، وأهل الكرم والنفوس الزكية، ويتولد من علم العبد بنظر الحق إليه وهو علامة على حياة القلب وقربه من الله، فالعبد يستحي أن يبارز ربه بالعظائم ويستعين على معاصيه بنعمه، فمن شكرنا له ان نستعمل نعمه في طاعته، وأن نتبع نبيه في سنته، وأن نحیی ما اندرس من الدين، وبذلك نكون شاكرين لنعم الله تعالى هداة مهتدين صالحين مصلحين.

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١١)، رقم ٩

(٢) الأدب المفرد، (ص: ٤٤٥)، رقم ١٣١٣، وقال الالباني : صحيح

٦٥. الجنة

قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) [العنكبوت: ٥٨].

مما يجب اعتقاده والإيمان به وجود الجنة التي أعدها الله تعالى لعباده المخلصين له والمتبعين لرسوله، قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ. خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] [لقمان: ٨-٩].

ومن أسمائها دار السلام لقوله تعالى: (هُم دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ) [الأنعام: ١٢٧]. ومنها دار المقامة قال تعالى: (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ) [فاطر: ٣٥]. والفردوس قال تعالى: (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (المؤمنون: ١١) ومنها جنة المأوى قال تعالى: (عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى) [النجم: ١٥].

ومنها جنات عدن قال تعالى: (جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ) وهي مائة درجة بين كل درجة والأخرى كما بين السماء والأرض كما جاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ». فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ أَعَدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفَعَلَ ثُمَّ قَالَ « وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »، قَالَ وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (١)

وللجنة ثمانية أبواب: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرِّيَّانَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ » (٢) وقد أعد الله لأهل الجنة فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر،

(١) صحيح مسلم، (ج ٦ / ص ٣٧)، رقم ٤٩٨٧
(٢) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٦)، رقم ٢٧٩٠

« لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللَّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّرْعَفَرَانُ مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيُحْلَدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبَلَى ثِيَابُهُمْ، وَلَا يَفْنَى سَبَابُهُمْ»^(١)

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن آخر من يدخل الجنة، ليبيّن سعة كرم الله تعالى على عباده وتفضله عليهم، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « إِنِّي لِأَعْرِفُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنَ النَّارِ رَجُلٌ يُخْرَجُ مِنْهَا زَحْفًا فَيُقَالُ لَهُ انْطَلِقْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ - قَالَ - فَيَذْهَبُ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيَجِدُ النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا الْمَنَازِلَ فَيُقَالُ لَهُ أَتَذْكُرُ الزَّمَانَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ فَيَقُولُ نَعَمْ. فَيُقَالُ لَهُ تَمَنَّ. فَيَتَمَنَّى فَيُقَالُ لَهُ لَكَ الَّذِي تَمَنَيْتَ وَعَشْرَةَ أَضْعَافِ الدُّنْيَا - قَالَ - فَيَقُولُ أَتَسْخَرُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ» قَالَ فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ^(٢)

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "كمال النعيم في الدار الآخرة أيضا به سبحانه وتعالى، برويته وسماع كلامه وقربه ورضوانه. بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق تعالى أعظم وأعظم ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال. وقال تعالى في حق الكفار (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) [المطففين: ١٥-١٦] فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يعذب به أعداءه"^(٣)

عقيدة أهل السنة أنهم لا يشهدون لأحد بجنة ولا نار الا من شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فالشهادة بالجنة اما ان تكون عامة وإما خاصة أي للمعین، فاما العامة فكقولنا: المؤمنون في الجنة والكفار في النار، فهذه الشهادة لا إشكال فيها، وأما الخاصة: فانهم لا يشهدون لأحد بعينه أنه من أهل الجنة او أنه من أهل النار الا من شهد

(١) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ١ / ص ٥٩٧)، رقم ٣١١٦

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ١١٩)، رقم ٤٨٠

(٣) طريق المهجرتين وباب السعادتین، (ص ١٠٢)

له النص بذلك، فمن أثبت النص الصحيح أنه من اهل الجنة فهو من أهل الجنة، ومن أثبت النص أنه من أهل النار فهو من أهل النار، ومن لم يرد فيه النص فلا نقول أنه من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل نرجو للمحسن الثواب، ونخاف على المسيء العقاب.

**** قال تعالى: (لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) [ق: ٣٥]**

عن عليّ - رضي الله عنه - وغيره في قوله تعالى: (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) قال: هو النظر إلى وجه الله تعالى. عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ - قَالَ - فَيُكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ »^(١)

فإذا نظروا إلى ربهم تبارك وتعالى أنساهم لذة النظر إليه ما هم فيه من النعيم. ولا يبقى أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة حتى أنه ليقول يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا يذكره ببعض غدراته في الدنيا فيقول يا رب ألم تغفر لي؟ فيقول: بلى بمغفرتي بلغت منزلتك هذه. فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجه الكريم في الدار الآخرة ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة. قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} [القيامة: ٢٤-٢٥] ^(٢)

«اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْبَبِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي اسْأَلُكَ خَشْيَتِكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالْقَصْدِ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ اللَّهُمَّ زَيْنًا بَرِيئًا مِنَ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيينَ»^(٣)

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ١١٢)، رقم ٤٦٧

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، (ص: ٢٨٤)

(٣) المسند، (ج ٤ / ص ٢٦٤)، رقم ١٨٣٥١، تعليق شعيب الأرنؤوط : صحيح.

٦٦. الفردوس الأعلى

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) [الكهف: ١٠٨]

جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْجَنَّةَ لِبَنَةِ مَنْ ذَهَبٍ وَ لِبَنَةِ مَنْ فِضَّةٍ، مِلَاطَهَا الْمِسْكَ فَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) فَقَالَتْ الْمَلَائِكَةُ: طُوبَى لِكَ مَنْزِلِ الْمَلُوكِ»^(١)

لقد دعا الله عباده لدخول الجنة فقال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) ووعدهم بخير ما تتطلع إليه النفوس مغفرتة وفضله فالمغفرة تنجيهم من العذاب وفضله يدخلهم الجنة دار النعيم.

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ قَالَ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»^(٢)

لم يذكر في هذا الحديث الزكاة ولا الحج لأن الزكاة والحج قد تسقط عن بعض المسلمين لعدم الاستطاعة . وقد جمع الله تعالى صفات ورثة الفردوس في سبع صفات بعشر آيات أنزلها في كتابه في سورة (المؤمنون)، لا بد لكل عاقل أن يتدبرها ويعمل بها ليكون من أهلها وهذه الصفات هي:

الأولى: الإيمان: قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) فلا فلاح بغير الإيمان فقلوبهم عامرة بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

الثانية: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) خاشعون لله، مطيعون له خاضعون

(١) صحيح الترغيب والترهيب، (ج ٣ / ص ٥٠٢)، رقم ٣٧١٤، وقال اللباني: صحيح

(٢) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١٢٥)، رقم ٧٤٢٣

متدللون بين يديه، منقادون لأمره ظاهرا وباطنا. والخشوع أول مراتب الفلاح، وهو واجب في الصلاة وهو روح الصلاة، ولبُّها، والخشوع حضور القلب وسكون الجوارح. وحضور القلب بتعقل الصلاة فليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، والابتعاد عن حديث النفس، قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١). وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحَسِّنُ الْوُضُوءَ وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ يُقْبَلُ بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ عَلَيْهِمَا إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٢). وسكون الجوارح تبع لخشوع القلب، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة والنظر الى السماء والعبث باليدين أو الرجلين.

الثالثة: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)، واللغو كل فعل أو قول لا فائدة فيه مثل الكذب والحلف وبذيء الكلام والفحش ومجالس السوء، والموسيقى والمسلسلات الهابطة قال تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) [الفرقان: ٧٢]، أكرموا أنفسهم من المشاركة باللغو بكل أنواعه.

الرابعة: (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)، والزكاة هي اسم لما تزكو به النفس، وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرِّها والإحسان إلى الناس من أعظم ما تزكو به النفس، كما قال تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) [التوبة: ١٠٣]

الخامسة: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْيُنِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)، حفظوا فروجهم عن الفواحش وما يقرب منها من النظر المحرم والسمع المحرم واللفظ الفاحش، والاتصاف بالعفة والحياء. عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ حَيْيِّهِ وَمَا بَيْنَ رَجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٣). [وهما اللسان والفرج].

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ١٤١)، رقم ٥٦١

(٢) سنن أبي داود، (ج ١ / ص ٣٤١)، رقم ٩٠٦، وقال الألباني: صحيح

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٠٠)، رقم ٦٤٧٤

السادسة: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)، يحافظون على العهود والأمانات، فأداء الأمانة والوفاء بالعهد صفة أهل الإيمان. والخيانة والغدر صفة أهل النفاق.

السابعة: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)، يحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها، مع أداء جميع شروطها وأركانها وسننها ومستحباتها.

(أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [المؤمنون: ١-١١]، أوجب عزّ وجلّ بفضل له لأهل هذه الأعمال الصالحة الزكّية المرضية وراثته الفردوس.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « يُؤْتَى بِأَنعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ »^(١)

* قال تعالى: (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) [طه: ٧٥-٧٦]

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا تَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَآيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »^(٢) اللهم صلّ على محمد وآل محمد

اللهم إنا نسألك رضاك والجنة وما قرب إليهما من قول وعمل ونعوذ بك من سخطك والنار وما قرب إليهما من قول وعمل.

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٣٥) رقم ٧٢٦٦

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١١٤)، رقم ٦٥٤٩

٦٧. لا إله الا الله مفتاح الجنة

قال تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) [البقرة: ٣٥]

لقد خلق الله تعالى آدم وتفضل عليه وأسكنه الجنة وذريته في ظهره، ولما عصى أبينا آدم عليه السلام واستغفر ربه أنزله الله تعالى إلى الأرض وجعل مكوثه فيها إلى حين فقال تعالى: (قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) [الأعراف: ٢٣-٢٤] ودعا سبحانه وتعالى عباده إلى جنته وأرسل رسله وأنزل كتبه ودلهم على الطريق إليها وهو الصراط المستقيم قال تعالى: (وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [يونس: ٢٥]، ووعدهم بالمغفرة فقال تعالى: (وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [البقرة: ٢٢١]

فحي على جنات عدن فإيها منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبى العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم (١)

ويبين رسله أسباب دخول الجنة فمن أراد الرجوع إليها فليشمر للسفر إليها بأسبابها:

أولاً: شهادة أن لا إله الا الله مفتاح الجنة: قِيلَ لِيُوْهَبَ بِنِ مَنِئِهِ الْاَيْسَ لَا اِلَهَ اِلَّا اللهُ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ قَالَ بَلَى وَلكِنْ لَيْسَ مِفْتَاحُ الْاِلَهَ لَهُ اَسْنَانُ فَاِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ اَسْنَانُ فُتِحَ لَكَ وَالْاِلَهَ لَمْ يُفْتَحْ لَكَ^(٢). ولا إله الا الله تعني لا معبود بحق إلا الله فهي تنفي كل المعبودات من دون الله وتثبت أن الله تعالى هو المعبود الحق المستحق للعبادة وحده لا يشاركه فيها أحد، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَأَخْبَرَنِي أَوْ قَالَ بَشَّرَنِي أَنَّهُ مِنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ قُلْتُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ

(١) ابن القيم، حادي الارواح الى بلاد الافراح، (ج ١ / ص ١١)

(٢) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٧١)، بَابُ الْجَنَائِزِ وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

سَرَقَ قَالَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» (١)

ثانيا: أداء الفرائض: إِنَّ الله سبحانه وتعالى رتب دخول الجنة على الإيـان والأعمال الصالحة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ دَلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ. قَالَ «تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمُكْتُوبَةَ وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمُفْرُوضَةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ» قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيْئًا أَبَدًا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ. فَلَمَّا وُلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» (٢)

ثالثا: الذكر بعد الصلاة وقبل النوم: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَصَلْتَانِ أَوْ خَلَّتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ يُسَبِّحُ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَيَحْمَدُ عَشْرًا وَيُكَبِّرُ عَشْرًا فَذَلِكَ حَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَالْفُ وَحَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَالْفُ فِي الْمِيزَانِ فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ قَالَ يَأْتِي أَحَدَكُمُ يَعْنِي الشَّيْطَانَ فِي مَنَامِهِ فَيَنُومُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ وَيَأْتِيهِ فِي صَلَاتِهِ فَيَذْكُرُهُ حَاجَةً قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا» (٣)

رابعا: الصبر على الابتلاءات: عَنْ عِمْرَانَ أَبِي بَكْرٍ قَالَ حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ الْأَرِيكَ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْتُ بَلَى قَالَ هَذِهِ الْمُرَأَةُ السُّودَاءُ آتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ إِنِّي أَصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهُ لِي قَالَ «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللهُ أَنْ يُعَافِيكَ فَقَالَتْ أَصْبِرُ فَقَالَتْ إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللهُ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ فَدَعَا لَهَا» (٤)

(١) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٧١)، رقم ١٢٣٧

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٣٣)، رقم ١١٦

(٣) سنن أبي داود، (ج ١١ / ص ٦٥)، رقم ٥٠٦٥، وقال الالباني: صحيح

(٤) صحيح البخاري، (ج ٧ / ص ١١٦)، رقم ٥٦٥٢

خامسا: خصال أربعة ما اجتمعت في مسلم الا ادخله الله الجنة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا قَالَ فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا قَالَ فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا قَالَ فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)

قال العلماء: والمعنى أي هذه الخصال الأربعة المذكورة ما وجدت وحصلت في امريء في يوم واحد الا دخل الجنة أي بلا محاسبة والا فمجرد الايمان يكفي لمطلق الدخول او معناه دخل الجنة من أي باب شاء.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ قَالَ « إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ » يُرِيدُ عَيْنَيْهِ^(٢)

** عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبِي قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَا أَبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى »^(٣)

في هذا الحديث: أعظم بشارة للطائعين من هذه الامة، فكلهم يدخلون الجنة الا من عصى الله ورسوله واتبع شهواته وهواه. «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَادَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا»^(٤)

(١) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ٩٢)، رقم ٢٤٢١

(٢) صحيح البخاري، (ج ٧ / ص ١١٦)، رقم ٥٦٥٣

(٣) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ٩٢)، رقم ٧٢٨٠

(٤) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٢٦٤)، رقم ٣٨٤٦، وقال الالباني: صحيح

٦٨. حسن الخلق من أسباب دخول الجنة

قال تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) [فصلت: ٣٣-٣٥]

إنَّ للأخلاق الحسنة أثراً عظيماً في سعادة الإنسان وتأليف قلوب الناس، وحسن الخلق من أفضل ما تجمَّلت به الخلائق في هذه الدنيا، كما أرشد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله لأنس: «عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا تَجَمَّلَ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا»^(١)، فإذا تجمل الناس بالثياب الفاخرة فتجمل بالأخلاق الحسنة تفرز في الدنيا والآخرة.

ولا زال الناس على اختلاف مشاربهم يتماذحون بمكارم الأخلاق كالشجاعة والكرم والايثار والعفو الصفح والتسامح والتواضع ويتذاثمون بمساوئها كالكبر والجبن والبخل والفحش، فبالأخلاق يكون التعامل بين الناس وبها تسعد حياتهم وتدوم مودتهم.

وخير ما أعطي الناس خلق حسن، سأل الأعراب فقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا خَيْرُ مَا أُعْطِيَ النَّاسُ؟ قَالَ: «خُلُقٌ حَسَنٌ»^(٢)

وحاجة المسلم إلى التحليّ بخلق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل حاجته إلى الطعام والشراب أو أشدّ، لأنها تسير معه حيث سار عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٣)، وإليك بعض ثمرات حسن الخلق:

١ — من علامات حبِّ الله سبحانه وتعالى للعبد حسن خلقه قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(١) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ٢ / ص ٧٤٨)، رقم الحديث، ٤٤٠٨، صحيح

(٢) المستدرک على الصحيحين، (ج ١ / ص ٢٠٩)، رقم ٤١٦، صحيح ولم يخرجاه

(٣) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٣٥٥)، رقم ١٩٨٧، وقال: حسن صحيح

وسلم: «أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(١). وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَمَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيَبْغِضُ سَفْسَافَهَا»^(٢)

٢- الفوز بحبِّ الرسول ﷺ والقرب منه يوم القيامة: عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفِيهِقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفِيهِقُونَ؟ قَالَ: المُتَكَبِّرُونَ»^(٣)

٣- أفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وذلك بشهادة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»^(٤)، فكمال الأخلاق علامة على كمال الإيمان.

٤- وبالأخلاق الحسنة يبلغ العبد أعلى المنازل والدرجات في الجنة عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذْبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»^(٥) {والزَّعِيمُ: الكفيل، وربض الجنة: ما حولها، المراء: أي الجدال}

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوَضَّعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ»^(٦). فحسن الخلق يثقل كفة الحسنات يوم القيامة أكثر من كل الاعمال عدا كلمة لا إله الا الله التي ورد فيها نصُّ أنها أثقل في الميزان من كل شيء. وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتٍ قَائِمِ اللَّيْلِ، صَائِمِ النَّهَارِ»^(٧)

(١) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ١ / ص ٩٧)، رقم ١٧٩، صحيح

(٢) المستدرک على الصحيحين، (ج ١ / ص ١١٢)، رقم ١٥٢، الالباني في الصحيحة: صحيح

(٣) سنن الترمذي، (ج ٣ / ص ٤٣٨) رقم ٢٠١٨، وقال: حسن صحيح

(٤) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٣٥٤)، رقم ٤٦٨٤، وقال الالباني: صحيح

(٥) سنن أبي داود (ج ٤ / ص ٤٠٠)، رقم ٤٤٠٢، وقال الألباني: حسن

(٦) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٣٦٣)، رقم الحديث، ٢٠٠٣، وقال الالباني: صحيح

(٧) المسند، (ج ٦ / ص ٩٠)، رقم، ٢٤٦٣٩ وقال شعيب الأرنؤوط : صحيح لغيره

٥ — المتحلي بمكارم الأخلاق ترجى له النجاة من النار يوم القيامة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ، عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ»^(١)

حقاً لقد ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة، فحبّ الله تعالى متعلّق به وحبّ رسوله والقرب منه متوقّف عليه وجمال الدنيا فيه، وثقل الميزان يوم القيامة به وأعلى الدرجات في الجنّة والنّجاة من النّار بالأخلاق الحسنة. فالمغبون يوم التغابن هو من فرط به وتهاون فيه، وهو الخاسر حقاً لخير الدنيا والآخرة، خسر في الدنيا حبّ النّاس والألفة معهم وجمال صورته الظاهرة والباطنة، وخسر في الآخرة حبّ الله وحبّ رسوله والقرب منه والدرجات العلى في الجنّة.

*** قال تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) [الأعراف: ١٩٩]

قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وحقاً ذلك فإنّها تضمنت حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حقّ الله فيهم والسلامة من شرهم، اقبل الميسور من أخلاق الناس، وأمر بالعرف ما يعرف صوابه وتستحسنه النفوس، {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} صن نفسك عن مقابلتهم على سفههم وترك الانتقام لنفسك والانتصار لها. فأيّ كمالٍ للعبيد وراء هذا؟ وأي معاشرة وسياسة للعالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟ قال صلى الله عليه وسلم «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»^(٢)

اللهمّ اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، اللهمّ آتِ نفوسنا تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها.

(١) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٢٣٥)، رقم ٢٤٨٨، وقال الألباني: صحيح
 (٢) المسند، (ج ٤ / ص ١٥٨)، رقم ١٧٤٨٨، السلسلة الصحيحة، (ج ٢ / ص ٥٥٢)،
 رقم ٨٩١، وقال الألباني: صحيح

٦٩. برّ الوالدين من أسباب دخول الجنة

قال تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا فَظًّا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [الإسراء: ٢٣-٢٤]

من أفضل مكارم الأخلاق وأحبها إلى الله تعالى والتي أمر الله عز وجل بها بعد الأمر بتوحيده برّ الوالدين والإحسان إليهما فقال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [النساء: ٣٦]، ومن عظيم فضله سبحانه وتعالى فقد أوصى بهما وقرن بين شكره وشكر الوالدين فقال عز وجل: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ) [لقمان: ١٤]

فياله من عظيم فضل من الله تعالى على الآباء والأمهات الذين لم يردوا لصاحب الفضل فضله بوصية أبنائهم بالله وعظيم حقه على العباد. فكم من أب وفي هذا الحق ووصى ابنه بالحفاظ على أوامر الله؟ وكم من أم وفّت وأوصت ابنتها بالعفاف والحياء؟ أما ثواب برّ الوالدين فلا يداينه ثواب ولا الجهاد في سبيل الله، أقبَل رَجُلٌ إِلَىٰ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَبَايُكَ عَلَىٰ الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ ابْتِغَىٰ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ. قَالَ: « فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ » قَالَ نَعَمْ بَلْ كِلَاهُمَا. قَالَ: « فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ » قَالَ نَعَمْ. قَالَ: « فَارْجِعِي إِلَىٰ وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنِي صُحْبَتَهُمَا »^(١)

ففي برّهما تفريج الكرب، ومغفرة الذنوب، وسعة الرزق، والبركة في العمر، والعبور على الصراط، والنّجاة من النّار، والفوز بالجنة فهل بعد هذا الأجر من أجر؟ فسبحان الله الملك الكريم ذي الفضل العظيم.

ومن صور البرّ بهما:

- مصاحبتهما في أمورهم الدنيوية بالمعروف (وإن جاهدك على أن تُشركَ بي ما ليس

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٣)، رقم ٦٦٧١

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) [لقمان: ١٥]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ «أُمَّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمَّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أُمَّكَ قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ» (١)

- طاعتها في كل أمر ليس فيه معصية وإن أخذنا مالك: عَنْ مُعَاذٍ قَالَ أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ ... قَالَ مِنْهَا «وَلَا تَعْتَنَّ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ» (٢)

- الإحسان إليهما والتلطف معها بليّن الكلام وعدم نهرهما، قال تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) [الإسراء: ٢٣]

- الدعاء لهما في حياتهما وبعد موتهما: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) [إبراهيم: ٤١] (وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [الإسراء: ٢٤]

- إكرام صديقيهما في حياتهما وبعد موتهما: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَبْرُّ الرِّبِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وَوَدَّ أَبِيهِ» (٣)

- إعانتها على العبادة عند بلوغها الكبر: عن زرعة بن إبراهيم، أن رجلاً أتى عمر رضي الله عنه، فقال: إن لي أمًا بلغ بها الكبر، وإيها لا تقضي حاجتها إلا وظهري مطية لها، وأوضئها، وأصرف وجهي عنها، فهل أدت حقها؟ قال: لا، قال: أليس قد حملتها على ظهري، وحبست نفسي عليها؟ قال: إيها كانت تصنع ذلك بك، وهي تتمنى بقاءك، وأنت تتمنى فراقها. وقال رجل لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: حملت أمي على رقبتني

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٢)، رقم ٥٩٧١

(٢) صحيح الترغيب والترهيب، (ج ٢ / ص ٣٣٤)، رقم ٢٥١٦، وقال الالباني: صحيح

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٦)، رقم ٦٦٧٨

من خراسان حتى قضيت بها المناسك، أتراني جزيتها؟ قال: لا، ولا طلقة من طلقاتها^(١)

*قال تعالى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ) [محمد: ٢٢-٢٣]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخُلُقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ قَالَتْ الرَّحْمُ هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ قَالَ نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلِكَ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ قَالَتْ بَلَى يَا رَبِّ قَالَ فَهَوَ لَكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَافْرُءُوا إِنْ شِئْتُمْ {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} (٢)

قال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ ذَنْبٍ يُؤَخِّرُ اللَّهُ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا الْبَغْيَ،

وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ، أَوْ قَطِيعَةَ الرَّحِمِ، يُعَجَّلُ لِصَاحِبِهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْمَوْتِ» (٣)

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا كَبِيرًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ وَالِدَانِ قَالَ لَا قَالَ فَلَمْ تَرَ خَالَهَ قَالَ نَعَمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِرَّهَا إِذَا» (٤).

ويقاس على قرب الوالدين من الولد قرب ذوي الرجل وقربته. فينبغي ألا يقصر الإنسان في رعاية حقهم كالعم، والعمّة، والخال، والخالة. واعلم أنّ الموقّنين الصالحين المحبوبين المرزوقين هم بارون بوالديهم، والأشقياء المحرومين غلاظ القلوب والمردولين هم عاقون لوالديهم القاطعون لأرحامهم. اللهم ابعدنا عن العقوق وأعنا على طاعتك وبرّ الوالدين.

(١) ابن الجوزي، بر الوالدين، (ج ١ / ص ١)

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٥) رقم ٥٩٨٧

(٣) الادب المفرد، (ص: ٢٠٧)، رقم ٥٩١، وقال الألباني: صحيح

(٤) المسند، (ج ٢ / ص ١٣)، رقم ٤٦٢٤، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح على شرط الشيخين

٧٠. أداء حق الجار من اسباب دخول الجنة

قال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُجُورًا) [النساء: ٣٦]

الحمد لله الذي أوصى العباد بعضهم ببعض، ومن فضله سبحانه وتعالى أنه قرن بين حقوقه وحقوق العباد فأمر بعبادته وتوحيده والإحسان إلى خلقه كالوالدين، والأرحام، والفقراء، والمساكين، والأيتام، والجيران، ووعد عن الإحسان إحسانا يوم المعاد وأخبر بمحبته لمن أحسن إلى عباده فقال تعالى: (وَإِحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة: ١٩٥] وقال تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [يونس: ٢٦]

ومن مكارم الأخلاق التي أمر الله تعالى بها الإحسان إلى الجار وجعل له حرمة تمنع من آذاه، ونفى الإيذان عمن انتهك هذه الحرمة، فعن أبي شريح أن النبي ﷺ قال « وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ قِيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ »^(١)، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ »^(٢) [بوائقه غوائله وشره أو ظلمه]

فالله تعالى أوصى بالجار ونبيه أوصى بالجار وجبريل أوصى بالجار، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ »^(٣)

ولعظم هذه الوصايا اهتم الصحابة بحقوق الجار سواء كان مسلماً أم كافراً أو منافقاً أو فاسقاً، وكل أقوالهم يجمعها الإكرام وكف الأذى. عن عبد الله بن عمرو أنه ذُبح له

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٠)، رقم ٦٠١٦

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٤٩)، رقم ١٨١

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٠)، رقم ٦٠١٤

شاة فجعل يقول لغلامه أهديت لجارنا اليهودي أهديت لجارنا اليهودي سمعت رسول

الله ﷺ يقول: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»^(١)

ومن حقوق الجار التي جاءت في السنة:

- إكرام الجار بالإحسان إليه والبشر في وجهه وقضاء حوائجه بنفسك ومالك وجاهك، وغير ذلك من وجوه الإكرام. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»^(٢).

- تعاهده بالسؤال عنه وإطعامه من طعامك الذي ليس عنده مثله: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»^(٣). عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»^(٤). والمرقة: الماء الذي طبخ فيه اللحم.

- عدم منعه من الاستفادة من الأمور المشتركة بينك وبينه، لأن ذلك من أذيته: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَمْنَعُ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ حَشْبَهُ فِي جِدَارِهِ»^(٥)

- حفظ عرضه وعدم التطلع إلى محارمه بالنظر أو غيره عند غفلته والستر عليه وحفظ أسرارهِ وذلك لأن الجار أعلم بأسرار جاره، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»^(٦) فالزنا كبيرة ويكون أعظم عندما يكون في عرض جارك.

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٠)، رقم ٦٠١٥، الادب المفرد: ص ٥٠، رقم ١٠٥

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٤٩)، رقم ١٨٢

(٣) صحيح وضعيف الجامع، (ج ١ / ص ٤٩٠)، وقال الالباني: صحيح

(٤) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٣٧)، رقم ٦٨٥٥

(٥) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ١٣٢)، رقم ٢٤٦٣

(٦) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١٥٢)، رقم ٧٥٢٠

-الامتناع من أذيته لأن ذلك سبب لنزول اللعنة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَشَكَاَ إِلَيْهِ جَارًا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «اصْبِرْ» ثُمَّ، قَالَ لَهُ فِي الرَّابِعَةِ أَوْ الثَّالِثَةِ: «اطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ» فَفَعَلَ، قَالَ: فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ بِهِ وَيَقُولُونَ: مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: آذَاهُ جَارُهُ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: لَعَنَهُ اللَّهُ فَجَاءَهُ جَارُهُ، فَقَالَ: رُدِّ مَتَاعَكَ لَا وَاللَّهِ لَا أُؤْذِيكَ أَبَدًا"^(١) وعند الحاكم: فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَقِيتُ مِنَ النَّاسِ قَالَ: « وَمَا لَقِيتَهُ مِنْهُمْ؟ » قَالَ: يَلْعَنُونِي قَالَ: « فَقَدْ لَعَنَكَ اللَّهُ قَبْلَ النَّاسِ » قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنِّي لَا أَعُودُ^(٢)

*** قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) [العنكبوت: ٧]

الحمد لله الذي أمر بالإحسان ووعد بالإحسان وبالمغفرة جزاء له، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَشْهَدُ لَهُ أَرْبَعَةٌ أَهْلُ أَبِيَاتٍ مِنْ جِيرَانِهِ الْأُذْيَيْنِ إِلَّا قَالَ قَدْ قَبِلْتُ فِيهِ عِلْمَكُمْ فِيهِ وَعَفَرْتُ لَهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »^(٣)

قبل الله تعالى وهو العليم الخبير بذنوب عباده شهادة الجيران لجارهم عند موته إذا شهدوا له بما يعلمون فيه ومغفرته له ما لا يعلمونه منه، وكذلك شهادتهم له في حياته، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ إِذَا أَحْسَنْتُ، وَإِذَا أَسَأْتُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِذَا سَمِعْتَ جِيرَانَكَ يَقُولُونَ: أَنْ قَدْ أَحْسَنْتَ، فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: قَدْ أَسَأْتُ، فَقَدْ أَسَأْتُ »^(٤) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم اجعلنا من المتبعين لنبيك والمحسنين إلى جيرانهم.

(١) صحيح ابن حبان، (ج ٢ / ص ٢٧٨)، رقم ٥٢٠، وقال الألباني: حسن صحيح
 (٢) المستدرک علی الصحیحین، (ج ٤ / ص ١٨٣)، رقم ٧٣٠٣، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره، رقم ٢٥٥٨
 (٣) الألباني، التعليقات الحسان، (ج ٥ / ص ٤٥)، رقم ٣٠١٥، وقال: صحيح
 (٤) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٤١٢)، رقم ٤٢٢٣، وقال الألباني: صحيح

٧١. النار

قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [التحریم: ٦]

لقد خلق الله تعالى النار لتكون دارا للكافرين والمعاندين والظالمين من عباده وذكرها بأكثر من مائة آية في القرآن باسمها الصريح غير آيات العذاب التي تدل عليها، وحذر منها في كثير من الآيات فقال عز وجل: (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى) وقال تعالى محذرا منها: (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)، كان أبو حنيفة يقول: هي أخوف آية في القرآن؛ حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه، ثم أتبع ذلك بتعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته، وطاعة رسوله فقال: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

وحذر منها النبي ﷺ: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا ثُمَّ قَالَ «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِيكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»^(١). {فأشاح بوجهه: أعرض وصرف وجهه، قال عدي: حتى ظننا أنه ينظر إليها}

والسبب الاول لدخول النار والخلود فيها هو التكذيب بالآيات، رد القرآن والأدلة والبراهين على صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [الاعراف: ٣٦]

قال تعالى: (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) [الزمر: ٧١-٧٢]، قال السمرقندي: "لم يأتكم رسل منكم" يعني آدميا مثلكم تفهمون كلامه» يتلون عليكم آيات ربكم «يعني يقرؤون عليكم ما أوحى إليهم»

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١١٥)، رقم ٦٥٦٣

وينذرونكم لقاء يومكم هذا « يعني أنهم يخوفونكم بهذا اليوم فكأنه يقول لهم يا أشقياء ألم يأتكم رسل منكم فأجابوه» قالوا بلى " فيقرون بذلك في وقت لا ينفعهم الإقرار ولو كان قولهم بلى في الدنيا لكان ينفعهم^(١)

ومن كفر وحكم عليه رب العزة بدخول النار والخلود فيها لا تنفعه الشفاعة ولا الفداء قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) [آل عمران: ٩١]

طعامهم الزقوم (لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ) [الواقعة: ٥٢] (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ) [الغاشية: ٦-٧]، شراهم الحميم، وعذابهم أليم (هُمُ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) [الأنعام: ٧٠] (هُمُ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) [الكهف: ٢٩]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُوتُهَا»^(٢)

قال تعالى في سورة الشعراء: (وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ) [الشعراء: ٩١-٩٣]، هؤلاء الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا وتتبعونهم بالباطل هل يستطيعون أن يدفعوا عنكم؟، (فَكَبَّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)، رمي بعضهم على بعض في جهنم هم والشياطين، (وَجُنُودُ إبليسَ أَجْمَعُونَ)، المتبعون الذين كانوا يضلون الناس من الكبراء والأمراء، (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، أي نحن في ضلال واضح بين. إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، أي نسوي بين عبادة الله وعبادة غيره، (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) يعنون إبليس

(١) السمرقندي، بحر العلوم، (ج ٢ / ص ١٩٥)

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٤٩)، رقم ٧٣٤٣

وأتباعه من السادة والكبراء، (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) [الأحزاب: ٦٧-٦٨]، ثم قالوا: (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ. فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) تقطعت أسباب التواصل بينهم، العلاقات الباطلة من دون الله القربات والصدقات والشفاعات والتناصر بالباطل التي كانت في الدنيا انتهت في الآخرة، (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمْ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)، ثم تنقلب هذه المودات في الدنيا إلى عداوة في الآخرة، (الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) [الزخرف: ٦٧]، فصارت كلُّ خُلَّةٍ عداوة على أهلها إلا خُلَّةَ الْمُتَّقِينَ.

وأخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهون أهل النار عذابا يوم القيامة لو كان عنده ما في الأرض وافتدى به لم يقبل منه عن أنسٍ يَرْفَعُهُ «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَأَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ إِلَّا الشُّرْكَ»^(١)

*** قال تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا

عَذَابَ النَّارِ) [البقرة: ٢٠١]

عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^(٢)، وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمُحْيَا وَالْمُتَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(٣)

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٣٣)، رقم ٣٣٣٤

(٢) صحيح البخاري، (ج ٦ / ص ٢٨)، رقم ٤٥٢٢

(٣) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٩٩)، رقم ١٣٧٧

٧٢. الشرك بالله من أسباب الخلود في النار

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ

فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) [النساء: ٤٨]

من اسباب دخول النار والخلود فيها الشرك بالله، فالشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله سبحانه وتعالى إلا بالتوبة منه فكل الذنوب معلقة على المشيئة إن شاء الله تعالى غفرها، وإن شاء عذب بها إلا من أشرك به، فهو محكوم عليه بعدم المغفرة، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) [النساء: ٤٨]

ولذلك نهى الله تعالى عنه فقال: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) وحذر جميع الانبياء اقوامهم منه وكان كل رسول يبدأ دعوته لقومه بقوله: (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وحذر منه العلماء والصالحون والمربون فقال لقمان: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)، وكان الأنبياء على جلاله قدرهم يخافونه على انفسهم فقال إبراهيم: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التشبه بالمشركين واهل الكتاب في عاداتهم وعباداتهم واقوالهم لأن ذلك يدعو إلى الميل إليهم فقال: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١) والشرك نوعان:

النوع الأول: شرك أكبر يخرج من الملة: وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عز وجل سواء كانت من العبادات القلبية كالمحبة والرجاء والخوف والتوكل والاخلاص وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح وعمل الجوارح من دونها إما عديم المنفعة وإما قليل المنفعة.

أو من عبادات الجوارح كالسجود لغير الله ودعاء غير الله والطواف بغير بيت الله والذبح والنذر لغير الله وطاعة الأحرار والرهبان والكبراء والأمراء في غير طاعة الله. وقد فرض الله تعالى هذه العبادات خالصة له لا يشاركه فيها غيره فمن صرفها لله

(١) سنن أبي داود، (٤ / ٧٨)، رقم ٤٠٣٣، وقال الالباني: حسن صحيح

وغيره بطل عمله ولم يقبل ولو كان عمل الأنبياء، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الزمر: ٦٥]

وقد بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله عن ربه في الحديث القدسي، عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ

عَنِ الشُّرْكِ مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١)

ومن أنواع الشرك في أعمال القلوب والجوارح:

- الشرك في الاخلاص: قال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ

وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) [البينة: ٥]

- الشرك في المحبة: قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ

كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) [البقرة: ١٦٥]

- الخوف من غير الله: قال تعالى: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ

وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) [آل عمران: ١٧٥]

- الرجاء لغير الله قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا

بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَٰئِكَ مَا وَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [يونس: ٧-٨]

- التوكل على غير الله: قال تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) [المائدة: ٢٣]،

فجعل التوكل شرطاً في الإيمان.

- دعاء غير الله: قال تعالى عن المشركين: (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا

يُضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ) [يونس: ١٠٦]

- الطواف بغير بيت الله قال تعالى: (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا

بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) [الحج: ٢٩]

- الذبح والنذر لغير الله: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) [الكوثر: ١-٢]

- شرك الطاعة: وهي طاعة الأحرار والرهبان والسادة والكبراء في معصية الله تعالى،

قال سبحانه وتعالى: (اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)، وقال تعالى: (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا).

النوع الثاني: شرك أصغر لا يخرج من الملة ومنه يسير الرياء، قال تعالى عن المنافقين: قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) [النساء: ١٤٢]

-الحلف بغير الله: عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ لَا وَالْكَعْبَةَ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ لَا يُخْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » (١)

- ومنه قول الرجل: ما شاء الله وشئت، أو لولا الله وأنت، عن ابن عباس: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، قَالَ: « جَعَلْتَ لِلَّهِ نِدَاءً، مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ » (٢)

** قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) [الجن: ٢٠-٢٢]

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ يَقُولُ انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: « يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من ديب النمل فقال أبو بكر وهل الشرك إلا من يجعل مع الله إلهًا آخر؟ قال النبي ﷺ والذي نفسي بيده للشرك أخفى من ديب النمل ألا أدلك على شيء إذا قلتَه ذهب عنك قليله وكثيره قال قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرُك لِمَا لا أعلم » (وفي لفظ آخر ثلاث مرّات) (٣)

وقال ﷺ: « اقرأ [قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ] عند منامك فإنها براءة من الشرك » (٤)

(١) صحيح وضعيف سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٣٥)، رقم ١٥٣٥، وقال الالباني: صحيح

(٢) الادب المفرد، ص ٢٧٤، رقم ٧٨٣، وقال الالباني: صحيح

(٣) الادب المفرد، ص ٢٥٠، رقم ٧١٦، وقال الالباني: صحيح

(٤) صحيح الجامع الصغير وزيادته (ج ١ / ص ٢٥٧) رقم، ٥٢٨، وقال الالباني: صحيح

٧٣. النفاق من أسباب دخول النار

قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) [التوبة: ٦٨]

النفاق: هو مخالفة الظاهر للباطن وهو الداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر فإنه أمر خفي على الناس. وكثيراً ما يخفى على من تلبس به فيزعم أنه مصلح وهو مفسد وهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر: النفاق الاعتقادي: وهو أن يُظهرَ للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولا للناس يهديهم بإذنه وينذرهم بأسه ويخوفهم عقابه وهو يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيراً) [النساء: ١٤٥]

وهو ستة أنواع: تكذيب الرسول ﷺ او تكذيب بعض ما جاء به، بغض الرسول ﷺ او بغض بعض ما جاء به، المسرة بانخفاض دين الإسلام، وكرهية انتصار دين الإسلام. والتوبة منه، بأربعة شروط قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيراً. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً) إلا الذين تابوا من النفاق وأصلحوا أعمالهم واعتصموا بالله أي تمسكوا بدين الله وبتوحيده وأخلصوا دينهم لله أي بتوحيدهم لله بالإخلاص، فإن فعلوا ذلك فأولئك مع المؤمنين أي المصدقين لهم، ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

وأما الاصغر: النفاق العملي: فمعناه: أن الواقع فيه يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، لكنه يتصف ببعض صفات المنافقين، مثل: الكذب في الحديث، والغدر في العهد، والإخلاف في الوعد، والخيانة في الأمانة والفجور عند الخصومة عن عبد الله بن عمرو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ

كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ». غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ «وَأِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُمْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ»^(١)، وفي الحديث الآخر قَالَ «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اتُّمِنَ خَانَ»^(٢)

هذا نفاق عملي، صاحبه مؤمن، ولكن فيه خصلة من خصال المنافقين، وهي خطيرة جداً، ربما أتمها تؤول به إلى النفاق الأكبر إذا اجتمعت فيه هذه الخصال ولم يتب منها. وللمنافقين علامات يُعرفون بها بيننا الله تعالى في القرآن في سورة البقرة، والنساء والأنفال، والتوبة، وأنزل تعالى سورة المنافقين كاملة في أوصافهم التي منها:

- موالاة الكفار من دون المؤمنين: والسبب أنهم فقد عندهم حسن الظن بالله ووعده بنصر المؤمنين فما لوا إلى الطرف الأقوى في العدد والعدة الذي يظنون أنه سينتصر وتكون لهم العزة به قال تعالى عز وجل: (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيَّتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) [النساء: ١٣٨-١٣٩]

- التحاكم إلى غير شرع الله تعالى: قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِهَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) [النساء: ٦٠-٦١]

- لهم وجهان وجه مع المسلمين ووجه مع الكفار: وجه يلقي به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون قال تعالى: (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ) [البقرة: ١٤]

- الرياء وعدم الاخلاص والكسل في الصلاة: قام بهم والله الرياء وهو أقبح مقام

(١) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٥٦)، رقم ٢١٩

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٥٦)، رقم ٢٢٠

قامه الإنسان وقعد بهم الكسل عمّا أمروا به من أوامر الرحمن فأصبح الاخلاص عليهم لذلك ثقيلاً، قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُجَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لِإِلَى هَوْلَاءِ وَلَا إِلَى هَوْلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) [النساء: ١٤٢-١٤٣]، يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شرق الموتى فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب، إذ هي صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب، ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففي البيت أو الدكان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتتمن خان، هذه معاملتهم للخلق، وتلك معاملتهم للخالق.

- كثرة الحلف الكاذب: قال تعالى عن المنافقين: قال تعالى: (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) [التوبة: ٦٢] [يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ] [التوبة: ٧٤]

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه، لعلمه أن قلوب أهل الإيثار لا تطمئن إليه، فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه، وكذلك أهل الريبة يكذبون، ويخلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، قد (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [المنافقون: ٢]

يقول ابن القيم: "تالله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين لعلمهم بدقه وجله وتفصيله وجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين"، قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا، ولا أركي بعدك أحداً، وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، ذكره البخاري، وذكر عن الحسن البصري: ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن... زرع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء، ومخرجهما من

عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة، فإذا تمت هذه الأركان الأربع استحکم نبات النفاق وبنياه، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار، فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تلبى السرائر، وكشف المستور، وبعث ما في القبور، وحصل ما في الصدور، تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق أن حواصله التي حصلها كانت كالسراب (يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (١)

*** قال تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ) [البقرة: ٤٣]

كثر المنافقون في زماننا أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنافقون اليوم اشر من اسلافهم عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ الْيَوْمَ شَرُّ مَنْهُمْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا يَوْمَئِذٍ يُسْرُونَ وَالْيَوْمَ يَجْهَرُونَ" (٢)

وقال: "إِنَّكُمْ لَتَكَلِّمُونَ كَلَامًا إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ النَّفَاقَ، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَصِيرُ بِهَا مُنَافِقًا، وَإِنِّي لَأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِي الْيَوْمِ فِي الْمَجْلِسِ عَشْرَ مَرَّاتٍ" (٣)

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ صَلَّى لَهِ أَزْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَةٌ تَنْبَرُّ مِنَ النَّارِ وَبَرَاءَةٌ مِنَ النَّفَاقِ » (٤)

اعزم على حضور الصلوات وتوكل على الله ليعينك على البراءة من النار والنفاق. اللهم طهر قلوبنا من النفاق وألستنا من الكذب وأعمالنا من الرياء واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين يا أرحم الراحمين.

(١) ينظر مدارج السالكين، (ج ١/ ص ٣٦١-٣٦٤)

(٢) صحيح البخاري، (ج ٩/ ص ٥٨)، رقم ٧١١٣

(٣) جامع العلوم والحكم، (ج ٢/ ص ٤٩١)

(٤) سنن الترمذي، (ج ٢/ ص ٧)، رقم ٢٤١، صحيح وضعيف الجامع الصغير وزياداته، (ج

٢ / ص ١٠٨٩)، رقم ٦٣٦٥، قال الالباني: حسن

٧٤. الاستهزاء بالدين من أسباب الخلود في النار

قال تعالى: (زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [البقرة: ٢١٢]

حبّ الدنيا والاستهزاء بالدين والأنبياء والرسل وأتباعهم صفة ملازمة للمعاندين الذين انحرفوا عن منهج الله تعالى، منذ أن بعث الله الرسل، من نوح إلى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم واستمرّ هذا الاستهزاء إلى يومنا هذا وكان الأولين أو صوا الآخرين بهذا قال تعالى: (أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) [الذاريات: ٥٣]

والكفر اليوم أصبح شائعا ووقع فيه الكثير من الناس من الكفار الأصليين كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم الذين ارتضوا غير الإسلام ديناً، أو من الكفار الذين أخرجهم الشيطان من الإسلام، ومن صور الكفر الشائعة:

- سبّ الله وسبّ الرسل: سبّ الله ورسله وأنبياءه من أعظم الذنوب على الإطلاق، وقد نهى الله تعالى عن سبّ آلهة الكفار، حتى لا يكون ذلك ذريعة لسبّ الله تعالى قال تعالى: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) [الأنعام: ١٠٨]، وبالرغم من سدّ أبواب هذا الإثم العظيم نجد الكثير من الناس كلما غضب سبّ الله تعالى أو سبّ رسوله صلى الله عليه وسلم، وأصبح الناس يتفننون في ألفاظ الكفر ويتلفظون بألفاظ ما تلفظ بها الأوّلون، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

- الاستهزاء بالآيات والرسل: قال تعالى: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ) لقد سخر السفهاء بالآيات والأنبياء والرسل، فسخروا من نوح، قال تعالى: (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)، قالوا لنوح عليه السلام تحمل هذا الفلك إلى البحر أو تحمل البحر إليه. وكان مشركوا مكة أبو جهل، والوليد بن المغيرة وأضرابهما، يضحكون من عمّار وصهيب وبلال وغيرهم من

فقراء المؤمنين وقالوا، (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) وعندما ظهر النفاق في المدينة أخذ المنافقون يستهزئون بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وسخروا بالمطّوعين في الصدقات، قال تعالى: (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [التوبة: ٧٩]، واستهزؤا بالقراء من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الرجوع من غزوة تبوك وقال رجل منهم "ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء" فقال: يا رسول الله، إننا كنا نخوض ونلعب. فنزل قوله تعالى: (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ. لَا تَعْتَدِرُوا قَدَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) [التوبة: ٦٥-٦٦]، فاعتبرهم كفارا بقولهم.

- لقد تطور الاستهزاء وكثرت صورته في الوقت الحاضر، وذلك لكثرة السفهاء من الكتاب والشعراء والعلمانيين ومن يسمون أنفسهم المثقفين وأصبح الاستهزاء عندهم تطورا وثقافة فاستهزءوا بالعقيدة والعبادات والحجاب والهدي الظاهر والصحابة باللفظ والغمز واللمز والتعريض بالشرعية وأهلها.

كل هؤلاء الذين سخروا بالأنبياء والرسل وأتباعهم وهدموا الله تعالى بالهلاك ولم يفلت منهم أحد قال تعالى: (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) [الرعد: ٣٢]، وقال تعالى: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) [الحجر: ٩٥-٩٦]، وقصص هؤلاء معروفة في السير والتاريخ، وكل واحد منهم عوقب بعقوبة لم يعاقب بها الآخر.

أما في الآخرة فلهم مشهد خاص بهم أخبر به تعالى في كتابه، وآمن به المهتدون الذين آمنوا بآياته وأنارت قلوبهم قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ. وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ

هُؤُلَاءِ لَضَالُّونَ. وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ. فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ. هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [المطففين: ٢٩-٣٦]

** قال تعالى: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) [النساء: ١٤٠]

يقول القرطبي: (إنكم إذا مثلهم) فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر قال الله عز وجل: (إنكم إذا مثلهم) فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية^(١)

يقول ابن قدامة المقدسي: "ومن سبَّ الله تعالى كفر سواء كان مازحاً أو جاداً"^(٢)

وقال الامام إسحاق بن راهويه أحد الأئمة الأعلام: "أجمع المسلمون على أن من سبَّ الله أو سبَّ رسوله صلى الله عليه وسلم أو دفع شيئاً مما أنزل الله عز وجل أو قتل نبياً من أنبياء الله عز وجل: إنه كافر بذلك وإن كان مقراً بكل ما أنزل الله"^(٣)

قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) [الحشر: ١٠]

اللهم اجعلنا من المعظمين لك الموقرين لرسلك المتبعين لهم المحيين لأوليائك العاملين بدينك اللهم اغفر لنا ذنوبنا كلها جدها وهزلها دققها وجلها أولها وآخرها علانيتها وسرها.

(١) الجامع لأحكام القرآن، (ج ٥ / ص ٤١٨)

(٢) المقدسي، المغني في فقه الامام أحمد، (ج ١٠ / ص ١٠٣)

(٣) ابن تيمية، الصارم المسلول على شاتم الرسول، (ج ٢ / ص ١٥)

٧٥. الكبر من أسباب دخول النار

قال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر: ٦٠]

من أسماء الله الحسنى العزيز الجبار المتكبر وهي صفات من صفاته سبحانه وتعالى لا تليق إلا بجلاله فصفة الله تعالى الكبرياء والتعالي والقهر وسمة العبد الخضوع والتذلل فلا ينازع العبد ربه في صفة من صفاته، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكَبرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَدْبَتُهُ »^(١)

الكبر سبب لأول ذنب عصي الله تعالى به من قبل إبليس حيث لم يسجد لآدم كما أمره الله تعالى بسبب تكبره، قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [البقرة: ٣٤]

وتبعه في سنته هذه المتكبرون جميعا من كل الأمم الذين لم يمثّلوا لنصائح الأنبياء والرسل بسبب الكبر قال تعالى عن قوم نوح: (وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) [نوح: ٧] وقال تعالى عن قوم فرعون: (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) [يونس: ٧٥]

الذنب الذي توعد الله صاحبه بالصرف عن تدبر الآيات: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف: ١٤٦] وقد توعد الله تعالى المستكبرين بالعذاب الأليم في الآخرة (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) [النحل: ٢٩]

يقول ابن القيم: "أركان الكفر أربعة الكبر والحسد والغضب والشهوة وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن يلي بها ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة ولا تزكو نفسه مع قيامها

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٣٥)، رقم ٦٨٤٦

بها وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الاربعة. والاشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والاعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلوّ وحبّ الجاه والرئاسة وأن يُحمد بما لم يفعل وأمثال ذلك كلّها ناشئة من الكبر^(١) من علامات المتكبرين:

- بطر الحقّ وغمط الناس: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»^(٢). بَطْرُ الْحَقِّ: فَهُوَ دَفَعَهُ وَإِنْكَارَهُ تَرْفَعًا وَتَجَبُّرًا. وَغَمَطَ النَّاسَ: احْتَقَرَهُمْ. وَمتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها.

- إجابة دعوات الأغنياء وعدم إجابة دعوات الفقراء فلا يجالسهم ولا يسلم عليهم قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبَلْتُ»^(٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمُتَمَلِّكِ عَلَى حُبْرِ الشَّعِيرِ»^(٤)

مرّ الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما بمساكين وهم يأكلون كسراً لهم على كساء، فقالوا: يا أبا عبد الله الغداء فنزل وقال: (إنّه لا يحبُّ المُستكبرين)، فأكل معهم، ثم قال لهم: «قد أحببتكم فأجيئوني». فانطلقوا معه، فلما أتوا المنزل قال لجاريتته: «أخرجي ما كنتِ تدخرين»^(٥)

- والمتكبر يرى نفسه أعلى من الغير يحبّ أن يُزار ولا يزور ويقصده الناس ويخدمونه

(١) ينظر، الفوائد، (ج ١ / ص ١٤٣-١٥٧)

(٢) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٦٥)، رقم ٢٧٥

(٣) صحيح البخاري، (ج ٧ / ص ٢٥)، رقم ٥١٧٨

(٤) المعجم الكبير للطبراني (١٢ / ٦٧)، رقم ١٢٤٩٤، وقال الألباني: صحيح، السلسلة الصحيحة مختصرة، ٢١٢٥

(٥) السمرقندي، تنبيه الغافلين بأحاديث سيد المرسلين، ص ١٨٣

ولا يخدمهم، ولا يعمل في بيته شغلا، وكان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم التواضع،
عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ سُئِلْتُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ قَالَتْ: "كَانَ
بَشْرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ وَيَجْلِبُ شَاتَهُ وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ"^(١) وفي الحديث الآخر قَالَتْ: "كَانَ
يَحِيطُ ثَوْبَهُ وَيُخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرَّجَالُ فِي بَيْوتِهِمْ"^(٢)

- الاعجاب بالنفس: كأن يعجب ويتكبر بهاله أو سلطانه أو شهادته أو زينته أو
مركوبه فيظهر ذلك على مشيته وتصغير خده للناس قال تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
وَلَا تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) [لقمان: ١٨]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ
جَمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ »^(٣)

- وأشد أنواع الكبر أن يكون متكبرا ولا شيء عنده، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ شَيْخُ زَانَ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ »^(٤) {العائل: الفقير}

* عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:
« يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرَّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،
فَيَسْأَفُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَارِ يُسْقُونَ مِنْ عَصَارَةِ أَهْلِ
النَّارِ طِينَةَ الْحَبَالِ »^(٥). قال بعض العارفين رأيت رجلا في الطواف ومعه خدم يمنعون
الناس من الطواف لأجله ثم رأيت بعد ذلك على جسر بغداد يسأل الناس فسألته عن
ذلك فقال تكبرت في موضع تتواضع فيه الناس فأهانني في موضع يتكبر الناس فيه.
اللهم طهر قلوبنا من الكبر والرياء والتفاق وسوء الأخلاق.

(١) المسند، (ج ٦ / ص ٢٥٦)، رقم ٢٦٢٣٧، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح

(٢) المسند، (ج ٦ / ص ١٢١)، رقم ٢٤٩٤٧، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح

(٣) صحيح مسلم، (ج ٦ / ص ١٤٨)، رقم ٥٥٨٦

(٤) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ٧٢)، رقم ٣٠٩

(٥) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٦٥٥)، رقم ٢٤٩٢، وقال: حسن صحيح

٧٦. السبع المهلكات من أسباب دخول النار

قال تعالى: (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا

كَرِيمًا) [النساء: ٣١]

لقد حذر الله تعالى من اقتراف الكبائر وبشر الذين يجتنبونها بتكفير سيئاتهم ومغفرته لهم، قال تعالى: (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) [النجم: ٣٢]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ وَالسُّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ^(١). [الموبقات: المهلكات]

قال علي رضي الله عنه وهو يخطب في مسجد الكوفة "يا أيها الناس، إن الكبائر سبع"، فأصاخ الناس، فأعادها ثلاث مرّات ثم قال: ألا تسألوني عنها؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، ما هي؟ قال: "الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرّم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، والتعرب بعد الهجرة"^(٢)

قال ابن عباس: "الكبائر كلّ ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب". وما من ذنب من هذه الكبائر إلا وفيه آية أو أكثر من كتاب الله:

- الإشراف بالله: قال تعالى: (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) [الحج: ٣١]، وهو من أكبر الكبائر فلا يقبل عمل مع الشرك ولو كان عمل الأنبياء، (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الزمر: ٦٥]

- والسحر: قال تعالى: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٠)، رقم ٢٧٦٦

(٢) الطبري، جامع البيان، (ج ٨ / ص ٢٣٥)

زاد الدعاة في التغيير واصلاح القلوب ٣٠٧

وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ (البقرة: ١٠٢)، وما أكثر السحر وانتشاره في أيامنا هذه بحيث أصبحت هناك قنوات فضائية تروِّج له تُدار من قبل دجالين لا هم لهم إلا الكسب الحرام وإضلال النَّاس.

- وقتل النفس: قال تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) [النساء: ٩٣]، وبالرغم من هذا الوعيد الشديد الذي تنزل له القلوب لا يتورع الكثير عن قتل المسلمين أو الإعانة على قتلهم.

- وأكل الربا: قال تعالى: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢٧٥]، وأعلن الله تعالى الحرب على آكل الربا، قال عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ) [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]

- وأكل أموال اليتامى: قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي

بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) [النساء: ١٠]

- والفرار من الزحف: قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ إِلَّا الْمُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [الأنفال: ١٥-١٦]

- وقذف المحصنات: قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النور: ٢٣]

وهذا لا يعني أن يستهين المسلم بصغائر الذنوب فلا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، ولا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر إلى من عصيت. فمن يعصي الملك ليس كمن يعصي من هو دونه فكيف بمن عصى ملك الملوك، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "إِنَّكُمْ

لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدْقُ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُبِقَاتِ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يَعْني بِذَلِكَ الْمُهْلِكَاتِ^(١) وذلك لأن معرفة الصحابة بجلال الله أتم فأنهم يستعظمون الصغائر ويرون أنها مهلكة، فبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي ما لا يتجاوز عن العالم.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنٍ وَإِدِ فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ»^(٢).

*** قال تعالى: (إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا

كَرِيمًا) [النساء: ٣١]

من فضل الله انه جعل الصغائر مُكْفَرَةً باجتناب الكبائر ووعده المتقين بالمغفرة وتكفير السيئات بالاعمال الصالحة فقال تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ) [هود: ١١٤]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ «الصَّلَوَاتُ الْخُمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ مُكْفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»^(٣).

عَنْ ابْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٤)

(١) صحيح البخاري (ج ٨ / ص ١٠٣)، رقم ٦٤٩٢

(٢) المسند، (ج ٣٧ / ص ٤٦٧)، رقم ٢٢٨٠٨ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، وقال الالباني: صحيح، السلسلة الصحيحة، رقم ٣٨٩

(٣) صحيح مسلم، (ج ١ / ص ١٤٤)، رقم ٥٧٤

(٤) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٨٤)، رقم ٦٣٩٨

٧٧. الظلم من أسباب دخول النار

قال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتُمْ هَوَاءً) [ابراهيم: ٤٢-٤٣]

لقد حذر الله تعالى من الظلم وحرّمه على نفسه وجعله بين العباد محرّماً كما جاء في الحديث القدسي: عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا» (١)

الظلم الذنب الذي بسببه تخرب الديار في الدنيا قال تعالى: (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)، ويوم القيامة يعرض الظالم على يديه ندما قال تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)، عندما يرى العذاب. ولقد نزه الله تعالى نفسه عن الظلم فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ٤٠] (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ) [آل عمران: ١٠٨] (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف: ٤٩]

ولقد تفضّل الله تعالى على عباده وأعطاهم أماناً من الظلم فقال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) [طه: ١١٢]

قال أهل التفسير: (فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا) فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليها (وَلَا هَضْمًا) يقول: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها.

الظلم الذنب الذي ينكره الناس مجتمعين ويفعلونه منفردين فلا يكاد يخلو عبد من ظلم. وأنذر الله تعالى الناس وحذرهم من الظلم وأمرهم باتباع الرسل قال تعالى: (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحِبْ دَعْوَتَكَ

وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ. وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ) [ابراهيم: ٤٤-٤٥]

ومع شدة الوعيد والإنذار ورؤية مصارع الظالمين وآثارهم تظالم الناس وسكنوا مساكن الظالمين وساروا على سننهم، والظلم ثلاثة أنواع كما جاء عن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَظُلْمٌ يَغْفِرُهُ، وَظُلْمٌ لَا يَتْرُكُهُ، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ: فَالشَّرْكَ، قَالَ اللَّهُ: (إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ: فَظُلْمُ الْعِبَادِ أَنْفُسَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ عِزٍّ وَجَلٍّ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَتْرُكُهُ: فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضَهُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْصُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»^(١)

- فأظلم الظلم هو الشرك بالله: قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)، وهو أعظم الذنوب كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ « قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ » قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ^(٢). ولا يغفره الله تعالى إلا بعد التوبة منه قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا).

- وظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محو فإنه يمحو بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ونحو ذلك، (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) [النساء: ٦٤]

- وظلم العباد للعباد وهذا لا يتركه الله تعالى ولا يسقط بشفاعته ولا غيرها حتى يعطى كل ذي حق حقه، عن أبي هريرة أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ». قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا

(١) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ٢ / ص ٧٢٤)، رقم ٣٩٦١، وقال الالباني: حسن

(٢) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١٥٢)، رقم ٧٥٢٠

فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١)

وأشد صور ظلم المخلوقين القتل: قال تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)، وأكل أموال الناس بالباطل مثل أكل الربا، والرشوة، والسرقة، وما أخذ غصبا، وما أخذ حياءً، وغير ذلك. وقد حذر النبي ﷺ من دعوة المظلوم وإن كان كافرا، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: «اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(٢)

** قال تعالى: (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) [هود: ١١٣]

وكما حرم ربنا سبحانه وتعالى الظلم نهى عن إعانة الظالم والركون إليه، والركون: الميل اليسير لأن ذلك يشجعه على التهادي في الظلم ونهى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عن معاونته وَقَالَ: « مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا بِبَاطِلٍ لِيَدْحَضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرِيَ مِنْ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ »^(٣) قال عطاء: فلا يحل لأحد أن يعين ظالما ولا يكتب له ولا يصحبه وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار معينا للظالمين، ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في بركة، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، فقيل له: يموت؟ فقال: دعه يموت. ودعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من يتولى من أمر المسلمين شيئا فيظلمهم

عَنْ عَائِشَةَ سَمِعَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْتَقُّ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَفَرَّقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ »^(٤) فاتَّقُوا الظلم فَإِنَّ الظلم فيه خراب الديار في الدنيا وهو ظلمات يوم القيامة.

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٨)، رقم ٦٧٤٤

(٢) صحيح البخاري، (ج ٣ / ص ١٢٩)، رقم ٢٤٤٨

(٣) السلسلة الصحيحة مختصرة، (ج ٣ / ص ١٧) رقم ١٠٢٠ وقال الألباني: صحيح

(٤) صحيح مسلم، (ج ٦ / ص ٧)، رقم ٤٨٢٦

٧٨. الغيبة من أسباب دخول النار

قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) [الحجرات: ١٢]

الخطاب في هذه الآية للمؤمنين وفيها أمر باجتناب الظن السيء ونهي عن التجسس ونهي عن تتبع العورات، والسرائر، ونهي عن الغيبة بقوله تعالى (وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ» (١) وقد نفر الله عز وجل من الغيبة أشد التنفير وجعلها بمنزلة أكل المسلم لحم أخيه المسلم وهو ميت، فقال تعالى: (أَيُّبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ)

والظن السيء بالمسلم والتجسس عليه وغيبته من مساوئ الأخلاق التي تنتهك بها أعراض المسلمين. وقد حرم رسول الله ﷺ أعراضهم كما حرم دماءهم وأكل أموالهم، فقال ﷺ في خطبة الحج «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا» فَأَعَادَهَا مَرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» (٢)

والغيبة أنواع:

أولاً: غيبة الأحياء: وهذه ورد فيها من الوعيد الشديد ما يجعل النفوس تنفر منها وتبتعد عنها: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ هُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ يُمِشُونَ وُجُوهُهُمْ وَصُدُورَهُمْ فَقُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ قَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٢١)، رقم ٦٧٥٨

(٢) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ١٧٦)، رقم ١٧٣٩

حُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»^(١). وهذه الغيبة تستطيع أن تتحلل منها في الدنيا بطلب السماح ممن اغتبتته.

ثانيا: غيبة الأموات: وهذه أشد من الأولى لأنك لا تستطيع أن تتحلل منها إلا يوم القيامة، فحرمة عرض المسلم محفوظة حيا وميتا، عن عائشة قالت: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ هَالِكٌ بِسُوءٍ فَقَالَ «لَا تَذْكُرُوا هَلَكَاكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ»^(٢). ونهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»^(٣). ونحن مأمورون بالاستغفار لمن سبقنا من أهل الإيمان قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) [الحشر: ١٠]

ثالثا: غيبة العلماء والدعاة: وهذه أشد أنواع الغيبة، لأن العلماء والدعاة هم خيار الأمة وحملة الشريعة وأهل القرآن قال صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٤). وهم أهل الله وخاصته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ» قالوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»^(٥) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا، وأنت تجد لها في الخير محملا»^(٦)

وقال ابن الجوزي: "سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة محذور"

قال الحافظ ابن عساكر: "حوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب (فليحذر الذين يُخالفون

(١) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٤٢٠)، رقم ٤٨٨٠، وقال الالباني: صحيح
 (٢) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ٢ / ص ١٢١٧)، رقم ٧٢٧١، وقال الالباني: صحيح
 (٣) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ١٠٤)، رقم ١٣٩٣
 (٤) صحيح البخاري، (ج ٦ / ص ١٩٢)، رقم ٥٢٠٧
 (٥) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ١ / ص ٤٣٢)، رقم ٢١٦٥
 (٦) ابن مفلح، الآداب الشرعية، (ج ٢ / ص ٢٩٥)

عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النور: ٦٣]"

وقال شيخ الإسلام: "وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل فإن الله تعالى عفا للمؤمنين عما أخطأوا كما قال تعالى: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قال الله: قد فعلت ... فنقول: (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ) [الحشر: ١٠]، وهذا أمر واجب على المسلمين في كل ما كان يشبه هذا من الأمور وتعظم أمر الله تعالى بالطاعة لله ورسوله وترى حقوق المسلمين لا سيما أهل العلم منهم كما أمر الله ورسوله" (١)

*** عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» (٢)

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا قَالَ غَيْرُ مُسَدِّدٍ تَعْنِي قَصِيرَةً. فَقَالَ « لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ » قَالَتْ وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ « مَا أَحَبُّ أُنَى حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنْ لِي كَذَا وَكَذَا » (٣)

قال ابن القيم: "ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول" (٤)

(١) الفتاوى الكبرى، (ج٤ / ص ٤٦٥)

(٢) صحيح البخاري، (ج١ / ص ١٢)، رقم ١١

(٣) سنن أبي داود، (ج٤ / ص ٤٢٠)، رقم ٤٨٧٧، وقال الألباني: صحيح

(٤) الجواب الكافي، (ص ١٥٩)

٧٩. حال الأتباع والمتبوعين يوم القيامة

قال تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ) [هود: ١٠٥ - ١٠٨]

الناس في هذه الدنيا أتباع ومتبوعون والمتبوعون نوعان:

متبوعون بحق: دعاة الهدى وهم الأنبياء والرسل وخاتمهم سيدنا رسول الله ﷺ.

متبوعون بباطل: وهم دعاة الضلال على غير منهج الأنبياء والرسل وهم أصحاب

الطرق الباطلة من أهل الأهواء والأفكار المنحرفين عن الصراط المستقيم.

أما الأتباع فهم صنفان:

الأتباع السعداء: وهم أتباع الأنبياء وأتباع أتباعهم الذين أتبعوهم بإحسان قال تعالى: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْهُمُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُوا مِنْهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة: ١٠٠]

الأتباع الأشقياء: وهم أتباع دعاة الضلال وأتباع أتباعهم وكل من أتبع غير سبيل المؤمنين قال تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء: ١١٥]

ومن رحمة الله تعالى بعباده فقد بين لهم في كتابه سبيل السعداء من المؤمنين مفصلة وسبيل الأشقياء من المجرمين مفصلة قال تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد: ١٠) أي بينا له سبيل الخير ليتبعه وسبيل الشر ليجتنبه، وقال تعالى: (وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتبينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) [الأنعام: ٥٥]، وبين عز وجل أعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء وجلاً سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينها غاية البيان حتى شاهدتها البصائر

كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام، وبين عاقبة هؤلاء مفصلة وعاقبة هؤلاء مفصلة (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الأنفال: ٤٢] وإنك لتقرأ الآيات الكريمة التي تصوّر مشاهد يوم القيامة فيُخَيَّلُ إليك أنك أمام مشهد حاضر أمام عينيك ترى فيه الأتباع والمتبوعين على غير طاعة الله.

المشهد الاول: انقطاع علاقات المودة: قال تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) [المؤمنون: ١٠١] (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) [عبس: ٣٤-٣٧] تنقطع العلاقات وأسباب المواصله بين الناس الانساب، القرابات، الصداقات، المصالح المشتركة، المودات الباطلة كل ما كان سببا للتواصل يربطهم ويتحابون عليه، ينقطع وينقلب عليهم عداوة يوم القيامة الا اهل التقوى الذين يجمعهم حب الله تعالى: (الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) [الزخرف: ٦٧] المجتمعون على غير طاعة الله من الفرق والجماعات والاحزاب والعشائر والقوميات والاولثان والاصنام والتحالفات الباطلة يتخاصمون بينهم ويلعن بعضهم بعضا قال تعالى: (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا)، يقول بعضهم للآخر (لا مَرَحَبًا بِهِمْ) [ص: ٥٩]، لا أهلا ولا سهلا، لا وسع الله لكم فيردون عليهم (قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْرَحِبَاءُ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبَشِّرْ الْقَارِئُ) [ص: ٦٠] حفلات الإستقبال والتوديع وكلمات الترحيب والتعظيم والمودة والتوسعة في المجالس في الدنيا تنقلب عداوة وبغضا.

المشهد الثاني: الوقوف امام الرب سبحانه وتعالى باستسلام لأمره: قال تعالى: (وَوَخَّشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) سكنت أصوات الخلائق للرحمن فلا تسمع لناطق منهم منطلقا، رؤوسهم منكسة امام الملك الحق المبين قال تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)، يتبرأ بعضهم من بعض، ويخذل بعضهم بعضا فلا ينصر أحدهم الآخر كما كانوا يتناصرون في الدنيا على الباطل، قال تعالى: (وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ . بَلْ هُمْ

الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ)، استسلموا لأمر الله تعالى فيهم وقضائه بعد أن عاندوا في الدنيا وغرهم جمعهم وقوتهم ونسوا أن القوة لله جميعا قال تعالى: (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ. إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ)، يتبرأ القادة من الأتباع، والأتباع من القادة، ولا يجنون من اجتماعهم في الدنيا على الباطل إلا العذاب والحسرات في نار جهنم.

قال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [سبأ: ٣١-٣٤]

المشهد الثالث: عذابهم في النار وأعدارهم: (يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَصَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) (تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) ألم تقرأ عليكم آيات كتاب الله فتكذبون بها بمختلف الحجج الباطلة، كما يقول البعض القرآن محرف، القرآن مبدل، القرآن له تفسير ظاهر وباطن.

ثم يتخاصمون فيما بينهم الاتباع الضعفاء والقادة المستكبرون (وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ) [غافر: ٤٧-٤٨] بفصل قضائه، فأسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لا معقب لحكمه ولا راد لأمره.

ثم يقوم بهم متبوعهم الأكبر الذي زين لهم الضلالة خطيبا (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ

الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [ابراهيم: ٢٢]

*** قال تعالى: (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيءٍ إنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسئرنَّ يومَ القيامةِ عما كانوا يفترون) [العنكبوت: ١٢-١٣]

المفترون الذين يقولون لا تباعهم اتبعوا طريقنا وفي رقابنا آثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتني، قال الله تكذبا لهم (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيءٍ إنهم لكاذبون)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْجَرِّ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا »^(١)

هذا الحديث فيه الحث على الدعوة الى الهدى والخير وفضل الداعي والتحذير من الدعوة الى الضلالة والغى وعظم جرم الداعي وعقوبته. فليحذر المسلم ان يكون من دعاة الضلالة الذين يصدون الناس عن دين الله بالمكر والخداع ويدعون الى التحلل والسفور وترك الأحكام الشرعية باسم الحرية الشخصية والفرقة والتحزب باسم الديمقراطية، والى الاهواء والآراء المضادة للشريعة باسم حرية الراي والفكر.

اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين نتبع نبيك ومن اتبع نبيك نحب بحبك ونتبع سبيل المؤمنين، ونعادي من عاداك ونبتعد عن سبيل المجرمين، لا اله الا انت اهدنا لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم.

٨٠. العصبية القبلية والقومية سبب هوان الأمة

قال تعالى: (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات: ١٣]

كان العرب قبل بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قسمين: قسم اتبع الديانات السابقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. وقسم كانوا على الحنيفية، دين إبراهيم وإسماعيل، لا سيما في الحجاز. وكل هذه الديانات دُرست آثارها وحُرِّفت وأصبح النَّاس في جاهلية عمياء وضلال مبین في العبادات والعادات والتقاليد كما وصفهم الله تعالى بقوله: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [الجمعة: ٢]

يقول عمر بن الخطاب: "إنما تنقّص عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية". فمعرفة المسلم لسنن الجاهلية تجعله على بينة من أمره حتى لا تدخله سنة من سننها، فعن ابن عباسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَمُطَلَبٌ دَمٍ أَمْرِي بِغَيْرِ حَقٍّ لِيَهْرِيقَ دَمَهُ»^(١)

-ومن مسائل الجاهلية وسننها التي ذمها الله تعالى ورسوله العصبية القبلية وهي أن

يكون الرجل مع قومه أو أقربائه في الحقِّ والباطل كما قال الشاعر الجاهليّ:

وهل أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشد غزيرة أرشد

أو كما نقول اليوم: أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب.

بالله عليكم أي فرق بين قولنا وقول الجاهلية. ومن النَّاس من يصلي ويصوم ويعمل على أسس الجاهلية فينتصر لأخيه أو قريبه ظالماً أو مظلوماً على طريقة الجاهلية وليس على طريقة الرسول ﷺ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ تَحْجِرْهُ أَوْ

تَمَنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»^(١). ونهى رسول الله ﷺ عن دعوى الجاهلية وإن كانت باسم المهاجرين والأنصار، فعندما قال: الأنصاري يالأنصار وقال المهاجري ياللمهاجرين فخرج النبي ﷺ فقال « ما بال دعوى أهل الجاهلية ثم قال ... دعوها فإنها خبيثة»^(٢)

- من سنن الجاهلية التفاخر بالأحساب والطعن في الانساب: فعن أبي ذر: «قال إني سابت رجلاً فعيرته بأمه فقال لي النبي ﷺ «يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية»^(٣) إن الفخر بالآباء والاعتزاز بهم مع عدم صلاحهم قد يكون سبباً لدخول النار التي حذر الله تعالى منها، قال رسول الله ﷺ: «انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عدت تسعة فمن أنت لا أم لك قال أنا فلان بن فلان ابن الإسلام قال فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن هذين المنتسبين أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة»^(٤)

إن الفخر بالآباء أو القبيلة أو بالعصبة الجاهلية والطعن في الآخرين، مرض قاتل يشعل العداوة، ويفرق الجماعة ويؤدي إلى تمزيق المجتمع ويجعله أحزاباً وطوائف.

*** عن أبي هريرة قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها التتن»^(٥) (العبية: الكبر والنخوة). الجاهلية وسننها والفخر بالآباء والقبائل والاقوام إذا لم يدعه المسلم يهوي به ويجعله شبيهاً بأرذل مخلوق على الأرض وهو الجعل وهو دويبة معروفة أكبر من الخنفساء وله جناحان من شأنه جمع

(١) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ٢٢)، رقم ٦٩٥٢

(٢) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٨٣) رقم ٣٥١٨

(٣) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٥)، رقم ٣٠

(٤) المسند، (ج ٣٥ / ص ١١٠)، رقم ٢١١٧٨ قال الالباني: صحيح، السلسلة الصحيحة، ١٢٧٠

(٥) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٤٩٢)، رقم ٥١١٨، قال الالباني: حسن

النجاسة وادخارها، ومن عجيب أمره أنه يموت من ريح الورد وريح الطيب، فإذا أعيد إلى الروث عاش^(١). هذا حال من جعل الجاهلية شعارا له يوالي ويعادي عليها!

لقد بين النبي ﷺ أصل الإنسان ومنزلته عند الله في حالة فخره بقومه وجاء الإسلام ليحطم هذه السنن ويستبدلها بأخوة الإسلام، قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

قال النبي ﷺ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا عَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ » قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: « فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ »^(٢)

يقول ابن القيم: "الدعاء بدعوى الجاهلية والتعزي بعزائهم كالدعاء الى القبائل والعصبية لها وللأنساب ومثله التعصب للمذاهب والطرائق والمشايخ وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية وكونه منتسبا اليه فيدعو الى ذلك ويوالي عليه ويعادي عليه ويزن الناس به كل هذا من دعوى الجاهلية"^(٣)

قال الشافعي: "قد جمع الله الناس بالإسلام، ونسبهم إليه فهو أشرف أنسابهم"^(٤). الاسلام رفع الأمة وشرّفها ووضع المسلمون اقدمهم قدما في الصين وقدماء في الاندلس فلم يكن الاسلام عائقا في تقدم الأمة ونهضتها كما يدعي الغافلون ولكن الأمة ذهبت مكانتها وتأخرت في كل الميادين عندما تأخرت هي عن الاسلام. اللهم أعزنا بالإسلام وزينا بالإيمان وأكرمنا بالتقوى بفضلك يا كريم.

(١) ينظر، الدميري، حياة الحيوان الكبرى، (ج ١ / ص ٢٨١)

(٢) السلسلة الصحيحة مختصرة، (ج ٦ / ص ٢٠٣)، رقم ٢٧٠٠

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، (ج ٢ / ص ٤٣١)

(٤) الأم، (ج ٦ / ص ٢٢٣)

٨١. مكانة المرأة في الاسلام

قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم: ٢١]

لقد أكرم الإسلام المرأة ورفع مكانتها بين الناس، ومن ذلك أن دين الإسلام أعاد للمرأة إنسانيتها، بعد أن انتهكت حرمتها عند جميع المجتمعات، وكانت تعدّ جزءاً من أموال الميراث في الجاهلية فورثها وجعل لها التصرف في مالها بكلّ حرّية، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ) [النساء: ١٩] وقال تعالى: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) [النساء: ٧] حرّمت الديانة المسيحية تعدد الزوجات والطلاق، والمذهب الكاثوليكيّ يحرم الطلاق تحريماً باتاً، ولا يبيح فصم الزواج لأيّ سبب مهما عظم شأنه، والمذهب المسيحيّ الآخرا، الارثوذكسيّ، والبروتستانتّي، يبيحان الطلاق في بعض حالات محدودة، من أهمّها الخيانة الزوجية، ولكنّها يحرمان على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوّجا بعد ذلك. والديانة اليهودية تبيح الطلاق بغير عذر بالنسبة للرجل وأما المرأة فليس لها أن تطلب الطلاق مهما تكن عيوب زوجها. أمّا في الجاهلية كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا راجعها وهي في العدة، وإن طلقها مائة مرة (١)

أمّا في الإسلام فمن يتأمل النصوص الشرعية يجد عناية الشريعة بالمرأة، ورعاية حقوقها، فالزمت الرجل بالمهر والنفقة واجاز لها اشتراط ما فيه مصلحتها في عقد الزواج، وجعلت اموال الزوجة مستقلة عن اموال الرجل لا يحق له التصرف بها الا باذنها. وأمرت بالتعامل مع المرأة بالمعروف والإحسان وتكرّرت ألفاظ المعروف والإحسان والعفو والفضل بين الرجال والنساء كثيرا في القرآن قال تعالى: وقال تعالى:

(١) السيد سابق، فقه السنة، (ج ٢ / ص ٢٤٥)

(وَلَهَنَّ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [البقرة: ٢٢٨] وقال تعالى: (فَأِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ) وقال تعالى: (وَأَمْرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

والمعروف: اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله، والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه، من المحسنات والمقبّحات.

والمعروف يثمر الصحة الطيبة وحسن العشرة لتدوم الرابطة الزوجية بين الزوجين. وأوصت الشريعة بتقوى الله عزّ وجلّ والإحسان بين الزوجين وعدم نسيان الفضل وبذل العفو والصفح في كل الأحوال حتى في حالة فسخ العلاقة الزوجية وقال تعالى: (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [البقرة: ٢٣٧] وقال تعالى: (وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) [البقرة: ٢٤١]

وحذرت الشريعة أشد التحذير من ظلم المرأة والتعدي عليها، وجعل عقاب من قذفها ثمانين جلدة فقال تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءِ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادةً أَبداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ) واعتبر التعدي عليها تعدياً على حدود الله كما جاء في آيات الطلاق يقول الله عزّ وجلّ: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

ولقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ، قال: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(١)

والمرأة الصالحة التي تعين الرجل على امر دينه خير له من الذهب والفضة كما ارشد النبي ﷺ، عن ثوبان، قال: لَمَّا نَزَلَتْ {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ} قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفارِهِ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: أَنْزَلْتَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، لَوْ عَلِمْنَا أَيُّ الْمَالِ خَيْرٌ فَتَّخَذَهُ؟ فَقَالَ: «أَفْضَلُهُ لِسَانَ ذَاكِرٍ، وَقَلْبُ شَاكِرٍ، وَرَوْجَةُ مُؤْمِنَةٍ تُعِينُهُ عَلَى إِيمَانِهِ»^(٢)

(١) صحيح مسلم، (ج ٤ / ص ١٧٨)، رقم ٣٧١٦

(٢) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ١٧٢) رقم ٣٠٩٤، وقال: حسن

وأوصى صلى الله عليه وسلم بالنساء خيرا. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ، أَوْ لَيْسَ كُنْتَ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا» (١)

وجعل صلى الله عليه وسلم علامة خيرية المؤمن أن يكون حسن الخلق مع أهله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا، أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُهُمْ خِيَارُهُمْ لِنِسَائِهِمْ» (٢)

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» أَوْ قَالَ: «غَيْرُهُ» (٣). «يَفْرَكُ» معناه: يُبْغِضُ.

حث الإسلام على حسن العشرة والصحبة، والصبر على سوء خلق المرأة، وأمر بالتماس العذر لها في سوء معاملاتها، وفي كفرانها العشير، فإنه «إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»، يعني: لا يكون جميع أخلاقها سيئة بل يكون فيها خلق حسن في مقابلة الخلق السيء، فليعْفُ عنها أفعالها غير المرضية لأجل أفعالها المرضية.

ما من شريعة على وجه الأرض أو قانون وضعه البشر أحسن إلى المرأة مثلما أحسن لها الإسلام الذي أوصى بها خيرا، وجعل لها حقوقا كما جعل للرجل حقوقا ومنع من ظلمها والتعدي عليها، فسبحان من أنزل الشريعة رحمة، وأرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للعالمين، وجعل أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمة مرحومة فله المنة وله الفضل وله الحمد وله الشكر.

(١) صحيح مسلم، (ج ٤ / ص ١٧٨)، رقم ٣٧٢٠

(٢) المسند، (ج ١٢ / ص ٣٦٤)، رقم ٧٤٠٢، قال شعيب الارنؤوط : صحيح واسناده حسن

(٣) صحيح مسلم، (ج ٤ / ص ١٧٨)، رقم ٣٧٢١

٨٢. أنواع القلوب

قال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [الحج: ٤٦]

لقد تكرر ذكر القلوب في القرآن والسنة عشرات المرات وغفل الكثير من الناس عن تدبر الآيات التي بينت حال القلوب وكيفية المحافظة عليها وإصلاحها. عن النعمان بن بشير قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «...الْإِنِّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، الْإِنِّ وَالْقَلْبُ»^(١)

فالقلب ملك الأعضاء كالقائد للجنود كلهم يصدرون عن أمره طائعون له لا يخالفونه في شيء من أوامره فإن كان الملك صالحا كان الجنود صالحين وإن كان فاسدا كان الجنود فاسدين.

والقلوب ثلاثة أنواع: صحيح، وسقيم، وميت، كما ذكرها الله تعالى في القرآن وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} فذكر القلب المريض وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه فهذان القلبان شقيان معذبان ثم ذكر القلب المخبت المطمئن إليه وهو الذي ينتفع بالقرآن ويزكو به^(٢)

القلب الصحيح وهو القلب السليم: قال تعالى (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، أي سليم من الكفر والشرك والنفاق والرياء والحسد والغش والمكر والخداع والبخل والشح. سلم من كل شهوة تعارض أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سوى الله ومن تحكيم غير شرعه.

ومن علامات القلب السليم: الإخلاص والمتابعة: أن يكون مخلصا لله متابعا لرسوله. فيحرص على الإخلاص في عمله لا يبتغي به غير وجه الله ويعمل كأن الله يراه ويشهد مع

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ٢٠)، رقم ٥٢

(٢) ينظر، ابن القيم، اغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، (ج ١ / ص ٧)، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١٠٦)

ذلك منة الله عليه وتقديره في حق الله. فالقلب السليم متعلق بالله تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، هو الذي همه كله في الله وحبّه كله له وقصده له وبدنه له وأعماله له ونومه له ويقظته له وحديثه له، والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث وأفكاره تحوم على مرضيه ومحابه. عن أبي أمامة الباهلي قال قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتِغَىٰ بِهِ وَجْهَهُ»^(١).

ومن علامات صحته ان لا يفتر عن ذكر ربه ولا يسأم من خدمته ولا يأنس بغيره واذا فاته ورده وجد لفواته الما أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده، وان يكون همه واحدا وأن يكون في الله وان يكون اشح بوقته ان يذهب ضائعا من أشد الناس شحا بهاله فلا حياة للقلب ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها قيل: وما أطيب ما فيها قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والتنعّم بذكره وطاعته. وقال آخر: والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته ولا الجنة إلا برويته ومشاهدته.

ومن علامات صحته الارتحال عن الدنيا والإقبال على الآخرة: أن يرتحل عن الدنيا وينزل بالآخرة حتى يحل فيها كأنه من أهلها وأبنائها جاء إلى هذه الدار غريبا يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه كما قال صلى الله عليه وسلم: « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ سَارِي فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا »^(٢). هذا حال من يحمل أشرف وأطهر قلب في البشرية كلها سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ربى أصحابه على طهارة القلوب وعدم الأخذ من الدنيا إلا بقدر زاد المسافر يأخذ من الزاد حسب حاجته التي تبلغه سفره.

يقول سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَرَحَّلَتْ مَدْبَرَةٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ تَرَحَّلَتْ مَقْبَلَةٌ وَلِكُلِّ مِنْهَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا

(١) سنن النسائي، (ج ٦ / ص ٢٥)، رقم ٣١٤٠، وقال الالباني حسن صحيح
(٢) المسند، (ج ١ / ص ٣٩١)، رقم ٣٧٠٩، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح

فإنَّ اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل". وكلَّمَا صحَّ القلب من مرضه ترحَّل إلى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها وكلَّمَا مرض القلب واعتلَّ أثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من أهلها.

القلب الميت: وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبد به بأمره وما يجبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته؛ ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضى ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله: حبا، وخوفا، ورجاء، ورضا، وسخطا، وتعظيما؛ وذلا. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه. فهو آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه. فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه. فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مغمور. ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مرید. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يصممه عما سوى الباطل ويعميه^(١)

ومن علامات موت القلب أنه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا بل ربَّما ينقلب عنده المعروف منكرا والمنكر معروفا فإنه لا يفرِّق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: "هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر" وقد وصفه الله تعالى بالقسوة، والقلب إذا قسا لا يتأثر بالقرآن. يقول تعالى عن اليهود (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) [المائدة: ١٣]

وكثير من الخلق في زماننا قلوبهم ميتة، والدليل أنهم انقلب عندهم المعروف منكرا والمنكر معروفا، فمثلا ينكرون على صاحب الثوب القصير وهو من المعروف ولا ينكرون على صاحبة الثوب القصير التي تظهر ساقها وهو من المنكر، بل في أحيان كثيرة لا ينكرون حتى الكفر بالله سبحانه وتعالى وإذا أنكرت أنت صاحب القلب السليم على من يسبَّ الله عزَّ وجلَّ يكونون معه ضدك ويقولون لك أنت محامٍ لربِّ العالمين؟

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان، (ج ١ / ص ٩)

القلب المريض: فيه من محبة الله تعالى، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه، ما هو مادة حياته ونجاته. وفيه من محبة الشهوات وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر ما هو مادة مرضه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين:

داع يدعوه إلى الله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربها منه باباً، وأعلاهما صوتاً، وأكثرها حضوراً. قال تعالى عن المنافقين: (مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَ لَا إِلَى هُوَ لَا وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) [النساء: ١٤٣]

وعلامه مرض القلب: أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه وتألم بجهله بالحق بحسب حياته وما لجرح بميت إيلام.

وكذلك عدوله عن الغذاء النافع والدواء النافع له وهما القرآن والسنة إلى الأغذية الضارة كالغناء والشعر الماجن. وأنفع الأغذية غذاء الإيمان وأنفع الأدوية دواء القرآن وكل منهما فيه الغذاء والدواء. وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته.

*** قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) [الأنفال: ٢٤]

صلاح القلب وسعادته وفلاحه هو بالاستجابة لما جاء به الرسول ﷺ. وشبهه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور وهذا من أحسن التشبيه فإن أبدانهم قبور لقلوبهم فقد ماتت قلوبهم وقبرت في أبدانهم فقال تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ) [فاطر: ٢٢]

كان من دعاء النبي ﷺ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا»^(١)

٨٣. العلم حياة القلوب

قال تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِئًا بِالْقَسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [آل عمران: ١٨]

لقد أمر الله تعالى بطلب العلم ورغب فيه وجعل منازل العباد في الدنيا بقدر علمهم ومنازلهم في الآخرة بقدر عملهم بعلمهم فقال تعالى: (وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [الأحقاف: ١٩]

قال الإمام أحمد: "الناس إلى العلم، أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرّة أو مرّتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه"^(١) العلم يورث المعرفة بالله واسمائه وصفاته وأفعاله وهذه اجل علوم الدين كلها، فمعرفة اجل المعارف، وإرادة وجهه اجل المقاصد، وعبادته اشرف الأعمال والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده اشرف الأقوال.

والعلم يورث ثلاثة أشياء بها صلاح القلوب وطمأننتها وهي محبة الله ورجاؤه وخوفه. فالعلم يؤدي الى معرفة الحق والإيمان به والعمل به قال تعالى: (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [سبأ: ٦]

والعلم يورث الرفعة والدرجات العليا عند الله تعالى: (يَرَفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [المجادلة: ١١]

والعلم يورث الخوف من الله تعالى فأكثر الناس خشية من الله عز وجل هم العلماء به وبدينه قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) [فاطر: ٢٨]

ولا يصح العمل إلا بالعلم فالعلم مقدم على العمل وقد أفرد البخاري رحمه الله في صحيحه بابا سماه باب العلم قبل القول والعمل، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

(١) مدارج السالكين، (ج ٢ / ص ٤٧٠)

اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ) [محمد: ١٩]

فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ «وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَثُوا الْعِلْمَ، مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(١)

والكفار الذين لا علم لهم ولا إيمان تجدهم في ظلمات بعضها فوق بعض قال تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة: ٢٥٧]

والعلم لا يأتي إلا من طريقين ارتضاهما الله تعالى هداية الناس وهما الكتاب والسنة وكل الطرق للهداية مسدودة وتؤدي إلى الضلال إلا من هذين الطريقين قال تعالى: (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) [الزمر: ١٧-١٨]، وأحسن القول هو كلام الله تعالى ثم كلام رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الزمر: ٢٣]

وجعل كتابه روحا يحيي به القلوب، ونورا يهدي به من يشاء من عباده فقال تعالى:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الشورى: ٥٢]

فجمع بين الروح الذي تحصل به الحياة، والنور الذي تحصل به الاضاءة والاشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام: ١٢٢]، أي أو من كان كافرا ميّت القلب، مغمورا في ظلمة الجهل

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ٢٤)، باب العلم قبل القول والعمل

فهديناه لرشده، ووفّقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًّا بعد موته، مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته^(١).
الوحي روح تحصل به الحياة ونور تحصل به الهداية فأتباعه لهم الحياة والهداية ومخالفوه لهم الموت والضلال.

وَفِي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورٌ
* قال تعالى: (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [المجادلة: ١١]

ذكر الله تعالى رفعة الدرجات في القرآن في أربعة مواضع ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الايمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والرابع الرفعة بالجهد (فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ٩٥] فعادت رفعة الدرجات كلها الى العلم والجهد اللذين بهما قوام الدين^(٢)

عن أبي الدرداء قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتَها رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيْسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(٣)

اللهم نسألك أن تحيي قلوبنا بالعلم وتعيننا على العمل به وتثبت قلوبنا على دينك وطاعتك لا إله الا أنت العليم الحكيم تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

(١) ينظر، ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، (ج ٥ / ص ٢)

(٢) ينظر، ابن القيم، مفتاح دار السعادة، (ج ١ / ص ٥١)

(٣) سنن أبي داود، (ج ٣ / ص ٣٥٤)، رقم ٣٦٤٣، وقال الالباني: صحيح

٨٤. محرّكات القلوب في السير إلى الله (الحبّ والرجاء والخوف)

قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) [البقرة: ١٦٥]

القلب يسير إلى الله ويريد أن يصل إليه ليفوز برضاه وجنته وهذا المسير لا يصلح إلا بثلاثة أشياء هي محرّكات القلب ودوافعه للسير بلا توقف هي حبّ الله، ورجاؤه، وخوفه، ووصف الله تعالى بها خواصّ خلقه الأنبياء قال تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) [الأنبياء: ٩٠] فمحبّة الله تعالى تجعلهم يسارعون في عمل الخير إرضاء لمن يحبونه ويدعون الله تعالى رغبة بما عنده من الثواب وهذا هو الرجاء، ويسألون الله تعالى المعافاة من العقاب وهذا يمثل الخوف.

يقول شيخ الاسلام رحمه الله تعالى: "فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبّته فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه"^(١)

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "القلب في سيره إلى الله عزّ وجلّ بمنزلة الطائر فالمحبّة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيّد الطيران ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكلّ صائد وكاسر فالمحبّة هي المركب والرجاء حاد والخوف سائق والله الموصل بمنّه وكرمه"^(٢)

محبّة الله: لقد تنوّع النَّاسُ في المحبوبات فمنهم من غلب عليه حبّ الأموال والأثمان، ومنهم من غلب عليه حبّ الديار والأوطان، ومنهم من غلب عليه حبّ

(١) مجموع الفتاوى، (ج ١٥ / ص ٢١)

(٢) مدارج السالكين، (ج ١، ص ٥١٧)

النساء والولدان، قال تعالى: (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ) [آل عمران: ١٤]، أما المحبّون الصادقون فقد غلب عليهم حبّ الله سبحانه وتعالى وقدموه على كلّ المحبوبات الأخرى التي تنافس حبه في قلوبهم قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) [البقرة: ١٦٥]

ولا يجد القلب حلاوة الإيمان إلا إذا كان فيه حبّ الله ورسوله أعلى من كلّ شيء، فعن أنس، عن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللهُ وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَكْفُرَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»^(١)

يقول ابن رجب: رحمه الله^(٢): "ومعنى الحديث، هو أنّ الإنسان لا يكون مؤمنا كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحبّ ما أمر به، ويكره ما نهى عنه"

وذمّ سبحانه من كره ما أحبه الله أو أحبّ ما كرهه الله قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَاهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَاهُمْ) [محمد: ٨—٩] والمحبّة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حبّ المحبوبات وبغض المكروهات، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهُ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فمن أحبّ الله ورسوله محبة صادقة من قلبه، أوجب له ذلك أن يحبّ بقلبه ما يحبّه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله ويرضى بما يرضى الله ورسوله ويسخط ما يسخطه الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحبّ والبغض.

فأصل العبادة: محبة الله بل إفراده بالمحبة وأن يكون الحب كله لله، فلا يجب معه

(١) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ١٢)، رقم ١٦

(٢) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، (ج ٤١ / ص ٣)

سواه، وإنما يجب لأجله وفيه، كما يجب أنبياءه ورسله وملائكته وأوليائه، فمحبتنا لهم من تمام محبته وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علما عليها، وشاهدا لمن ادعاها.

والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوت لا يحصيه الا الله فيين محبة الخليلين ومحبة غيرهما فرق شاسع لا يعلمه الا الله، فهذه المحبة هي المحبة التي تلتطف السير وتخفف التكاليف وتسخي البخيل وتشجع الجبان وتصفى الذهن وتروض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة لا محبة المحرمات.

**** قال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).**

هذه هي المحبوبات التي تنافس حب الله في القلب، فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه، وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله، فذلك المقدم عنده أحب إليه من الله ورسوله^(١). وكم من مدّع للمحبة كذبا شغلته هذه المحبوبات عن الذهاب إلى الصلاة حين يسمع الأذان، وصدته عن الذهاب للحج، ومنعه حب المال من اعطاء الزكاة واداء الحقوق، وأخرته عن الجهاد وصلة الرحم، اللهم اجعلنا من المحبين الصادقين برحمتك يا أرحم الراحمين.

(١) ينظر، مدارج السالكين، (ج ١/ ص ١١٩ - ١٢٠)

٨٥. الرجاء لفضل لله

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [البقرة: ٢١٨]

الرجاء: هو النظر إلى سعة رحمة الله، والرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير وقيل: هو الاستبشار بوجود فضل الربّ تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه والفرق بينه وبين التمنيّ أنّ التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجدّ والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكّل. ولهذا أجمع العارفون على أنّ الرجاء لا يصحّ إلا مع العمل^(١) وإذا تجلّى بصفات الرحمة والبرّ واللطف والإحسان انبعثت قوّة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوي طمعه وسار إلى ربّه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره. وكلّمها قوي الرجاء جدّ في العمل كما أنّ الباذر كلّمها قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر^(٢).

ورغب الله سبحانه وتعالى بالرجاء المفضي إلى رحمته ومغفرته، عن أنس بن مالك، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(٣)

وأرشد الله تعالى من يرجو لقاءه إلى أمرين هما الإخلاص والعمل الصالح فقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ

(١) مدارج السالكين، (ج ٢ / ص ٣٥)

(٢) الفوائد، ص ٧٠

(٣) الترمذي، سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٥٤٨)، رقم ٣٥٤٠، قال الالباني: صحيح

عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف: ١١٠]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

والقدوة في الرجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [الأحزاب: ٢١]
وصحابته رضي الله عنهم، الذين وصفهم تعالى بالرجاء وزكاهم، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، وأمر بالافتداء بهم فقال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [المتحنة: ٦]

قال علي بن أبي طالب: لا يرجون عبدًا إلا ربّه ولا يخافنّ عبدًا إلا ذنبه.

ولا يرجو الله إلا عالم به عالم بنفسه عالم بالناس، ولا يرجو غير الله إلا جاهل برّبّه جاهل بنفسه جاهل بالناس، قال تعالى: (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ).

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راجٍ لثوابه، ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنقَضُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ. لِيُؤْتِيَهُمَ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) [فاطر: ٢٩-٣٠]

والثالث: رجل متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب، قال تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا)، قَالَ مجاهد "لَا يُبَالُونَ الْحِسَابَ، وَلَا يَحَافُونَهُ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِالْغَيْبِ وَالْبَعْثِ". فهو لاء أو عدهم الله تعالى

بالعذاب. (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَئِكَ مَا وَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [يونس ٧-٨]، هؤلاء المعرضون الغافلون الذين لا يتوقعون لقاء الله ولا يطمعون في ثوابه مصيرهم النار بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد.

** قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر: ٥٣]

قال علي بن أبي طالب وابن مسعود: هذه أرجى آية في القرآن. وقال الشوكاني: لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشریفهم، ومزيد تبشيرهم. ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي. ثم عقب على ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة. ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ. فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفرادها، فهو في قوة إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ كُلَّ ذَنْبٍ كائناً ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك. ثم لم يكتفِ بما أخبر به عباده من مغفرة كلِّ ذنب، بل أكد ذلك بقوله (جَمِيعًا) فيها من بشارة تتراح لها النفوس. وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله: (إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» (١)
 عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعَوَاتُ الْمُكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتِكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» (٢).

(١) صحيح البخاري، ج ٩ / ص ٢٣٥، رقم ٧٤٥٣

(٢) المسند، (ج ٣٤ / ص ٧٥)، رقم ٢٠٤٣٠، قال الالباني: حسن، الجامع الصغير، رقم ٣٣٨٨

٨٦. الخوف من الله

قال تعالى: (رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) [النور: ٣٧]

من عبادات القلوب ومحركاتها إلى الله تعالى والتي لا غنى للعبد عنها هو الخوف من الله عز وجل. ومتى خلا القلب من خوف الله تعالى فلا يستقيم على أمر أو نهى ولا يُرجى منه خير. قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبا إلا خرب. وكلما كان العبد بالله أعرف وله أقرب زاد خوفه منه سبحانه وتعالى وكلما كان العبد جاهلا بالله وبعيدا منه تجرأ على معصيته. كلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف، ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد ربه، فأعرف الناس أخشاهم لله ومن عرف الله ازداد منه حياءً وخوفاً وله حباً، وأعرف العباد بالله رسوله ﷺ إذ يقول: «فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشِيَّةً»^(١)، وقال: وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ»^(٢)

الخوف من الله من صفات الملائكة قال تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) ومن صفات المؤمنين: (يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) [النور: ٣٧]

عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ آيَةِ: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)، قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرِبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ

(أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) [المؤمنون: ٦١]^(٣)

والخوف من الله يورث شجاعة أمام العدو عندما يجبن الناس والخوف يحجز عن

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٢٦)، رقم ٦١٠١

(٢) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٥٥٦)، رقم ٢٣١٢، وقال الالباني: حسن

(٣) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٣٢٧)، رقم ٣١٧٥، وقال الالباني: صحيح

القتل ويمنع من الزنا ومن أكل المال الحرام ويمنع من عقوق الوالدين وقطيعة الرحم.

أنواع الخوف: النوع الاول: الخوف الواجب من الله وهو الخوف الذي يملك على فعل المأمورات، واجتناب المنهيات والمحظورات. وهذا الخوف يجب أن يكون مقترنا بالرجاء والمحبة، فالؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، بحيث لا يذهب مع الخوف فقط حتى يقنط من رحمة الله، ولا يذهب مع الرجاء فقط حتى يأمن من مكر الله، لأن القنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله ينافيان التوحيد، قال تعالى: (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمِنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) (١).

النوع الثاني: الخوف المحرم الذي يدخل في الشرك الأكبر: وهو الخوف الذي يكون معه عبادة لغير الله أو ترك لما أوجب الله. ومعناه: أن يخاف الإنسان من غير الله من الأصنام والأوثان وما عبد من دون الله، من القبور والحجر والشجر، أو يخاف الشياطين والجن، ويتقرب إليهم بما يحبون من الشرك بالله من أجل أن يسلم من شرهم، فهذا شرك أكبر يُخرج من الملة، والله سبحانه وتعالى ذكر عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال: (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، ونهى سبحانه وتعالى عن هذا الخوف وأخبر أنه من الشيطان فقال تعالى: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أي يخوفكم بأوليائه.

النوع الثالث: الخوف المذموم الذي يدخل في الشرك الأصغر: أن يترك الإنسان ما أوجب الله عليه من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفا من الناس فهذا شرك أصغر، وهو محرّم، أمّا الذي ليس عنده استطاعة فهذا معذور.

النوع الرابع: الخوف الطبيعي: الذي ليس معه عبادة للمخوف ولا ترك لواجب، كأن يخاف الإنسان من العدو، يخاف من السباع، فهذا الخوف خوف طبيعي لا يلام عليه

(١) عبد القادر محمد عطا، المفيد في مهات التوحيد، (ج ١ / ص ١٢٥)

الإِنسان لآَنه ليس عبادة وليس تركا لواجب، ولا يُؤاخذ عليه الإِنسان، وموسى عليه السلام لما تأمر عليه الملائة ليقتلوه وأُنذر أن يخرج من البلد، قال تعال: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [القصص: ٢١]

* قال تعال: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) [فاطر: ٢٨]

العلم يورث الخشية من الله والخشية التي هي أخص من الخوف فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنَّ أَكُونَ أَحْشَاكُمُ اللَّهُ وَأَعَلَمَكُم بِمَا أَتَّقِي»^(١)، قال ابن مسعود " وكفى بخشية الله علما وبالاغترار بالله جهلا"، وقال رجل للشعبي: أيها العالم فقال: "لسنا بعلماء إنما العالم من يخشى الله"

وكل من خشية فأطاعه بفعل أو امره وترك نواهيه فهو عالم.

يقول ابن القيم: "ولا يصح الإيـمان إلا بهذا الخوف وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب. فهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه، فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه، وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيـمان، فإذا علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته وخاف أن لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد"^(٢)

اللهمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ، وَنَسْتَغْفِرُكَ، وَنُثْنِي عَلَيْكَ الْخَيْرَ، وَلَا نَكْفُرُكَ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرِكُ مِنْ يَفْجُرُكَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعْبُدُكَ وَنُحِبُّكَ، وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفَدُ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ، وَنَخْشَى عَذَابَكَ، إِنَّ عَذَابَكَ بِالْكَفَّارِ مُلْحَقٌ.

(١) صحيح مسلم، (٣/ ١٣٨)، رقم ٢٦٤٩

(٢) طريق المهجرتين وباب السعادتين، (ص: ٤٢٤)

٨٧. مفسدات القلوب

قال تعالى: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ. وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلٌّ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ. إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [المطففين: ١٠-١٤]

اعلم أنّ القلب يسير إلى الله عزّ وجلّ والدار الآخرة، وهناك قواطع للطريق تقطع عليه سيره وتضعف قواه كلّها، وتوهن صحّته وتفتر عزيّمته، وتوقف همّته، وتنكسه إلى ورائه، فهي عائقة له عن نبل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له. وهذه خمسة أمور حائلة بين القلب وبين الهداية والوصول إلى ربّه، عائقة له عن سيره، ومحدثه له أمراضا وعلايا إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها.

أوّلا: مخالطة الناس الأشرار

لقد حذّر الله تعالى من صديق السوء الذي يوصل صاحبه إلى الهلاك والندم قال تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) [الفرقان: ٢٧] (الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) [الزخرف: ٦٧] فكلّ متساعدين على باطل، متوادين عليه لا بدّ أن تنقلب مودّتها بغضا وعداوة في الدنيا والآخرة.

وحذّر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من جليس السوء -عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُخْدِيكَ وَأَمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(١)

وحذّر منه الأنبياء والحكماء والعقلاء فالصديق له تأثير أكثر من أقرب الأرحام

(١) صحيح البخاري، (ج ٧/ص ٩٦)، رقم ٥٥٣٤، صحيح مسلم، (ج ٨/ص ٣٧)، رقم ٦٨٦٠

قال ابن عباس: الصديق أوكد من القريب ألا ترى استغاثة الجهنميين حين قالوا (فما لنا من شافعين. ولا صديق حميم)، ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات. والضابط النافع في أمر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة وأعمال الخير ويعتزلهم في الشر، وإن اضطر إلى مجالستهم فليكن حاضر البدن غائب القلب مشغول بالذكر.

ثانيا: ركوبه بحر التمني

وهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس... وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيصة سفلية، ليست لها همّة عالية، واختلف الناس في أمانيتهم وكلّ بحسب حاله فمنهم متمنّ للسلطان، أو للأموال أو للنساء أو التطواف في البلدان. وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والايان والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيه من جواره في جنته ومرافقة أوليائه. فأمانيّ هذا إيمان ونور وحكمة، وأمانيّ أولئك خدع وغرور، وأمانيّ الأنبياء ومن تبعهم قولهم، قال تعالى: (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ .

وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ) [الشعراء: ٨٣-٨٥]

ثالثا: التعلق بغير الله تبارك تعالى

أساس الشرك وقاعدته التي بُني عليها التعلق بغير الله، ولصاحبه الذمّ والخذلان، كما قال تعالى: (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) [الإسراء: ٢٢]، مذموما لا حامد لك، مخذولا لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورا محمودا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذموما منصورا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودا منصورا كالذي تمكّن وملك بحق، والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أربعا الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور، وهذا أعظم مفسداته على الاطلاق، فليس عليه أضّر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به،

وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عزّ وجلّ بتعلّقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمّله ممن تعلق به وصل.

رابعاً: الغذاء أصله وكميته

لا بدّ من العلم أنّ القلب عندما يُغذى بالمحرّمات لا يمكن أن يصلح وهي نوعان: محرّمات لحقّ الله، كالهيئة والدم، ولحم الخنزير والخمر والدخان، ومحرّمات لحقّ العباد، كالمسروق والمغصوب والمنهوب، وما أخذ بغير رضا صاحبه، إمّا قهراً وإمّا حياءً وتذمّماً، كالرشوة وهدايا العمال والموظّفين. وهؤلاء لا يصلحون ولا تصلح ذريّتهم ولا يجنون منهم إلا العقوق.

والثاني: ما يفسده بقدره وتعدّي حدّه كالإسراف في الحلال والشّبع المفرط فإنّه يُثقله عن الطاعات قال تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ).

عن مقدم بن معديّ كرب قال سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»^(١).

خامساً: النّوم

فإنّه يميم القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل، ومنه المكروه جدا، ومنه الضارّ غير النّافع للبدن، وأنفع النّوم ما كان على سنّة النّبّي صلّى الله عليه وسلّم وهو نوم أوّل الليل، ونوم وسط النّهار ولا ينفع نوم أوّل النّهار أو بعد العصر أو بعد غروب الشمس حتى تذهب فحمة العشاء.

وكما أنّ كثرة النّوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعتة وهجره مورث لآفات أخرى ويورث أمراضاً متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلا بالعدل، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظّه من مجامع الخير، وبالله المستعان^(٢)

(١) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ١٨)، رقم ٢٤٨٦، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح

(٢) ينظر، مدارج السالكين، (ج ١ / ص ٤٥٧)

وأغلب الناس اليوم يحملون هذا المفسد للقلب بحيث انقلبت عندهم الفطرة يسهرون طول الليل على الفضائيات والانترنت وعند أذان الفجر ينامون ويستمرون بالنوم طول النهار، فكيف تصلح القلوب وهي تحمل آفة فسادها ومرضاها؟

*** قال تعالى: (وَابْتَغِ فِيهَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) [القصص: ٧٧]

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِثْلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمِثْلِ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ، يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهَذَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا، فَهُوَ يَحْبِطُ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَا مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ هَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهَذَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ»^(١).

لقد مدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متمني الخير غير المستطيع له، وجعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، وذم متمني الدنيا غير المتمكن منها الذي يتمنى العمل بالمعاصي إذا تمكن منها وجعل وزره كوزر عامل المعصية.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(٢).

يا مقلِّبِ القلوب ثبِّتْ قلوبنا على دينك يا مصرِّفِ القلوب صرِّفْ قلوبنا على طاعتك.

(١) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٤١٣)، رقم ٤٢٢٨، وقال الالباني: صحيح

(٢) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٢٢٤)، رقم ٢٤٦٥، وقال الالباني: صحيح

٨٨. المحبة

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) [مريم: ٩٦]

المحبة هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون وإلى علمها شمّر السابقون وعليها تفانى المحبّون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرّة العيون وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، تالله لقد ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة وهم الفائزون في الدنيا والآخرة^(١)

المحبة ثلاثة أقسام محبة الله والمحبة له وفيه والمحبة معه فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحب ومحبة ما يعين على حبه ويوصل إلى رضاه وقربه وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه ويتوصل به إلى حبه وقربه وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} وأصل الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك في هذه المحبة فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله فالوا عليها وعادوا عليها وتألّوها وقالوا هذه آلهة صغار تقرّبنا إلى الإله الأعظم ففرق بين محبة الله أصلا والمحبة له تبعا والمحبة معه شركا وعليك بتحقيق هذا الموضوع فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

المحبة بين طرفين طرف محبة العبد لربه، وطرف محبة الرب لعبد، وكون العبد محبوبا لله أعلى من كونه محبا لله فليس الشأن أن تحب الله ولكن الشأن أن يحبك الله فمن أحبه الله ألقى عليه محبة الناس كما قال تعالى لموسى: (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) [طه: ٣٩]، فمن أحبه الله حبه إلى خلقه، قَالَ ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ:

(١) ينظر، روضة المحبين، في علامات المحبة وشواهداها، (ص: ٢٩٣)

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيْلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيْلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(١)، وتحبه الأشجار والأحجار والجمادات، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ جَبَلٍ أَحَدٍ: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»^(٢)

كثر المدعون للمحبة ومن كل الطوائف قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) [المائدة: ١٨]، وادعى أهل الأموال محبة الله لهم، فطولبوا بالبيئنة على صحة الدعوى، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْمِحْنَةِ (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [آل عمران: ٣١]، إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه.

وأتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ وَيُحِبُّونَهُ فِيهِمْ أَرْبَعُ صِفَاتٍ جَمَعَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [المائدة: ٥٤]

لهم أربع علامات أحدها: أنهم (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) أَرْقَاءَ، رَحَمَاءَ مَشْفُقُونَ عَلَى أَهْلِ دِينِهِمْ. عَاطِفُونَ عَلَيْهِمْ. قَالَ عَطَاءٌ: لِلْمُؤْمِنِينَ كَالْوَلَدِ لَوَالِدِهِ، وَالْعَبْدَ لِسَيِّدِهِ.

الثانية: (أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهَمٌّ فِي الْغَلْظَةِ عَلَى الْكَافِرِ كَالسَّبْعِ عَلَى فَرِيستِهِ. وَهَذِهِ صِفَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح: ٢٩]

العلامة الثالثة: (يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، الجهاد في سبيل الله، جهاد النفس والشيطان

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١١١)، رقم ٢٣٠٩

(٢) صحيح البخاري، (ج ٥ / ص ١٠٣)، رقم ٤٠٨٣

والكفار والمنافقين وجهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان ومن لم يجاهد نفسه وشيطانه لم يجاهد عدوه.

العلامة الرابعة: (وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)، أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. هذا شأن أتباعه من بعده إلى يوم القيامة لا تأخذهم في متابعة سنته لومة لائم ولا يثنيهم عنها عدل عادل فهم يحتملون في متابعتهم والاهتداء بهديه لوم اللائمين وطعن الطاعنين ومعادة الجاهلين. وهذا علامة صحّة المحبّة فكلّ محبّ يأخذه اللوم عن محبّوبه فليس بمحبّ على الحقيقة.

*** قال تعالى عن موسى: (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) [طه: ٨٤]

قَالَ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١)

حبّ العبد لربه يورثه الشوق له والمسارعة إلى لقائه ومحبة رؤيته وسروره بالقرب منه والأنس به رغبة اليه ورهبة منه خاشعين له (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) {سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٩٠}

ولذلك رغب النبي صلى الله عليه وسلم بالتبكير للصلاة فقال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، وَمَثَلُ الْمُهَجَّرِ كَمَثَلِ الَّذِي يَهْدِي بَدَنَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يَهْدِي بَقْرَةً، ثُمَّ كَبْشًا، ثُمَّ دَجَاجَةً، ثُمَّ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طَوَّأَ صُحُفَهُمْ، وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»^(٢)

المصلي مناج لربه في صلاته، فأفضل المناجين له أسرعهم إجابة لداعيه، وقيامًا إلى مناجاته، ومبادرة إليها في أول الوقت.

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٠٦)، رقم ٦٥٠٨

(٢) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ١١) رقم ٩٢٩، مسلم (ج ٣ / ص ٧)، رقم ٢٠٢١

٨٩. الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى: (التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل)

قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ازْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [الحج: ٧٧]

المحبة منتهى القربة والاجتهاد ولن يسأم المحبون من طول اجتهادهم لله عز وجل ويجبونه ويحبون ذكره ويحبونه إلى خلقه يمشون بين خلقه بالنصائح ويخافون عليهم من أعمالهم يوم تبدو الفضائح أولئك أولياء الله وأحباؤه وصفوته أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه^(١). ولا يحصل ذلك إلا بتحقيق الأسباب الجالبة للمحبة ومنها:

إن من أحب الأشياء إلى الله تعالى التي يحب أن يتقرب بها إليه هي الفرائض ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى أن يتقرب إليه عبده بالنوافل، فكلما أكثر من النوافل كلما قرب من محبة الله له كما جاء في الحديث القدسي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(٢)

فتضمن هذا الحديث الشريف الإلهي حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل، وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب به إليه المتقربون، ثم بعدها النوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله.

قال ابن القيم: "ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه في محابه، حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه، فقال: «ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه». أي: كما

(١) جامع العلوم والحكم، (ص: ٨١)

(٢) صحيح البخاري، (ج٨ / ص ١٠٥)، رقم ٦٥٠٢

وافقني في مرادي بامثال أوامري والتقرب بمحايي، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به، ويستعيزني أن يناله، وقوي أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت، والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده، ويكره مساءته^(١) وأفضل الفروض هي أركان الإسلام وأولها بعد الشهادة الصلاة، أما نوافل الصلاة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم السنن الرواتب أي السنن قبل الصلوات وبعدها وجاءت في حديث عائشة عن عبد الله بن شقيق قال: "سألت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تطوعه فقالت كان يصلي في بيتي قبل الظهر أربعاً ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيصلي ركعتين وكان يصلي بالناس المغرب ثم يدخل فيصلي ركعتين ويصلي بالناس العشاء ويدخل بيتي فيصلي ركعتين وكان يصلي من الليل تسع ركعات فيهن الوتر وكان يصلي ليلاً طويلاً قائماً وليلاً طويلاً قاعداً وكان إذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم وإذا قرأ قاعداً ركع وسجد وهو قاعدٌ وكان إذا طلع الفجر صلى ركعتين"، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، أنه أخبره: أنه سأل عائشة رضي الله عنها، كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان؟ فقالت: «ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة يصلي أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً»^(٢) وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صليتم بعد الجمعة فصلوا أربعاً»^(٣) أما النوافل من غير السنن الرواتب والثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم فهي صلاة الضحى وصلاة الوتر، وهدي النبي صلى الله عليه وسلم، فعل عامة السنن والتطوع في بيته، إلا الخسوف والكسوف والجنابة والاستسقاء.

ونوافل الصيام، صيام يوم الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر وستة أيام من

(١) الجواب الكافي، (ص ١٨٧)

(٢) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ٥٣)، رقم ١١٤٧

(٣) صحيح مسلم، (ج ٣ / ص ١٦)، رقم ٢٠٧٤

شوال وعشر ذي الحجة ويوم عرفة ويوم عاشوراء مع يوم قبله أو يوم بعده. عن عبد الله بن عمرو، قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ» (١)

ونوافل الصدقة الزائدة عن الزكاة: جاء الترغيب بها في آيات وأحاديث كثيرة قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [البقرة: ٢٥٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمَسِّكًا تَلْفًا» (٢)

*** قال تعالى: (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة: ١٩٥]

عَنْ زَيْدِ بْنِ طَبِيَّانٍ رَفَعَهُ إِلَى أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ وَثَلَاثَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللَّهُ أَمَّا الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَرَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ بِقَرَابَةٍ بَيْنَهُمْ فَمَنْعُوهُ فَتَخَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْقَابِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إِلَّا اللَّهُ وَالَّذِي أَعْطَاهُ وَقَوْمٌ سَارُوا لِيَلْتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعَدُّلُ بِهِ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَقَامَ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتَلَوُّ آيَاتِي وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقُوا الْعَدُوَّ فَهَزَمُوا فَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ، أَوْ يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُ وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُبْغِضُهُمُ اللَّهُ الشَّيْخُ الزَّانِي وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ وَالْغَنِيِّ الظُّلْمُ» (٣)

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين المؤدبين لفرائضك المتبعين لسنة نبيك إنك سميع مجيب.

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٦١)، رقم ٣٤٢٠

(٢) صحيح البخاري، (ج ٢ / ص ١١٥)، رقم ١٤٤٢

(٣) المسند، (ج ٥ / ص ١٥٣)، رقم ٢١٣٩٣، وقال شعيب الأرنؤوط : صحيح

٩٠. تلاوة القرآن

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) [فاطر: ٢٩]

من علامات حبِّ الله عزَّ وجلَّ حبُّ القرآن وتلاوته فمن أحبَّ شخصا فلا بدَّ أن يحبَّ كلامه وكلام البشر فيه الصحيح والسقيم، فكيف بمن أحبَّ الله تعالى وخير الحديث كلامه، فالمحبون لا شيء ألدَّ لهم ولقلوبهم من سماع كلام محبوبهم وفيه غاية مطلوبهم ولهذا لم يكن شيء ألدَّ لأهل المحبة من سماع القرآن، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: « أَقْرَأْ عَلَيَّ » قُلْتُ: أَقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: « فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فَفَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) قَالَ: « أَمْسِكْ » فَإِذَا عَيْنَاهُ تَدْرِفَانِ ^(١). قال ابن مسعود: "لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحبُّ القرآن فهو يحبُّ الله عزَّ وجلَّ وإن لم يكن يحبُّ القرآن فليس يحبُّ الله".

وقال سهل بن عبد الله: "علامة حبِّ الله حبُّ القرآن وعلامة حبِّ القرآن حبُّ النبي ﷺ، وعلامة حبِّ النبي ﷺ حبُّ السنَّة، وعلامة ذلك كله حبُّ الآخرة".

ولا حسد إلا على القرآن، والانفاق في سبيل الله قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ، وَقَامَ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » ^(٢)

فأهل القرآن هم أهل الله وخاصته كما جاء في الحديث: عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ قَالَ قِيلَ مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ » ^(٣)

(١) صحيح البخاري، (ج ٦ / ص ٤٥)، رقم ٤٥٨٣

(٢) صحيح البخاري، (ج ٦ / ص ١٩١)، رقم ٥٠٢٥

(٣) صحيح الجامع الصغير وزياداته، (ج ١ / ص ٤٣٢)، رقم ٢١٦٥

(وُنزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [الإسراء: ٨٢]، ففي القرآن شفاء للقلوب من أمراض الشبهات والشهوات ففيه البينات على إثبات الحق وردّ الباطل وبذلك تزول الشبهات عن القلب فيصير الحق والباطل ويميز بينهما كما يميز بعينه بين الليل والنهار، وأما شفاؤه لمرض الشهوات فإنه وضع لها الحدود بالحكمة والموعظة الحسنة. وهو شفاء للأبدان من أسقامها عند الرقية بتلاوته، أما أهل الباطل الذين جعلوه وراء ظهورهم فهو عليهم عمى وخسارٌ، فسبحان من جعل كلامه هدى وشفاء ورحمة لعباده المؤمنين، وجعله عمى وضلالاً وخساراً للمعاندِين، (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) [فصلت: ٤٤]

فمن طلب الهداية (اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة]، تجيب سورة البقرة في بدايتها:

(الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) [البقرة: ١-٢] فهو الفارق بين الهدى والضلال والغى والرشاد والشك واليقين، وهو الدليل لمعرفة الرب الذي تعبد ومنزلة النبي الذي تتبعه والدين الذي تتعبد به والطريق الموصلة إليه في دار كرامته، قال ابن القيم: "أطلب قلبك في ثلاثة مواطن عند سماع القرآن وفي مجالس الذكر وفي أوقات الخلوة فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمنَّ عليك بقلب فإنه لا قلب لك"

*** عن أبي أمامة الباهلي، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَ وَابْنِ الْبَقَرَةِ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُنَّ تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأُمَّهَاتِنِ أَوْ كَأُمَّهَاتِنِ أَوْ كَأُمَّهَاتِنِ فِرْقَانٍ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَتٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ» قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَّغْنِي أَنَّ الْبَطْلَةَ: السَّحْرَةُ^(١)

إلى الباحثين عن الشفاعة اعلّموا أن خير شفيع كلام الله وخير هادٍ كتاب الله وخير شافٍ كتاب الله والمحروم من حرم خيره والضال من حرم نوره.

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٩٧)، رقم ١٩١٠

٩١. ذكر الله تعالى

قال تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: ١٩١]

لقد أمر الله تعالى بالذكر وما أمر عزَّ وجلَّ بالإكثار في شيء من العبادات كما رغب بالذكر والإكثار منه، قال تعالى: (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [الجمعة: ١٠]

ورغب به النبي صلى الله عليه وسلم وبين أنه خير الأعمال وأزكاها عند الله، عن أبي الدرداء قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى» (١)

يقول ابن القيم (٢): "المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحي الدين ومدار السعادة والنجاة، وقد جعل الله لكل شيء سببا وجعل سبب المحبة دوام الذكر. فمن أراد أن ينال محبة الله عزَّ وجلَّ فليلهج بذكره، فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراتها الأقوم، فالذكر يورث القرب منه، فعلى قدر ذكره لله عزَّ وجلَّ يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه". ومن فوائد الذكر:

أولا: الذكر يورث العبد ذكر الله له: قال تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)، ولو لم يكن في الذكر الا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» (٣)

ثانيا: الذاكرون تحفهم الملائكة وتغشاهم الرحمة وتنزل عليهم السكينة ويباهي الله عزَّ وجلَّ بهم الملائكة: عَنِ الْأَعْرَابِيِّ أَبِي مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ أَشْهَدُ عَلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ

(١) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٤٥٩)، رقم ٣٣٧٧، وقال الالباني: صحيح

(٢) ابن القيم، الوابل الصيب من الكلم الطيب، (ص ٦١)

(٣) صحيح البخاري، (ج ٩ / ص ١٢١)، رقم ٧٤٠٥

أَتَمَّهَا شَهِيدًا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَقَعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(١).

وقال لأصحابه الجالسين للذكر: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ»^(٢).

ثالثا: في مجالس الذكر مغفرة الذنوب: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ قَالَ فَيَحْفُوهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي قَالُوا يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُحَمِّدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قَالَ فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِي قَالَ فَيَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ قَالَ فَيَقُولُ وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي قَالَ فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمَجُّدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا قَالَ فَيَقُولُ فَمَا يَسْأَلُونِي قَالَ يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ فَيَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا قَالَ فَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حَرِّصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً قَالَ فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ قَالَ يَقُولُونَ مِنَ النَّارِ قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ فَيَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا قَالَ فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً قَالَ فَيَقُولُ فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ قَالَ يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِيهِمْ فَلَانَ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ قَالَ هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»^(٣).

** عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ إِنِّي لِأَجِبُّكَ فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَنَا أَجِبُّكَ قَالَ: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(٤)

اللهم اجعلنا لك شكارين لك ذكارين لك محبتين أواهين منيبين.

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٧٢)، رقم ٧٠٣٠

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٧٢)، رقم ٧٠٣٢

(٣) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٨٦)، رقم ٦٤٠٨ .

(٤) الادب المفرد: (ج ١ / ص ٢٣٩)، رقم ٦٩٠ وقال الالباني: صحيح

٩٢. إيثار محاب الله على محابك عند غلبات الهوى

قال تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [القصص: ٥٠]

الهوى: ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات والشبهات دون تحكيم الشرع. الناس فريقان لا ثالث لهما: فريق يتبع الحق بدليله من الكتاب والسنة وفريق يتبع الهوى، فإما أن يتبع الرسول ﷺ وإما أن يتبع هواه. قال تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)، فما هو إلا الهوى أو الوحي كما جعل النطق نوعين نطقاً عن الوحي ونطقاً عن الهوى. ونزه الله تعالى نبيه ﷺ عن النطق عن الهوى وأقسم سبحانه بالنجم عند هويته على تنزيه رسوله وبرأته مما نسبته إليه أعداؤه من الضلال والغبي فقال تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ).

ونهى الله تعالى أنبياءه عن اتباع الهوى في تعاملهم مع الناس لأن اتباع الهوى يصد عن الحق والعدل فقال تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) [ص: ٢٦]

وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) [المائدة: ٤٩]

فاتباع الهوى يحمل على الشهادة بغير الحق، وعلى الجور في الحكم وتحريم الحلال وتحليل الحرام والانتصار للنفس والتكبر على الناس ورد الحق وتكذيب الرسل.

قال ابن القيم: "فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل ويعمي بصيرة القلب ويصد عن اتباع الحق ويضل عن الطريق المستقيم فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح والقبيح في صورة الحسن

فألتبس عليه الحقُّ بالباطل فأتى له الانتفاع بالتذكُّر والتفكُّر أو بالعظة^(١)

وقد يصل الإنسان إلى أن يتخذ الهوى لها فيضلل على علم ويختم على سمعه وقلبه ويجعل على بصره غشاوة لقوله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ).

ومن كانت هذه حاله أصبح كالأنعام بل أضلَّ منها لأنَّ الأنعام تؤدِّي واجبها التي خلقت من أجله وتخلَّى الإنسان عن واجبه الذي خلق له، قال تعالى: (أَمْ نَحْسِبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) [الفرقان: ٤٤] فشبَّه أكثر الناس بالأنعام والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانتقياد له.

ومخالفة الهوى وإيثار محابِّ الله على محابِّ نفسك تورث محبة الله، قال ابن رجب: ”ومن الأسباب الجالبة لمحبة الله - عز وجل - معاملة الله بالصدق والإخلاص ومخالفة الهوى، فإن ذلك سبب لفضل الله على عبده وأن يمنحه محبته“^(٢)

فالله تعالى يحبُّ المحسنين ويحبُّ المتقين ويحبُّ الصابرين ويحبُّ التوايين ولا يمكن أن يكون العبد من هؤلاء إلا إذا خالف هواه فالنفس تهوى وتحب الدنيا وعدم الإنفاق والجزع والظلم والانتقام وعدم الصفح، ولا يتم الصبر على الطاعات والصبر عن المحرمات والصبر على أقدار الله إلا بمخالفة الهوى، والجنة مأوى من خالف هواه قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) [النازعات: ٤٠-٤١] فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب تعالى يدعو العبد إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « ثَلَاثٌ مَنْجِيَاتٌ خَشِيَتْهُ اللهُ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ

(١) مدارج السالكين، (ج ٩ / ص ٣٦٠)

(٢) مجموع رسائل ابن رجب، (ج ٣ / ص ٣١٩)

والعدل في الرضا والغضب والقصد في الفقر والغنى وثلاث مهلكات هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه^(١). مهلكات: أي تهلك صاحبها في الدنيا والآخرة. والهوى المتبع أي: يتبعه صاحبه ويقوده إلى كل مهلكة، فهو سبب هلاك أكثر الناس. فليتأمل العاقل ما يفعل الهوى بصاحبه وفي أي واد سحيق يرديه، ويسأل الله تعالى ان يحميه من اتباع الهوى ويمن عليه بمخالفة هواه وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

*** قال تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ).
أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم والعتو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم، كأنه ولي حميم.

جاء في حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله مما قالوا كل حديثي طائفة من الحديث فأنزل الله { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ { العشر الآيات كلها في براءتي فقال أبو بكر الصديق وكان يُنفق على مسطح لقرابته منه والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله { وَلَا يَأْتِلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى { الآية قال أبو بكر بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يُنفق عليه وقال والله لا أنزعها عنه أبداً^(٢)
خالف الصديق هواه فقدم ما يحبه الله تعالى من العفو والصفح على ما تحبه نفسه من المعاقبة والانتقام، لأنه طمع برضا الله تعالى ومغفرته وثوابه، فمن أراد ان يغفر الله تعالى له فليغفر لآخوانه زلاتهم، (هل جزاء الاحسان الا الاحسان)

مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه وتوجب شرف الدين وشرف الآخرة وعز الظاهر وعز الباطن ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في الظاهر والباطن.

(١) الالباني، السلسلة الصحيحة، رقم ١٨٠٢

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ١٣٨)، رقم ٦٦٧٩

٩٢. مطالعة القلب لأسمائه وصفاته

قال تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الحشر: ٢٣-٢٤]

الأسماء والصفات توقيفية، ومعنى توقيفية أنه لا يثبت لله من الأسماء ولا يوصف من الصفات إلا ما أثبتته لنفسه في كتابه، أو أثبتته له رسوله -صلى الله عليه وسلم- في سنته، وليس للناس أن يخترعوا لله أسماء من قبل أنفسهم ولا صفات.

انقسم الناس في أسماء الله وصفاته إلى ثلاث فرق:

الأولى: المجسمة والمشبهة الذين يشبهون الخالق بال مخلوق الذين يجعلون صفات الله -عز وجل- كصفات المخلوق تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، قال نعيم بن حماد وابن خزيمة: من شبه الله بخلقه فقد كفر.

الثانية: المعطلة الذين غلوا في التنزيه حتى نفوا عن الله ما أثبتته من الأسماء والصفات، فراروا من التشبيه بزعمهم. منهم من يعطل الأسماء والصفات، ومنهم من يعطل الصفات دون الأسماء، ومنهم من يعطل بعض الصفات دون بعض.

الثالثة: مذهب أهل السنة والجماعة هو إثبات ما جاء في القرآن العظيم والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بجلال الله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، عملاً بقول الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فنفي عن نفسه المماثلة وأثبت السمع والبصر، فدل ذلك على أن مراده سمع وبصر لا يماثلان أسماء الخلق وأبصارهم^(١)

قال الإمام أحمد: "ولا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه عز وجل لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه. ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا". انتهى

(١) السعدي، التنبهات اللطيفة، (ج ١ / ص ١٢)

وعقد هذا: أن يشهد قلبك الربّ تبارك وتعالى مستويا على عرشه متكلمًا بأمره ونهيه بصيرا بحركات العالم علويه وسفليه وأشخاصه وذواته سميعا لأصواتهم رقيبا على ضمائرهم وأسرارهم وأمر الممالك تحت تدبيره نازل من عنده وصاعد إليه... وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك موصوفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال منزها عن العيوب والنقائص والمثال هو كما وصف نفسه في كتابه وفوق ما يصفه به خلقه حيّ لا يموت قيوم لا ينام عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض بصير يرى ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء سميع يسمع ضجيج الاصوات باختلاف اللغات على تفنّن الحاجات تمت كلماته صدقا وعدلا وجلّت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبها ومثلا وتعالّت ذاته أن تشبه شيئا من الذوات أصلا ووسعت الخليقة أفعاله عدلا وحكمة ورحمة وإحسانا وفضلا له الخلق والامر وله النعمة والفضل وله الملك والحمد وله الثناء والمجد أسماؤه كلّها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد ولذلك كانت حسنى وصفاته كلّها صفات كمال ونعوته كلّها نعوت جلال وأفعاله كلّها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل تعرّف إلى عبادته بأنواع التعريفات وصرّف لهم الآيات ونوع لهم الدلالات ودعاهم إلى محبّته من جميع الابواب... أفاض عليهم النعمة وكتب على نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذي كتبه: إن رحمته تغلب غضبه^(١)

ومن كان له نصيب من معرفة أسماؤه الحسنى واستقرأ آثارها في الخلق والأمر، رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل انتظام، ورأى سريان آثارها فيهما وعلم - بحسب معرفته بها ما يليق بكماله وجلاله أن يفعل ما لا يليق، فاستدل بأسماؤه على ما يفعل وما لا يفعل فإنه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته، وكذلك يعلم ما يليق به أن يأمر به ويشرع مما لا يليق به، فيعلم أنه لا يأمر بخلاف موجب حمده وحكمته. فإذا رأى بعض الأحكام جوراً وظلماً أو سفهاً وعبثاً ومفسدة أو ما لا يوجب حمداً وثناءً فيعلم أنه ليس من أحكامه ولا دينه، وأنه بريء منه ورسوله، فإنه إنما أمر بالعدل لا بالظلم وبالمصلحة لا بالمفسدة وبالحكمة لا بالعبث والسفه، وإنما بعث

(١) ينظر، مدارج السالكين، (ج ١/ ص ١٢٤)

رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدّة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإنه أرحم الراحمين، ورسوله رحمة مهداة إلى العالمين، ودينه كله رحمة، وهو نبي الرحمة وأمة الأمة المرحومة وذلك كله موجب أسماؤه الحسنی وصفاته العلیا وأفعاله الحميدة، فلا يخبر عنه إلا بحمده ولا يثنى عليه إلا بأحسن الثناء كما لا يسمى إلا بأحسن الأسماء^(١)

*** عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ»^(٢)

فلا يحصى أحد من خلقه ثناءً عليه البتة، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فأعرف خلقه به وأحبهم له ﷺ يقول: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، ولو شهد بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة إلا من آثار صفات كماله فإنهم لم يروه في هذه الدار، وإنما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه، فاستدلوا بما علموه على ما غاب، فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه وتعالى لكان لهم في حبه شأن آخر، وإنما تفاوتت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به. فأعرفهم بالله أشدهم حباً له، ولهذا كانت رسله أعظم الناس حباً له من غيره والخليلان من بينهم أعظمهم حباً، وأعرف الأمة به أشدهم له حباً، ولهذا كان المنكرون لحبه من أجهل الخلق به، فإنهم منكرون لحقيقة إلهيته ولخلة الخليلين صلى الله عليهم وسلم ولفطرة الله التي فطر الله عباده عليها، ولو رجعوا إلى قلوبهم لوجدوا حبه فيها^(٣)

اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله، وإليك يرجع الامر كله، اسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله.

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص: ١٣٠)

(٢) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ٥١)، رقم ١١١٨

(٣) طريق المهجرتين وباب السعادتین، (ص: ٣١٨)

٩٤. مشاهدة بره وإحسانه وآلئه ونعمه الباطنة والظاهرة

قال تعالى: (وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [ابراهيم: ٣٤]

لقد دعاه الله تعالى عباده الى الاعتراف بنعمه الظاهرة والباطنة ومشاهدة بره واحسانه فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

وذكر الله تعالى بنعمه على عباده في كثير من الآيات في القرآن وأنزل سورة النحل التي تسمى سورة النعم لكثرة ما جاء فيها من نعم الله على عباده وقال في آخر الآيات التي عدد فيها نعمه: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) [النحل: ١٨] (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى) [النجم: ٥٥]، بأيّ نعمة ربك التي تدل على وحدانيته تكذب انها ليست منه، (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) [الرحمن]

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ عَلَى أَصْحَابِهِ حَتَّى فَرَغَ قَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ سُكُوتًا لِلْجَنِّ كَأَنَّا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدًّا، مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَرَّةٍ (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)، إِلَّا قَالُوا: وَلَا بَشَيْءٍ مِنْ نِعْمَتِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»^(١)

وعندما ذكر سبحانه وتعالى كثيرا من النعم ختمها بقوله عز وجل: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الرعد: ٣] ليتفكروا وينقادوا للحق، وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل: ١٠-١١] هذا التفكر يورث العبد أمرين يؤديان إلى محبة الله تعالى:

(١) المستدرك على الصحيحين، (ج ٣ / ص ٣٤٨)، رقم ٣٧٦٦، صحيح على شرط الشيخين

- معرفة صفات البرّ والإحسان التي وصف الله بها نفسه وسمّى بها ذاته وشهود القلب لها مثل البرّ الرّحيم الجواد الكريم الودود المحسن الرفيق بعباده اللطيف الحليم الذي لم يعاجل عباده بالعقوبة ومطالعة اقترانها مع بعضها فالبرّ لوحده صفة كمال فإذا اقترن بالرحمة كان كمالاً آخر، واقتران الغفور بالودود والغفور بالرحيم كمال آخر. فشهود القلب لهذه الأسماء يورث العبد حبّاً لربّه فمن كانت هذه صفاته لا بدّ أن يُحمد ويُحبّ. — معرفة النعم والآلاء وهذا مشهود للخليقة برّها وفاجرها مؤمنها وكافرها، من جزيل مواهبه وسعة عطاياه وكريم أياديهِ وجميل صنائعه وحسن معاملته لعباده وسعة رحمته لهم وبرّه ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضطّرين وكشف كربات المكروبين وإغاثة الملهوفين ورحمته للعالمين وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق، بمجرد فضله وكرمه وإحسانه ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها وصرّفها بعد وقوعها، وهدايته خاصته وعباده إلى سبل دار السلام، وحبّ إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وسأهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكروه وأعطاهم قبل أن يسألوه وتحبّب إليهم بنعمة مع غناه عنهم وتبغضهم إليه بالمعاصي وفقرهم إليه، فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف وقال تعالى: (يا أيّها النّاس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) [فاطر: ٣]، (يا أيّها الإنسان ما غرّك برّبك الكريم . الذي خلقك فسوّك فعدّلك. في أيّ صورة ما شاء ركبك) [الإنفطار: ٦-٨]، فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودّد والتحنّن واللفظ والنصيحة البالغة^(١)

قال وهب: "عبد الله عابداً حمسين سنة فأوحى الله إليه أنّي قد غفرت لك قال: أي ربّ، وما تغفر لي ولم أذنب. فأذن الله لعزقي في عنقه فصرّب عليه فلم ينم ولم يصل، ثمّ

(١) ينظر، طريق المهجرتين و باب السعادتين، (ص ٢١٨)

سَكَنَ فَنَامَ، فَاتَاهُ الْمَلِكُ فَشَكَّى إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا لَقِيتَ مِنْ ضَرْبَانِ الْعِرْقِ. فَقَالَ الْمَلِكُ: إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: عِبَادَتُكَ خَمْسِينَ سَنَةً تَعْدِلُ سُكُونَ هَذَا الْعِرْقِ" (١)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَحِبُّوا اللَّهَ مَا يَعْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمِهِ، وَأَحِبُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي حُبِّي) (٢)

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ لَيْلَةٍ - فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بَيْوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟ » قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: « وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، فُؤُومَا، » فَقَامُوا مَعَهُ، فَاتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « أَيْنَ فُلَانٌ؟ » قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعِذُّ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدُ الْيَوْمِ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِدْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدِّيَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِيَّاكَ، وَالْحُلُوبَ، » فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمُ مِنْ بَيْوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ » (٣)

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنَا حُبَّكَ؛ اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَهْلِينَا وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ.

(١) حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، (ج ٤ / ص ٦٨)

(٢) المستدرک علی الصحیحین، (ج ٣ / ص ١٦٢)، رقم ٤٧١٦، قال الذهبي في التلخيص: صحیح

(٣) صحیح مسلم، (ج ٦ / ص ١١٦)، رقم ٥٤٣٤

٩٥. انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى

قال تعالى: (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ. الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [الحج: ٣٤-٣٥]

الله تبارك وتعالى يحب من عباده الاعتراف والانكسار بين يديه والخضوع والذلة له والعزم على مرضاته، فانكسار القلوب بين يدي الله سبحانه وتعالى يستجلب البشرى بالعمو والمغفرة والرحمة، قال سبحانه وتعالى: (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)، الذين تخشع قلوبهم لذكر الله وتخضع من خشيته وَجَلًّا من عقابه وخوفاً من سخطه. وانكسار القلوب بثلاثة أشياء: أولاً: مطالعة القلب لأسماء الله الحسنى التي تدلّ على الكبرياء والعظمة ومشاهدة ضعف العبد وفقره وعجزه (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الجاثية: ٣٧] (يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: ١٥] فهو المتّصف بصفات الجلال والكبرياء والعظمة وقوة البطش والملك والسلطان والعقاب والانتقام والقهر فهو القاهر فوق عباده فكلّ واحد يقهر إلا الله تعالى هو الواحد القهار وهو المهيمن العزيز الجبار المتكبر، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ آيَةَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)، قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ أَنَا الْجَبَّارُ أَنَا الْمُتَكَبِّرُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمُتَعَالِي يَمَجِّدُ نَفْسَهُ قَالَ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّهَا حَتَّى رَجَفَ بِهِ الْمِنْبَرُ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيَخْرُ بِهِ» (١)

فشهود قلب المؤمن لكبرياء الخالق وعظمته وجبروته يجعله دائم الذلة والانكسار والافتقار والاستغفار إلى ربه، ويتضرع إليه حتى يجبر كسره ويغفر ذنبه فهو سبحانه أهل أن يُخشى ويهاب ويُجَلَّ ويُعظَّم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه، لما يستحقّه من الإجلال والإكرام والحمد والثناء.

(١) المسند، (ج ٩ / ص ٤٣٢)، رقم ٥٦٠٨ وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح على شرط مسلم

ثانيا: عدم الاغترار بالعمل: فمهما عمل الإنسان من الأعمال الصالحة فلا يعجب بعمل لأنه قد لا يقبل، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ وَهْبِ الْهَمْدَانِيِّ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرِبُونَ الْحَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيَصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (١)

ويبقى الإنسان مع عمله خائفا من سوء الخاتمة قال صلى الله عليه وسلم: «فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا» (٢). فليعمل وليرج رحمة الله ومغفرته وبذلك أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ ». قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ » (٣)

ثالثا: معرفة الذنوب وعدم نسيانها: فالمؤمن ينظر إلى ما سلف منه من الإساءة ويعلم أنه على خطر عظيم فيها وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذه صاحب الحق بموجب حقه وقد ذم الله تعالى في كتابه من نسي ما تقدم يداه فقال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ) [الكهف: ٥٧]، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَىٰ أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا » (٤)

(١) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٣٢٧)، رقم ٣١٧٥، وقال الألباني: صحيح

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ٤٤)، رقم ٦٨٩٣

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٤٠)، رقم ٧٢٩٢

(٤) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٦٧)، رقم ٦٣٠٨

فلا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر إلى من عصيت وكلما كبر الذنب في نظر العبد صغر عند الله، فإذا استعظم العبد ذنبه انكسر وذلل وأطرق بين يدي الله عز وجل خاشعا ذليلا خائفا وكان أقرب للمغفرة وهذه طريق العبودية.

*** قال تعالى: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) [النمل: ٦٢]

اعلم إن الله تعالى يستجيب دعوة المضطر وإن كان كافرا وسبب ذلك شدة الافتقار إلى الله وقوة الانكسار بين يديه وانقطاع تعلقه بالمخلوقين. قَالَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ: أَيُّ رَبِّ، أَيَّنَ أَبْغَيْكَ؟ قَالَ: ابْغِي عِنْدَ الْمُتَكَبِّرَةِ قُلُوبَهُمْ؛ إِنِّي أَدْنُو مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ بَاعًا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَنْهَدْمُوهُ^(١) ولذلك استجيب للثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أسوا من الخلق ولجؤوا إلى الخالق فقال الله تعالى: (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [التوبة: ١١٨]

"إذا رمت الدخول مع الأحباب فادخل من باب الذل والانكسار وقل بلسان التضرع يا أيها العزيز الغفار مسنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة عمل مدخول وقلب معلول فأوف لنا ما أملناه من الجزاء المأمول، وتفضل علينا بالقبول والوصول، هؤلاء إخوة يوسف لما أظهروا فاقتهم، واستقلوا بضاعتهم، وأحضروا شكايتهم، سمح لهم وقربهم، وكشف لهم عن وجهه الجميل، ومنحهم العطاء الجزيل، فما ظنك بالرب العظيم الجليل، الذي هو أرحم الراحمين، ومحل أمل القاصدين"^(٢) ونحن نقول يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فتفضل علينا وأنت ذو الفضل العظيم.

(١) احمد بن حنبل، الزهد، (ج ١ / ص ١٦٤)

(٢) الفاسي، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، (ج ٣ / ص ٤٢٠)

٩٦. الخلوة بين يديه في الثلث الأخير من الليل

قال تعالى: (وَأذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا)

[الانسان: ٢٥-٢٦]

من الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى الخلوة بين يدي الله في الثلث الأخير من الليل، ولقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقيام الليل وتلاوة القرآن قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) [المزمل: ١-٤]، ورغب سبحانه وتعالى عباده بالمشول بين يديه في ثلث الليل الأخير لمناجاة وتلاوة كلامه، والتأدب بأدب العبودية، ووعدهم بأحسن الجزاء عليه وذلك بالمغفرة والعطاء واستجابة الدعاء، عن أبي هريرة قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»^(١)

ذكر التنوخي: "أن أحد الوزراء في بغداد -وقد سمّاه- اعتدى على أموال امرأه عجوزٍ هناك، فسلبها حقوقها وصادر أملاكها، ذهبت إليه تبكي وتشتكي من ظلمه وجوره فلم يرتدع، قالت: لأدعون الله عليك، فأخذ يضحك منها باستهزاء، وقال: عليك بالثلث الأخير من الليل، استهزاء بها، فذهبت وداومت على الثلث الأخير، فما هو إلا وقتٌ قصيرٌ إذ عَزَل هذا الوزيرٌ وسُلبت أمواله وأخذ عقاره، ثم أُقيم في السوق يُجلدُ تعزيراً له على أفعاله بالناس، فمرّت به العجوزُ، فقالت له: أحسنت! لقد وصفت لي الثلث الأخير من الليل، فوجدته أحسن ما يكون"^(٢)

أهل قيام الليل هم الطائفة الذين تشبهوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من صحابته رضي الله عنهم ومن قام الليل مثلهم كان من المتبعين لهم في الدنيا ويحشر معهم في الآخرة إن شاء

(١) صحيح مسلم، (ج ٢ / ص ١٧٦)، رقم ١٨١٠

(٢) الربيعي، من عجائب الدعاء، (ج ١ / ص ٧٦)

الله، (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ) [المزمل: ٢٠]، فكن من هذه الطائفة لتحصل على حبِّ الله وتفز بالرحمة ومغفرة الذنوب. وقيام الليل من صفات المحسنين الذين يحبهم الله تعالى وهم أهل الجنة (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)، كانوا يصلون بالليل ثم يستغفرون بالسحر وهو السدس الأخير من الليل فكان جزاؤهم من الله قوله تعالى: (ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

وأهل قيام الليل من الذين يحبهم الله تعالى ويضحك إليهم ويستبشر بهم، عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله عز وجل، ويضحك إليهم، ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئته؛ قاتل وراها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يقتل، وإما أن ينصره الله ويكفيه، فيقول الله: انظروا إلى عبدي كيف صبر لي نفسه؟!

وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسَنَاءٌ، وَفِرَاشٌ لَيْسَ حَسَنٌ، فيقوم من الليل، فيدُرُّ شَهْوَتَهُ، فيذكرني ويُناجيني ولو شاء لرقدا! وَالَّذِي يَكُونُ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ، فَسَهَرُوا وَنَصَبُوا، ثُمَّ هَجَعُوا فَقَامَ فِي السَّحَرِ فِي سَرَّاءٍ أَوْ صَرَّاءٍ»^(١)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ - {وذكر منهم} - رَجُلٌ تَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَحَافِهِ مِنْ بَيْنِ حَبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ - (وعند الطبراني: رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي) - فيقول الله - تعالى - لِمَلَايِكَتِهِ: يَا مَلَايِكَتِي انظروا إلى عبدي وشفقته مما عندي»^(٢).

يا غافلا عن مصيره، يا واقفا مع تقصيره، سبقك أهل العزائم، وأنت في بحر الغفلة عائم، قف على الباب وقوف نادم، ونكس رأس الذل وقل: أنا ظالم، وناد في الأسحار:

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد، رقم ٣٥٣٦، قال الالباني: صحيح، السلسلة الصحيحة، رقم ٣٤٧٨
(٢) صحيح ابن حبان، (ج ٦ / ص ٢٩٨)، رقم ٢٥٥٨، وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح، الطبراني، المعجم الكبير، (ج ١٠ / ص ١٧٩)، رقم ١٠٣٨٣

انا مذنب وانت راحم، وتشبهه بالقوم وإن لم تكن منهم وزاحم، وابعث بريح الزفرات سحاب دمع ساجم، وقم في الدجى نادبا، وقف على الباب تائبا، واستدرك من العمر ذاهبه، ودع اللهو جانبا، وطلّق الدنيا إن كنت للآخرة طالبا، يا نائما طوال الليل سارت الرفقة، ورحل القوم كلهم، وما انتبهت من الرقدة^(١)

*** عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قِيَمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(٢)

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: "لو قام المذنبون في هذه الأسحار على أقدام الانكسار، ورفعوا قصص الاعتذار مضمونها (يا أيها العزيز مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِيضَاعَةَ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) لبرز لهم التوقيع عليها: (قال لا تَشْرِبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)"^(٣)

قال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في جماعة. وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد إني أبيت معافي وأحب قيام الليل وأتخذ طهوري فما بالي لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيدتك يا ابن أخي.

اللهم اجعلنا من القائمين في الليل المستغفرين بالأسحار بفضلك يا كريم وتفضل علينا بالمغفرة إنك أنت الغفور الرحيم وأنت الغني الحميد ونحن عبيدك الفقراء إليك.

(١) ابن الجوزي، بحر الدموع، (ص: ٨٠)

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٧٠) رقم ٦٣١٧

(٣) ابن رجب الحنبلي، لطائف المعارف، (ج ١ / ص ٢٠٥)

٩٧. مجالسة المحبين الصادقين

قال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) [الكهف: ٢٨]

لقد دعا الله تعالى نبيه ﷺ لمجالسة المخلصين المحبين لله تعالى ورسوله، يقول تعالى ذكره لنبه محمد صلى الله عليه وسلم (وَاصْبِرْ) يا محمد (نَفْسَكَ مَعَ) أصحابك (الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) بذكرهم إياه بالتسبيح والتحميد والتهليل والدعاء والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة وغيرها (يُرِيدُونَ) بفعلهم ذلك (وَجْهَهُ) لا يريدون عرضا من عرض الدنيا. وأمره بلزوم ذلك وعدم تجاوزه فقال تعالى: (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ)، أي ولا تصرف عينك عن هؤلاء الذين أمرتك يا محمد أن تصبر نفسك معهم إلى غيرهم من الكفار، ولا تجاوزهم إليه.

وهذا والله من أصعب الأشياء على النفوس إلا من يسره الله له، فالنفوس تميل لأهل الدنيا من الأشراف وأصحاب الأموال والمناصب والمقامات وأصحاب اللهو والمجون. والشيطان يدعوك لهؤلاء ومرافقتهم لأن فيهم الهلاك وفي مرافقة المحبين النجاة، عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: « إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَمَثَلِ الْمُسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ فَحَامِلُ الْمُسْكِ إِمَّا أَنْ يُجْدِيكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُجْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(١).

قال النووي: "وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة"^(٢)

(١) صحيح البخاري، (ج ٧/ص ٩٦)، رقم ٥٥٣٤، صحيح مسلم، (ج ٨/ص ٣٧)، رقم ٦٨٦٠

(٢) شرح النووي على مسلم، (ج ١٦/ص ١٧٨)

والمعاصي تهلك من قاربها وخالطها وأصر عليها وكذلك مخالطة أهل المعاصي ومن يحسن المعصية ويزينها ويدعو إليها من شياطين الأنس وهم أضر من شياطين الجن قال بعض السلف: شيطان الجن نستعيد بالله منه فينصرف وشيطان الأنس لا يبرح حتى يوقعك في المعصية. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا »^(١)

قال علي رضي الله عنه:

فلا تصحب أبا الجهم... ل وإياك وإياه

فكم من جاهل أردى ... حكيما حين آخاه

فلذلك يعرض المرط في مجالسة الصادقين واستبدالهم بالطالحين يديه ندما على ما فرط منه، (وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) [الفرقان ٢٧-٢٩]، ويوم القيامة تنقلب الصحبة الباطلة في الدنيا إلى عداوة يوم القيامة (الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) [الزخرف: ٦٧]، وحث النبي صلى الله عليه وسلم على مصاحبة أهل الدين لأن أصحابهم يستفيد من أخلاقهم وبركتهم وحسن معاشرتهم ويأمن شرهم ولذلك رغب بالزواج من صاحبة الدين في حديث أبي هريرة قال صلى الله عليه وسلم: « تُنكحُ المرأةُ لأربعٍ لمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَاهِهَا وَلِدِينِهَا فَأَظْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ »^(٢)، لأنها تصاحب الزوج طول حياته.

وجاء في السير أن حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى؟ فقال: والله لقد أنكحته إياها وإني لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن ينظر إلى

(١) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٤٠٧)، رقم ٤٨٣٤، وقال الالباني: حسن

(٢) صحيح مسلم، (ج ٤ / ص ١٧٥)، رقم ٣٧٠٨

رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم.

وقد كان آل بيت النبي وصحابته من أحرص الناس على مصاحبة الأخيار من أهل العلم والدين المحبين لله ورسوله.

كان علي بن الحسين يجلس إلى زيد بن أسلم ويتخطى مجالس قومه فقال له نافع بن جبير بن مطعم تخطى مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب فقال إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه، وفي رواية: أنت سيد الناس وأفضلهم تذهب إلى هذا العبد فتجلس معه؟ يعني زيدا بن أسلم. فقال: إنه ينبغي للعلم أن يتبع حيثما كان^(١)

*** عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يَجَالِسُ»^(٢) يقول ابن القيم: "من أسباب محبة الله: «مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطيب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطيب الثمر ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدا لحالك ومنفعة لغيرك»"^(٣)

وقال عبد الله الأنطاكي، رضي الله تعالى عنه: دواء القلب خمسة أشياء، مجالسة الصالحين، وقراءة القرآن، وإخلاء البطن من الحرام، وقيام الليل، والتضرع عند الصباح.

وقال بعض العلماء: لا تصحب إلا أحد رجلين رجلا تتعلم منه شيئا في أمر دينك فينفعك أو رجلا تعلمه شيئا في أمر دينه فيقبل منك والثالث فاهرب منه. فالوحدة خير من مجالسة أهل الشر قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمنٌ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله» قالوا: ثم من؟ قال: «مؤمنٌ في شعبٍ من الشُعابِ يتقي الله، ويدع الناس من شره»^(٤) فأهل الخير لا يشقى بهم جلسهم في الدنيا والآخرة، وأهل الشر شؤم على من جالسهم في الدنيا والآخرة.

(١) البخاري، التاريخ الكبير، (ج ٣ / ص ٣٨٧)، ابن الجوزي، صفة الصفوة، (ج ٢ / ص ٩٨)

(٢) سنن أبي داود، (ج ٤ / ص ٤٠٧)، رقم ٤٨٣٥، وقال الالباني حسن.

(٣) مدارج السالكين، (ج ٣ / ص ١٧)

(٤) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٥)، رقم ٢٧٨٦

٩٨. مباحدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل

قال تعالى: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ. مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ. لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ) [الأنبياء: ١-٣]

لقد ذمَّ الله تعالى القلوب اللاهية الغافلة المعرضة عن ذكر الله وسماع الحق، هذه القلوب تسمع الحق ولا تشهدده فهي لاعبة مصغية إلى غيره من اللهو والعبث، وبقدر لهو القلوب وإعراضها عن الحق يكون البعد عن الله سبحانه وتعالى وبقدر حبها لغيره تبتعد عن حب الله والأنس به. فلا بد من مباحدة كل الأسباب التي تحول بين القلب وبين حب الله تعالى حتى تفوز بحبه عز وجل فالقلب مثل الإناء إذا امتلأ بشيء لا يتسع لغيره. ومن الأسباب التي تحول بين القلب وبين حب الله تعالى:

— الكبر والاعجاب بالنفس: فأبعد القلوب عن حب الله تعالى القلوب المتكبرة المعجبة بما عندها من العلم أو العمل أو الشهادة أو المنصب أو الجاه أو السلطان أو القوة، وأقرب القلوب إلى محبة الله تعالى القلوب الفقيرة إليه المستشعرة ذل نفسها بين يدي الله سبحانه وتعالى، فالكبر والعجب داء ان مهلكان فإنهما يورثان الغرور والحسد والغل على المسلمين. والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان وهما عند الله ممقوتان بغيطان، (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) [النحل: ٢٧]، فالتكبرون في صدورهم حب التعظيم (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ) [غافر: ٥٦]

دواء الكبر التواضع ودواء العجب شهود منة الله تعالى على العبد في كل نعمة صغيرة أو كبيرة، فله النعمة وله المنّة وله الفضل، قال تعالى: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَاتَمْتُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [الحجرات: ١٧]. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لله عند النصر في الوقت الذي يتكبر فيه المتكبرون يقول ابن كثير عند كلامه عن فتح مكة: ”وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أن عشونه ليكاد يمسّ
واسطة الرحل“^(١) {العشون: طرف اللحية}

وكذلك الصحابة كانوا من أحرص الناس على ذلّ أنفسهم لله والتواضع له.

— حبّ الدنيا من الأسباب الشاغلة للقلب عن حبّ الله: قال تعالى: (رُزِينَ لِلنَّاسِ
حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) [آل عمران: ١٤]

وحب الدنيا شاغل للإنسان عن كثير من العبادات كالصلاة والحج والعمرة والجهاد
قال تعالى: (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)
[الفتح: ١١]

فبقدر ما أنس العبد بالدنيا فينقص أنسه بالله ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص
بقدره من الآخرة. فإزالة هذه الشواغل من القلوب من أسباب محبة الله للعبد.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتَهُ أَحْبَبَنِي اللَّهُ، وَأَحْبَبَنِي النَّاسُ، فَقَالَ: «أَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا
يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَأَزْهَدْ فِيهَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»^(٢)

يقول الغزالي: "وإنما الشاغل على التحقيق حبّ الدنيا إذ لا يجتمع معه حبّ الله تعالى
في القلب والمحبة للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله والدنيا معشوقة
الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها"^(٣).

— من الأسباب الشاغلة للقلب مضيّعات الوقت من الملهيات:

لا بدّ أن يعلم كلّ مسلم أنّ الوقت نعمة وأنّ رأسه في هذه الدنيا وقته ولا بدّ أن

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج ٤ / ص ٢٩٣)

(٢) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٣٧٣)، رقم ٤١٠٢، قال الالباني: صحيح

(٣) إحياء علوم الدين، (ج ٤ / ص ٢٠٢)

يصل في هذا الوقت إلى رضا الله والجنة، ويجب أن يكون العبد شحيحا بوقته حريصا عليه أشد من حرص أصحاب الأموال على أموالهم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاعُ »^(١) فإذا أراد الله بالعبد خيرا أعانه بالوقت وجعل وقته مساعدا له وإذا أراد به شرا جعل وقته عليه وناكده وقته فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت قال تعالى: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) [الشرح: ٧-٨] فإذا فرغت من أمر دنياك، فانصب في عبادة ربك، وتضرع إليه راغبا في الجنة راها من النار.

ومن مضيّعات الوقت مجالس السوء والسمير ليلا والتلفزيون والانترنت والمقاهي وأماكن اللهو والألعاب والذهاب إلى الأسواق لغير حاجة، فتجد الكثير من الناس يضيعون الساعات الطوال في هذه المضيّعات ولا يجلسون ساعة بين يدي الله يناجون بها ربهم. وشرّ الناس من هو لا في عمل دنيا يعفّ به نفسه ويكفّه عن المسألة ولا في عمل آخرة يقربه من ربه، تجده يضيع وقته ويضيع الواجبات التي فيه من الصلوات والأذكار وعبادة المرضى وصلة الأرحام ويضيع مصالحه الدنيوية من المباحات أيضا. ومن علامة الحريص على وقته أنه مستأنس بربه مستوحش ممن يقطعه عن طاعته.

يقول الخطيب البغدادي: "فلينظر امرؤ لنفسه وليغتنم وقته فإنّ الثواء قليل والرحيل قريب والطريق مخوف والاعتزاز غالب والخطر عظيم والناقد بصير والله تعالى بالمرصاد وإليه المرجع والمعاد فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره"^(٢)

*** قال تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) [المؤمنون ٩٩-١٠٠]

الذين فسدت قلوبهم وضيعوا اوقاتهم باللهو والعبث، هذه حالهم عند الموت يطلبون

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٨٨)، رقم ٦٤١٢

(٢) الخطيب البغدادي، اقتضاء العلم بالعمل، (ج ١ / ص ٥)

الرجعة ولا ينالونها، اما حالهم في جهنم فقال تعالى: (وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) [فاطر: ٣٧] عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل (اولم نعمركم ما يتذكر فيه من يتذكر) قال: ستين سنة^(١)

الله سبحانه وتعالى اقام الحجة على عباده ولم يترك لهم عذرا بعد امهالهم سنين طويلة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَعْدَرَ اللَّهُ إِلَىٰ امْرِئٍ آخَرَ أَجَلَهُ، حَتَّىٰ بَلَغَهُ سِتِينَ سَنَةً»^(٢) [اعذر الله من الاعذار: وهو إزالة العذر، والمعنى: لم يبق له اعتذار كأن يقول: لو مد لي في الأجل لأطعت وعبدت]

فله الحجة البالغة ولا عذر لعبد امام الله تعالى يوم القيامة فكل الحجج مردودة لا ينفع الا استغلال الأوقات والمسارة فيها الى الخيرات التي هي سبب لدخول الجنات. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعْطُهُ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»^(٣)

أي أسرع واشغل وقت شبابك بالعمل قبل الهرم الذي تضعف فيه قواك واعمل في حياتك قبل أن ينقطع العمل بالموت واستغل الصحة في طاعة الله لأن الإنسان قد يتعرض لمرض يمنعه من العمل وكذلك استغلال وقت الفراغ فيما يرضي الله تعالى قبل أن يشغل الإنسان وكذلك وقت الغنى اشغله بالعتاء والصدقات فربما يذهب المال وتصبح فقيرا وتندم على تفريطك فيه، فهذه الخمسة لا يُعرف قدرها إلا بعد زوالها.

(١) المستدرک علی الصحیحین، (ج ٢ / ص ٤٦٣)، رقم ٣٥٩٦، تعليق الذهبي: صحيح

(٢) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٨٩)، رقم ٦٤١٩

(٣) المستدرک علی الصحیحین، (ج ٤ / ص ٣٤١)، رقم ٧٨٤٦، وقال الالباني: صحيح

٩٩. أخوة الاسلام ومحبة المسلمين سبب لمحبة الله

قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[الحجرات: ١٠]

أخوة الإيمان نعمة من الله تعالى على المؤمنين تتوحد بها قلوبهم وتمحى بها آثار العصبية بكل أشكائها بين المسلمين قال تعالى: (وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) [آل عمران: ١٠٣]

وهي أمر نبوي لكل مسلم فعن أنس بن مالك: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَجُلُ الْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ»^(١)

فتوحيد الله ومحبته لا تتم إلا بمحبة من يحبه وبغض من يبغضه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَوْتِقْ عُرَى الْإِيمَانِ الْمُوَالَاةُ فِي اللَّهِ وَالْمُعَادَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢). ومن علامات الأخوة بين المسلمين:

- السعي في سبيل اصلاح ذات البين، ورأب الصدع، وجمع الكلمة بين المسلمين والايتمونوا في ذلك، لأنها لو تركت فان شرها سينتشر على الجميع قال تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) [الأنفال: ١] عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صِلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ»^(٣)

- محبة المسلم وزيارته التي هي سبب لمحبة الله تعالى فعن معاذ بن جبل، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ

(١) صحيح البخاري، (ج ٨ / ص ٢١)، رقم ٦٠٧٦

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته، (ج ١ / ص ٤٩٧)، رقم ٢٥٣٩، صحيح

(٣) سنن الترمذي، (ج ٤ / ص ٢٤٤)، رقم ٢٥٠٩، وقال الالباني: صحيح

فِي وَالمُتَرَاوِرِينَ فِي وَالمُتَبَادِلِينَ فِي»^(١)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ رَجُلًا زَارَ أَخَاهُ لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخَا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهُ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ»^(٢).

- ومن علاماتها: تنظيف القلوب من الغش للمسلمين والغل عليهم فلا يجتمع الحب للمسلمين والغل عليهم في قلب واحد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَحْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ» قَالُوا: صَدُوقِ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَحْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِيْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيِي، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدًا»^(٣)

وهذا سبب مهم لدخول الجنة كما جاء في حديث أنس بن مالك قَالَ كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطَفُحُ حَيْثُ مِنْ وَضُوءِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشَّمَالِ - ثلاثة أيام يطلع نفس الرجل، تبعه عمرو بن العاص وبات عنده ثلاث ليالٍ - فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ قَالَ عَبْدُ اللهِ غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا. - فأخبره بنخبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه وسأله: فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ قَالَ فَلَمَّا وَكَيْتُ دَعَانِي فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لَا تُطِيقُ^(٤)

(١) المسند، (ج ٥ / ص ٢٣٣)، رقم ٢٢٠٨٣، تعليق شعيب الارناؤوط : حديث صحيح

(٢) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٢)، رقم ٦٧١٤، شرح النووي على مسلم، (ج ١٦ / ص ١٢٤)

(٣) سنن ابن ماجه، (ج ٢ / ص ١٤٠٩)، رقم ٤٢١٦، وقال الالباني: صحيح

(٤) المسند، (ج ٣ / ص ١٦٦)، رقم ١٢٧٢٠، شعيب الأرناؤوط: اسناده صحيح على شرط الشيخين

— ومن علاماتها مواسة الإخوان وقضاء حوائجهم وإعانتهم بالمال والجاه والخدمة والنصيحة والارشاد والدعاء والاستغفار، فالاصل في الأخوة ان يذهب الأخ عن اخيه البؤس بكل انواعه ويبعث في نفسه الطمأنينة والأنس بالود والقرب والاغاثة والعطاء ويطرد عن قلبه اليأس والقنوط ويبعث فيه الأمل والسرور كما قال يوسف لأخيه (إني أنا أخوك، فَلَا تَبْتَسِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وهي علامة على حبّ الله تعالى، عَنِ ابْنِ عُمرَ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأنَّ أَمْشِيَّ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ»^(١)

قال عبدالله بن عثمان المروزي: "ما سألني أحد حاجة الا قمت له بنفسي فان تم والا

قمت له بهالي، فان تم والا استعنت بالأخوان، فان تم والا استعنت بالسلطان"^(٢)

- ومن المواسة زيارة المريض واطعام الجائع وسقاية العطشان، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضٌ فَلَمْ تَعُدَّهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعَمْنِي. قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ

(١) الطبراني، المعجم الكبير، (ج ١٢ / ص ٤٥٣)، رقم ١٣٦٤٦، وقال الالباني: حسن، السلسلة

الصحيحة مختصرة، (ج ٢ / ص ٥٦٤)، رقم ٩٠٦

(٢) ابن عبد الهادي، مراقي الجنان بالسحاء وقضاء حوائج الاخوان، (ج ١ / ص ٢٧٥)

تُطْعِمُهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي .
 قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانَ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ
 سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»^(١)، قال في عيادة المريض «لوجدتني عنده» وقال في الإطعام،
 والإسقاء «لوجدت ذلك عندي» ففرق بينهما، فإن المريض مكسور القلب ولو كان من
 كان، فلا بد أن يكسره المرض فإذا كان مؤمنا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

*** قال تعالى: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)

[الحجر: ٤٧]

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ
 أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ »^(٢)، شعار الحب وكمال الايمان أن تحب
 للمسلمين ما تحب لنفسك من الخير وتكره لهم ما تكره لها من الشر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:
 أَيُّنَ الْمُتَحَابِّينَ بِيَجَلَالِي، الْيَوْمَ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي »^(٣)

أي: أدخلهم في ظل حمايتي، وأريحهم من حرارة الموقف راحة من استظل أو أظلمهم
 في ظل عرشي، فتدبر سعة رحمة الله للمتحابين تعظيما له خالصا لوجهه.

« اللَّهُمَّ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا، وَاهْدِنَا سُبُلَ السَّلَامِ، وَنَجِّنَا مِنَ الظُّلُمَاتِ
 إِلَى النُّورِ، وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَمَا بَطَّنَ، وَبَارِكْ لَنَا فِي أَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا،
 وَقُلُوبِنَا، وَأَزْوَاجِنَا، وَذُرِّيَّاتِنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ
 لِنِعْمِكَ، مُشِينِينَ بِهَا عَلَيْكَ، قَابِلِينَ لَهَا وَأَتَمِّهَا عَلَيْنَا »^(٤)

(١) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٣)، رقم ٦٧٢١

(٢) سنن النسائي، (ج ٨ / ص ٤٨٩)، رقم ٥٠٣٢ وقال الالباني: صحيح

(٣) صحيح مسلم، (ج ٨ / ص ١٢)، رقم ٦٧١٣

(٤) المستدرک على الصحيحين، (ج ١ / ص ٣٩٧)، رقم ٩٧٧، صحيح على شرط مسلم

١٠٠. الخاتمة

قال تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) [ابراهيم: ٢٧]

لقد قضى الله سبحانه وتعالى وهو أحكم الحاكمين أن الأعمال بالخواتيم، وتقطعت قلوب الأنبياء والصالحين من الخوف كلما تذكروا الموت وسكراته خوفا من سوء الخاتمة. وحسن الخاتمة والموت على الإسلام مطلب الأنبياء والصالحين، ووصية الأنبياء لأبنائهم، قال تعالى: (وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ) [البقرة: ١٣٢]، ودعا يوسف وسأل ربه الموت على الإسلام فقال عليه السلام: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [يوسف: ١٠١]، أنت وليي أي الذي تلي أمري توفني مسلما قال ابن عباس يريد لا تسلبني الإسلام حتى تتوفاني عليه. قال المراغي في تفسيره: "طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة"^(١)

ومن اسباب سوء الخاتمة استيلاء حب الدنيا على القلب وضعف الإيمان والانهاك في المعاصي. ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفا من الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف سوء الخاتمة. وهذا من أعظم الفقه: أن يخاف الرجل أن تحذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

قال الغزالي رحمه الله: "ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح"^(٢)

(١) تفسير المراغي، (ج ١٣ / ص ٤٥)

(٢) إحياء علوم الدين، (ج ٣ / ص ٢٨٩)

يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَإِنَّهُ لِمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١)

يقول ابن رجب رحمه الله: "وقوله فيما يبدو للناس إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطّلع عليها الناس أما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة"^(٢)

سوء الخاتمة على رتبتين

الأولى: يغلب على القلب عند سكرات الموت الشك أو الجحود فيكون حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلّد، وهذا ناتج من فساد الاعتقاد أو ضعف الإيمان.

والثانية: وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حبّ الدنيا وشهواتها فيتمثّل ذلك في قلبه ويستغرقه فيخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار فينصرف إلى تذكّرها واللهج بها. وهذا ناتج من استيلاء حبّ الدنيا على القلب. قيل لأحدهم عند الموت قل لا إله إلا الله. فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلانيّ افعلوا فيه كذا.

وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك، قال عبد العزيز بن أبي رواد حضرت رجلا عند الموت يُلقن الشهادة لا إله إلا الله فقال في آخر ما قال هو كافر بما تقول ومات على ذلك قال فسألت عنه فإذا هو مدمن خمر.

وأنا رأيت سبعة أشخاص أعرفهم كانوا مترافقين على شرب الخمر والمقامرة ستّة منهم ماتوا وهم سكارى بحوادث مختلفة وميتة لم تشبه ميتة الآخر تدلّ على سوء الخاتمة،

(١) صحيح البخاري، (ج ٥ / ص ١٣٤)، رقم ٤٢٠٧

(٢) جامع العلوم والحكم، ص: ٥٧

وواحد فقط تاب منهم صلح دينه وصلحت دنياه.

عضد الدولة ابن ركن الدولة، البويهبي ولي سلطنة بلاد فارس واستولى على العراق، والجزيرة، ودانت له الأمم، وهو أول من خوطب بشاهنشاه [أي ملك الملوك] في الإسلام، وأول من خطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة، قيل: إنَّه أنشد أبياتا من ضمنها بيت قال فيه: عضد الدولة وابن ركنها ... ملك الاملاك غلاب القدر
فلازمه الصرع بعدها إلى أن مات ولما نزل به الموت كان يقول: (ما أغنى عني ماليه هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه) [الحاقة: ٢٨-٢٩] ويرددها إلى أن مات^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: "واعلم أنَّ سوء الخاتمة أعاذنا الله تعالى منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصلاح باطنه ما سمع بهذا ولا علم به والله الحمد وإنَّما تكون لمن له فساد في العقيدة أو إصرار على الكبيرة وإقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه حتى نزل به الموت قبل التوبة فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم قبل الانابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله"^(٢)

ومما يشترك به المتقين حسن الخاتمة فكلهم يأتيه الموت وقد استنار وجهه، وظهرت البشرية على مظهره، وقد يحدث بما يراه في ذلك الموقف العصيب. ومن لطف الله تعالى بعباده أنَّ من عاش على الخير فإنَّه يختم له بالخير، ومن عاش على الشر فإنَّه يختم له بالشر، فالإنسان يأخذ بالأسباب ويحسن الظنَّ بالله عزَّ وجلَّ.

ومما يعين على حسن الخاتمة:

أولاً: الإكثار من الأعمال الصالحة مع إصلاح ما بين العبد وبين الله، وشهود منتهى تعالى بالعمل الصالح وليحذر من العجب ورؤية العمل فإنَّه من أسباب سوء الخاتمة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ قَالُوا

(١) ابن العماد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، (ج ٤ / ص ٣٨٩)

(٢) الجواب الكافي، (ص: ١١٨)

يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمَلُهُ قَالَ يُؤَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ»^(١)، فمن المسلمين من يموت ساجداً أو يموت في الحج أو زائراً للمريض أو واصلاً للرحم.

ثانياً: الإكثار من ذكر الله فأكثر شيء تذكره بلسانك يحضرك عند الموت عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ »^(٢) فالذاكر لله يموت على الذكر وقارئ القرآن تحضره الآيات والمغني يحضره الغناء والشاعر يحضره الشعر.

ثالثاً: التوبة من فساد الاعتقاد وشعب النفاق والذنوب فالإصرار عليها يُحْشَى منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية، وبالوصول إلى النفاق الخالص وإلى سوء الخاتمة، فالمعاصي بريد الكفر، والذنوب سبب لسوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك.

قال ابن كثير رحمه الله: أن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له. فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان. فيقع في سوء الخاتمة. قال الله تعالى (وكان الشيطان للإنسان خذولاً) [الفرقان: ٢٩]^(٣)

*** قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمُصَدَّقُ «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٍّ أَمْ سَعِيدٍ فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيُخْتَمُ لَهُ

(١) صحيح الجامع الصغير، (ج ١ / ص ١١٧) رقم ٣٠٥، وقال الألباني: صحيح

(٢) سنن أبي داود، (ج ٣ / ص ١٥٩)، رقم ٣١١٨، وقال الألباني: صحيح

(٣) البداية والنهاية، (ج ٩ / ص ١٨٤)

بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»^(١)

وخير خاتمة كانت لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي فرغ قلبه لله ولدينه الذي ارسل به، «عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوفِّي فِيهِ: « الصَّلَاةُ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فَمَا زَالَ يَقُولُهَا، حَتَّى مَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ»^(٢)

اوصى بأهم ركن من هذا الدين بعد الشهادة، {الصَّلَاةُ} اي الزموها ولا تغفلوا عنها. {وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} واوصى بأضعف الناس من المسلمين وهم العبيد والإماء أي ادوا اليهم حقوقهم واحسنوا معاملتهم.

وبعدما خيره الله تعالى بين الدنيا وما عند الله قال: «عَبْدُ خَيْرِهِ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَيَبِينَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»^(٣) «عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُسْنِدٌ إِلَيَّ ظَهْرُهُ يَقُولُ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى»^(٤)

قال النووي: الصحيح الذي عليه الجمهور ان المراد بالرفيق الأعلى الأنبياء الساكنون اعلى عليين ولفظة رفيق تطلق على الواحد والجمع قال الله تعالى (وحسن أولئك رفيقا)^(٥)، أيها المسلمون نقول لكم كما قال انس بن النضر موتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، اتبعوا سنته قولاً وفعلاً وحالاً ولا تبتدعوا فقد كُفيتم. اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة والثبات على الإسلام إلى الممات ونعوذ بك من سوء الخاتمة ومن الحور بعد الكور يا مقلّب القلوب ثبتّ قلوبنا على دينك^(٦)

(١) صحيح البخاري، (ج ٤ / ص ١٣٣)، رقم ٣٣٣٢، المسند، (ج ٦ / ص ١٢٥)، رقم ٣٦٢٤

(٢) سنن ابن ماجه، (ج ١ / ص ٥١٩)، رقم ١٦٢٥، وقال الالباني: صحيح

(٣) صحيح البخاري، (ج ١ / ص ٢٢٠٦)، رقم ٤٤٤٠

(٤) سنن الترمذي، (ج ٥ / ص ٥٢٥)، رقم ٣٤٩٦، وقال الألباني: حسن صحيح

(٥) شرح النووي على مسلم (ج ١٥ / ص ٢٠٨)

(٦) الحور بعد الكور: أي الرجوع عن الاستقامة بعد ما كنت عليها.

قائمة المصادر

١. الأصبهاني، ابو محمد عبد الله بن جعفر الأنصاري، (ت ٣٦٩هـ)، أخلاق النبي وآدابه، تحقيق: صالح بن محمد الونيان، دار المسلم، ط ١، ١٩٩٨م
٢. الألباني، ابو عبد الرحمن بن محمد ناصر الدين الأشقوردي، (ت ١٤٢٠هـ)، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض.
٣. صحيح الجامع الصغير وزياداته، المكتب الاسلامي.
٤. صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الرياض.
٥. الآلوسي، ابو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني، (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار احياء التراث العربي، بيروت.
٦. ابن باديس، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، (ت ١٣٥٩هـ)، العقائد الاسلامية، مكتبة الشركة الجزائرية، ط ٢.
٧. ابن باز، عبدالعزيز بن عبدالله، (ت ١٤٢٠هـ)، مجموع فتاوى ابن باز، اشرف على جمعه محمد بن سعد الشويعر.
٨. البخاري، محمد بن اسماعيل ابو عبدالله الجعفي، (ت ٢٦٠هـ)، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الاسلامية، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.
٩. التاريخ الكبير، تحقيق: السيد هاشم الندوي، دار الفكر.
١٠. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ.
١١. البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن، فقه الأدعية والاذكار، الكويت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
١٢. البيهقي، ابو بكر احمد بن الحسين بن علي، (ت ٤٥٨هـ)، شعب الايمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد، اشرف على تحقيقه: مختار احمد الندوي، مكتبة الرشد، الرياض بالتعاون مع الدار السلفية بومباي، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
١٣. السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
١٤. الترمذي، محمد بن عيسى ابو عيسى السلمي، (ت ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي تحقيق: احمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر،

١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

١٥. ابن تيمية، احمد بن عبد الحلیم الحراني، (ت٧٢٨هـ)، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد، الرياض، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٤م.

١٦. مجموع الفتاوى، تحقيق: انور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦م.

١٧. الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد عمر عبدالله الحلواني، محمد كبير احمد شودري، دار ابن حزم ن بيروت، ١٤١٧هـ.

١٨. الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٥، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٩. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد ابو الفرج، (ت٥٩٧هـ)، صيد الخاطر، تحقيق د. السيد شلبي، سيد إبراهيم، دار الحديث بالقاهرة، ط ١٦٤١هـ.

٢٠. صفة الصفوة، تحقيق: محمد فاخوري، د. محمد رواس قلعجي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٢١. بحر الدموع، تحقيق: جمال محمود مصطفى، دار الفجر للتراث، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٢. الحاكم، محمد بن عبد الله ابو عبدالله النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٢٣. ابن حبان، محمد بن حبان البستي، (ت٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٢٤. الخطيب، ابو بكر احمد بن علي بن ثابت البغدادي، (ت٤٦٣هـ)، اقتضاء العلم العمل، تحقيق: محمد ناصر الدين الالباني، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٣٩٧هـ.

٢٥. الخلال، احمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال ابو بكر (ت٣١١هـ)، السنة، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، ١٤١٠هـ.

٢٦. ابن خياط، ابو عمرو خليفة بن خياط الشيباني البصري، (ت٢٤٠هـ)، تحقيق: د. اكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، ١٣٩٧هـ.

٢٧. ابو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن ابي داود، تعليق الالباني، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٨. الدسوقي، محمد عرفة، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، تحقيق: محمد عlish، دار الفكر، بيروت.

٢٩. الدميري، محمد بن موسى بن عيس بن علي ابو البقاء كمال الدين الشافعي، (ت٨٠٨هـ)، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.

٣٠. الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ)، الكبائر، دار الندوة الجديدة، بيروت.

٣١. تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٣٢. الرازي، ابو عبدالله محمد بن عمر فخر الدين، (ت٢٠٦هـ) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار احياء التراث، بيروت ١٤٢٠هـ.

٣٣. الربعي، خالد بن سليمان بن علي، من عجائب الدعاء، دار القاسم للنشر، الرياض، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٣٤. ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن بن احمد بن رجب السلامي البغدادي، (ت٧٩٥هـ)، الجامع لتفسير الامام ابن رجب، جمع وترتيب ابي معاذ طارق بن عوض الله، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٣٥. لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٣٦. جامع العلوم والحكم، ط١، دار المعرفة، بيروت.

٣٧. مجموع رسائل ابن رجب، تحقيق: ابو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٣٨. السخاوي، شمس الدين ابو الخير محمد بن عبد الرحمن، (ت٩٠٢هـ)، المقاصد الحسنة، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٣٩. السعدي، محمد بن ناصر، التنبهات اللطيفة فيما احتوت عليه الوساطية من المباحث المنيفة، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ.

٤٠. السفيري، شمس الدين محمد بن عمر بن احمد الشافعي، (ت٩٥٦هـ)، المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية صلى الله عليه وسلم تحقيق: احمد فتحي عبد

٤١. الرحمن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م
السلمان، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، (ت ١٤٢٢هـ)، موارد الظمان لدروس الزمان، ط٣٠، ١٤٢٤هـ.
٤٢. السمرقندي، ابو الليث نصر بن محمد بن احمد، (ت ٣٧٣هـ)، تنبيه الغافلين بأحاديث سيد المرسلين، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط٣، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
٤٣. الشافعي، محمد بن ادريس المطليبي القرشي المكي، (ت ٢٠٤هـ)، الام، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م
٤٤. الشرنبلالي، حسن بن عمار بن علي المصري الحنفي، مراقي الفلاح شرح متن نور اليضاح، راجعه، نعيم زرزور، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.
٤٥. الشعراوي، محمد متولي، (ت ١٤١٨هـ)، تفسير الشعراوي، مطابع اخبار اليوم، ١٩٩٧م.
٤٦. الشيباني، احمد بن حنبل ابو عبد الله، (ت ٢٤١هـ)، المسند، تعليقات: شعيب ارنأؤوط، مؤسسة قرطبة، مصر.
٤٧. فضائل الصحابة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
٤٨. الزهد، تحقيق: يحيى بن محمد سوس، دار ابن رجب، ط٢، ٢٠٠٣م
٤٩. الصفوري، عبد الرحمن بن عبد السلام (ت ٨٩٤هـ)، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، المطبعة الكاستلية، مصر.
٥٠. الصنعاني، محمد بن اسماعيل بن صلاح بن محمد الحسيني، (ت ١١٨٢هـ)، التحجير لإيضاح معاني التيسير، تحقيق: محمد صبحي بن حسن حلاق، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.
٥١. الطبراني، سليمان بن احمد ابو القاسم، (ت ٣٦٠هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م.
٥٢. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد ابو جعفر، (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٣. جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: احمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

٣٩٠ ————— زاد الدعاة في التغيير واصلاح القلوب

٥٤. ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الابصار فقه ابو حنيفة، دار الفكر بيروت ١٤٢١هـ ج ١/ ص ٥٠٨.

٥٥. العباد، عبد المحسن بن حمد، فضل اهل البيت وعلو مكانتهم عند اهل السنة والجماعة، دار ابن الاثير، الرياض، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٥٦. عبد القادر محمد عطا، المفيد في مهيات التوحيد، دار الاعلام، ط ١، ١٤٢٣هـ.

٥٧. ابن عبد الهادي، يوسف، (ت ٩٠٩هـ)، مراقي الجنان في السخاء وقضاء حوائج الاخوان، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

٥٨. العتيبي، عمر بن سليمان بن عبدالله الأشقر، (ت ١٤٣٣هـ)، التقوى (تعريفها وفضائلها ومحظوراتها وقصص من احوالها)، دار النفائس للنشر والتوزيع، الاردن، ط ١، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

٥٩. العثيمين، محمد بن صالح، (ت ١٤٢١هـ) مجموع رسائل وفتاوى ابن عثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن ابراهيم، دار الوطن، دار الثريا، ١٤١٣هـ.

٦٠. الشرح الممتع على زاد المستقنع، ط ١، ١٤٢٨هـ، دار ابن الجوزي.

٦١. العسقلاني، احمد بن علي بن حجر ابو الفضل الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وابوابه: محمد فؤاد عبد الباقي، تعليق: عبد العزيز بن باز، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩

٦٢. ابن العماد، عبد الحي بن احمد العكري الحنبلي، (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، تحقيق: محمود ارناؤوط، خرج احاديثه عبد القادر ارناؤوط، ط ١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، دار ابن كثير، بيروت، دمشق.

٦٣. الغزالي، محمد بن محمد ابو حامد، (ت ٥١٠هـ)، احياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.

٦٤. الفاسي، ابو العباس احمد بن محمد، (ت ١٢٢٤هـ)، البحر المديد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٦٥. الفيروزآبادي، مجد الدين ابو طاهر محمد بن يعقوب، (ت ٨١٧هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة.

٦٦. القاري، سلطان محمد، (ت ١٠١٤هـ)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ط ١،

- دار الكتب العلمية، بيروت، بيروت، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م
٦٧. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد بن سعيد بن جمال الحلاق، (ت ١٣٣٢هـ)،
خرج احاديثه وعلق عليه محمد ناصر الدين الالباني، ط ٥، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م،
المكتب الاسلامي
٦٨. ابن قدامة، ابو محمد موفق الدين المقدسي، (ت ٦٢٠هـ)، عمدة الفقه، تحقيق: احمد
محمد عزوز، المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
٦٩. المغني في فقه الامام أحمد، ط ١، دار الفكر، بيروت
٧٠. القرطبي، ابو عبدالله محمد بن احمد الانصاري الخزرجي، (ت ٦٧١هـ)، الجامع
لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣هـ،
٢٠٠٣م.
٧١. القسطلاني، احمد بن محمد بن ابي بكر القتيبي المصري، (ت ٩٢٣هـ)، المواهب اللدنية
بالمناهج المحمدية، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
٧٢. ابن القيم، محمد بن ابي بكر الدمشقي ابن قيم الجوزية، (ت ٧٥١هـ)، اعلام الموقعين
عن رب العالمين، تحقيق: طه عبد الرؤوف السعد، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣م.
٧٣. بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، دار الكتاب العربي،
بيروت
٧٤. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تحقيق: شعيب أرنؤوط، عبد
القادر الأرنؤوط، ط ٢، دار العروبة، الكويت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٧٥. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٧٦. الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعتلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل، دار
العاصمة، الرياض، ١٤٠٨هـ.
٧٧. الروح في الكلام على ارواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، دار
الكتب العلمية، بيروت.
٧٨. الفوائد، تحقيق: ماهر منصور عبد الرزاق كمال علي، دار الكتب العلمية، بيروت
١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م
٧٩. الوابل الصيب من الكلم الطيب، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب
العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م

٨٠. حادي الأرواح الى بلاد الأفراح، مطبعة المدني، القاهرة .
٨١. زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، ط
الرابعة عشرة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت،
٨٢. شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق: محمد بدر الدين النعساني،
دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م .
٨٣. طريق المهجرتين وباب السعادتين، تحقيق: عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام،
١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٨٤. اغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة،
بيروت، ١٣٩٥هـ
٨٥. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٦. ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمرو البصري، (ت ٧٧٤هـ)، البداية
والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م .
٨٧. ابن ماجه، ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت ٢٧٣هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق:
محمد فؤاد عبد الباقي، تعليق، محمد ناصر الدين الاباني، دار الفكر، دار احياء الكتب
العربية، بيروت.
٨٨. مالك بن انس بن مالك بن عامر الاصبحي المدني، (ت ١٧٩هـ)، الموطأ، تحقيق: محمد
مصطفى الاعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان للاعمال الخيرية والانسانية، ابو ظبي،
ط ١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
٨٩. الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، (ت ٤٥٠هـ) النكت والعيون،
تحقيق: السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٠. ابن المبارك، ابو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، (ت ١٨١هـ)، الزهد
والرقائق، تحقيق: حبيب الرحمن الاعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت
٩١. المراغي، احمد بن مصطفى، (ت ١٣٧١هـ)، تفسير المراغي، ط ١، ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦م،
مطبعة مصطفى الباي الحلبي، مصر.
٩٢. مسلم، ابو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد
عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت .
٩٣. ابن مفلح، إبراهيم بن محمد بن عبد الله الحنبلي أبو إسحاق برهان الدين، (ت ٨٨٤هـ)،

- المبدع في شرح المقنع، المكتب الاسلامي، ١٤٠٠ هـ، بيروت.
٩٤. ابن مفلح، محمد بن مفلح بن مفرج، بن محمد شمس الدين المقدسي، (ت ٧٦٣هـ)، الآداب الشرعية، والمنح المرعية، دار الكتب، بيروت.
٩٥. المقرئ، احمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ)، إمتاع الأسماع، ت: محمد عبد الحميد النميسي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م
٩٦. المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف تاج العارفين، فيض القدير شرح الجامع الصغير
٩٧. الموصل، محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي، (ت ٧٧٤هـ)، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق: سيد ابراهيم، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.
٩٨. النسائي، ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب، سنن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح ابو غدة، مكتب المطبوعات الاسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦هـ.
٩٩. ابو نعيم، احمد بن عبد الله بن احمد الاصبهاني، (ت ٤٣٠هـ)، حلية الاولياء، السعادة، القاهرة، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م
١٠٠. المسند المستخرج على صحيح الامام مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
١٠١. النووي، ابو زكريا، محيي الدين يحيى بن شرف الشافعي، (ت ٦٧٦هـ)، المجموع شرح المذهب. دار الفكر.
١٠٢. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.
١٠٣. الهيثمي، نور الدين علي بن ابي بكر، (ت ٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.
١٠٤. ابن الوزير، محمد بن ابراهيم ابو عبد الله القاسمي، (ت ٨٤٠هـ)، الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم، تقديم بكر عبد الله ابو زيد، دار عالم الفوائد.

المحتويات

٣مقدمة
٤منهجي في الكتاب
٥كلمة إلى الدعاة
٢٦سهات الخطبة الناجحة
٣٢الامامة
٣٩الاختلاف في الدين مهلكة
٥٢١. الاخلاص والمتابعة
٥٦٢. التوكّل على الله
٦٠٣. معرفة العدو وكيده
٦٣٤. التفكير في آيات الله المتلوة والمشهودة
٦٧٥. معرفة عواقب الذنوب
٧٠٦. الدخول في الاسلام كلّهُ
٧٤٧. الاسلام دين الرحمة
٧٧٨. الاسلام دين العدل
٨٠٩. الإسلام دين الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
٨٣١٠. الابتلاء بالمصائب
٨٦١١. الابتلاء بالنعم
٨٩١٢. التغيير يبدأ من النفس
٩٢١٣. التوبة
٩٥١٤. الاستغفار
٩٨١٥. الدعاء
١٠١١٦. وسائل استجابة الدعاء
١٠٥١٧. ما هو أفضل ما يدعو به العبد؟
١٠٩١٨. كيف نهتدي إلى الحقّ

١٩. أسباب الهداية..... ١١٢
٢٠. سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة..... ١١٦
٢١. العلم النافع..... ١٢٠
٢٢. العلم بالاسماء الحسنی..... ١٢٣
٢٣. معنى كلمة التوحيد لا إله الا الله..... ١٢٧
٢٤. أركان التوحيد..... ١٣٠
٢٥. آية الكرسي..... ١٣٤
٢٦. العبودية..... ١٣٨
٢٧. حقيقة العبودية..... ١٤٢
٢٨. صفات عباد الرحمن..... ١٤٥
٢٩. معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم..... ١٤٨
٣٠. صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخلقية..... ١٥١
٣١. خلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم..... ١٥٤
٣٢. معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم..... ١٥٧
٣٣. هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم..... ١٦٠
٣٤. شفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم..... ١٦٤
٣٥. حقوق النبي صلى الله عليه وآله وسلم..... ١٦٧
٣٦. حقوق أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم..... ١٧١
٣٧. الحسن بن علي رضي الله عنه السيد الذي جمع كلمة الامة..... ١٧٥
٣٨. شواهد الحق بين الجفاء والغلو في استشهاد الحسين رضي الله عنه..... ١٧٨
٣٩. حقوق صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم..... ١٨٢
٤٠. الولاء والبراء..... ١٨٧
٤١. معرفة دين الاسلام بأدلتها الشرعية..... ١٩٠
٤٢. الموت..... ١٩٣
٤٣. عذاب القبر..... ١٩٧
٤٤. الإيمان باليوم الآخر..... ٢٠٠

- ٢٠٤ ٤٥. الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والرسول
- ٢٠٧ ٤٦. الإيمان بالقدر
- ٢١٠ ٤٧. الإحسان
- ٢١٣ ٤٨. الصلاة
- ٢١٧ ٤٩. شروط وأركان الصلاة
- ٢٢٠ ٥٠. أسرار الصلاة
- ٢٢٦ ٥١. الخشوع في الصلاة
- ٢٣٠ ٥٢. الزكاة
- ٢٣٣ ٥٣. الاستعداد لشهر الصوم
- ٢٣٧ ٥٤. صيام رمضان
- ٢٤٠ ٥٥. التقوى
- ٢٤٣ ٥٦. علامات التقوى
- ٢٤٦ ٥٧. عيد الفطر
- ٢٤٩ ٥٨. بناء البيت
- ٢٥٣ ٥٩. حج البيت
- ٢٦٠ ٦١. صحّة المعاملات سبب لقبول الاعمال
- ٢٦٣ ٦٢. الصبر
- ٢٦٦ ٦٣. الشكر
- ٢٦٩ ٦٤. نموذج من جحود النعم (حفلات الأعراس)
- ٢٧٢ ٦٥. الجنّة
- ٢٧٥ ٦٦. الفردوس الأعلى
- ٢٧٨ ٦٧. لا إله الا الله مفتاح الجنّة
- ٢٨١ ٦٨. حسن الخلق من أسباب دخول الجنّة
- ٢٨٤ ٦٩. برّ الوالدين من أسباب دخول الجنّة
- ٢٨٧ ٧٠. أداء حقّ الجار من أسباب دخول الجنّة
- ٢٩٠ ٧١. النار

٣٩٧	زاد الدعاة في التغيير واصلاح القلوب
٢٩٣	٧٢. الشرك بالله من أسباب الخلود في النار
٢٩٦	٧٣. النفاق من أسباب دخول النار
٣٠٠	٧٤. الاستهزاء بالدين من أسباب الخلود في النار
٣٠٣	٧٥. الكبر من أسباب دخول النار
٣٠٦	٧٦. السبع المهلكات من أسباب دخول النار
٣٠٩	٧٧. الظلم من أسباب دخول النار
٣١٢	٧٨. الغيبة من أسباب دخول النار
٣١٥	٧٩. حال الأتباع والمتبوعين يوم القيامة
٣١٩	٨٠. العصبية القبليّة والقومية سبب هوان الأمة
٣٢٢	٨١. مكانة المرأة في الاسلام
٣٢٥	٨٢. أنواع القلوب
٣٢٩	٨٣. العلم حياة القلوب
٣٣٢	٨٤. محرّكات القلوب في السير إلى الله (الحبّ والرجاء والخوف)
٣٣٥	٨٥. الرجاء لفضل الله
٣٣٨	٨٦. الخوف من الله
٣٤١	٨٧. مفسدات القلوب
٣٤٥	٨٨. المحبّة
٣٤٨	٨٩. الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى: (التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل)
٣٥١	٩٠. تلاوة القرآن
٣٥٣	٩١. ذكر الله تعالى
٣٥٥	٩٢. إثارة محابّ الله على محابّك عند غلبات الهوى
٣٥٨	٩٣. مطالعة القلب لأسمائه وصفاته
٣٦١	٩٤. مشاهدة برّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة
٣٦٤	٩٥. انكسار القلب بكلّيته بين يدي الله تعالى
٣٦٧	٩٦. الخلوة بين يديه في الثلث الأخير من الليل
٣٧٠	٩٧. مجالسة المحيّن الصادقين

٣٩٨ ————— زاد الدعاة في التغيير واصلاح القلوب

٩٨. مباحدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل ٣٧٣

٩٩. أخوة الاسلام ومحبة المسلمين سبب لمحبة الله ٣٧٧

١٠٠. الخاتمة ٣٨١

قائمة المصادر ٣٨٦

المحتويات ٣٩٤

